

251 - 252



الثقافة الجديدة

مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

251 ـ 252

العدد 2،1 السنة 40 تشرين الثاني ـ كانون الأول 1992

فهرست

■ نحو المؤتمر الوطني الخامس... آراء ومناقشات

■ أدب وفن

■ متابعات ثقافية

■ مقتطفات ومعالجات

الغلاف: مخطط لمدينة بغداد عام 1572 مأخوذ عن طبعة لاحقة لكتاب «مدن العالم» الذي أعده الجغرافيان الالمانيان براون وهوغنبرغ.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي

بلاغ

عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي اجتماعاً اعتيادياً كاملاً في أواخر تشرين الأول ١٩٩٢ بحثت فيه مستجدات الوضع السياسي في البلاد، وأزمة النظام المستفحلة والوضع الاقتصادي المتدهور، والضائقة المعاشية التي تعيشها الجماهير الشعبية، والوضع في كردستان، وتطورات القضية الكردية وموضوع الفيدرالية، وحظر الطيران الحكومي جنوب خط العرض ٣٢ وأوضاع المعارضة العراقية، والتطورات في البلدان العربية والشرق الأوسط والعالم وأقرت بياناً بهذا الصدد. (ادناه نصه)

كما تابعت التحضيرات لعقد المؤتمر الوطني الخامس للحزب، سواء من ناحية إعداد الوثائق وتشكيل اللجان الخاصة، أو عقد كونفرنسات المنظمات التي ناقشت مشاريع الوثائق البرنامجية وغيرها من التحضيرات، واتخذت الإجراءات اللازمة لإنجاز عقد المؤتمر في أقرب فرصة ممكنة.

كما اتخذ الاجتماع جملة من الإجراءات التنظيمية تستهدف النهوض بعمل الحزب السياسي والتنظيمي والإعلامي.

حول المستجدات في الوضع السياسي

شهدت الفترة التي أعقبت اجتماع اللجنة المركزية في أيلول ١٩٩١ جملة تغيرات في الوضع السياسي في بلادنا عكست تفاقم الأزمة التي يعيشها النظام الدكتاتوري، ومظاهر جديدة فيها، تمثلت في اشتداد ضيق قاعدة النظام الاجتماعية، واستمرار التآكل في قمة السلطة، واشتداد الخلافات مع الأمم المتحدة، واحتمال المواجهة من جديد بين النظام ودول التحالف، وتعمقت معاناة الغالبية العظمى من أبناء الشعب جراء اشتداد الأزمة الاقتصادية والضائقة المعاشية التي ازدادت بفعل الدمار الرهيب الذي خلفته «أم المعارك» المشؤومة، والحصار الذي فرضته قرارات مجلس الأمن الدولي واستئثار الطغمة الدكتاتورية والفئات الطفيلية،التي تحظى برعايتها، بمصالح الشعب والوطن، واستغلالها للمصائب، التي أنزلتها بهما، لزيادة ثرواتها، ونهبها لأموال الشعب، وإصرارها على مواصلة صرف الأموال الطائلة، على التصنيع العسكري، وعسكرة الاقتصاد والإدارة، واستنفاد طاقات البلاد لخدمة هذا النهج المدمر، وما نجم عنه من تعاظم صفوف العاطلين عن العمل، وخصوصاً بين الشبيبة المتعلمة والمسرحين من الجيش، وتردي الأوضاع الاجتماعية وامتهان المرأة، وانتشار الفساد، والخراب الاجتماعي، والجرائم المنظمة من قبل أجهزة «الأمن» والاستخبارات مستغلين أجواء القمع والأوضاع الاستثنائية وفقدان الحريات العامة.

ويرز في المنطقة تزايد تأثير الامبريالية العالمية، ولاسيما الأمريكية، وهيمنتها على شؤونها وتعاظم إمكانياتها للتدخل في شؤون العراق ورسم مستقبله. الأمر الذي يتطلب أخذه بنظر الاعتبار عند رسم السياسات والمواقف التي تستهدف الحفاظ على السيادة الوطنية والتطور المستقل لوطننا.

وقامت فصائل المعارضة العراقية بنشاط واسع، وتشهد الساحة الآن جهوداً حثيثة من أجل توحيد جهودها على أساس برنامج موحد وإطار تحالفي شامل.

وبسبب من ذلك كله تتصاعد نقمة الجماهير، ويتزايد استعدادها للتحرك ضد الدكتاتورية في ظل وضع متوتر قابل للانفجار في أية لحظة.

الجديد في أزمة النظام

على الرغم من أن صدام حسين ما يزال هو المتحكم بكل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وقراراتها المختلفة، إلا أنه لايمكن إغفال استمرار التآكل في قمة السلطة.

فبعد فترة قصيرة من تشكيل حكومة جديدة بعد المؤتمر القطري العاشر للحزب الحاكم

وتنحية سعدون حمادي، عين محمد حمزة الزبيدي رئيساً للوزراء، وهو شخصية معروفة بوحشيتها في قمع انتفاضة آذار ١٩٩١ مساعداً للجلاد علي حسن المجيد.

وجرّت تغييرات في تركيبة الحكومة استهدفت تعزيز قبضة صدام حسين وأفراد عائلته على المراكز الحساسة في السلطة، حيث شغل ابن عمه علي حسن المجيد وزارة الدفاع، وأنيطت مسؤولية قوات الشرطة والأمن بأخويه وطبان وسبعاوي. أما الأمر الخاص بحماية صدام نفسه فقد وضع تحت سيطرة ابنه قصي. وجرى تبريز ابنه عدي، وتسليطه على وسائل الإعلام وقطاعات الشباب والطلبة والرياضة والتنظيمات المهنية للصحفيين والفنانين والكتاب.

ويضاف إلى هؤلاء العديد من أقارب صدام وأفراد عائلته الذين يشغلون القيادات العسكرية والأمنية وقيادات الشرطة والمكاتب الرئيسية الملحقة برئاسة الجمهورية.

وكانت حصيلة كل هذا هي عجز صدام حسين عن إدارة شؤون الدولة بالاعتماد على كوادر خارج دائرة ضيقة من أفراد عائلته، المقربين إليه.

وبدلاً من أن يعزز ذلك وضع النظام، فقد أدى إلى مزيد من التذمر حتى في الحلقات العليا من السلطة والجيش وشدد من عزلته.

وليس من شك أن هذه التغيرات لن تكون الأخيرة. ذلك أن استمرار تعمق أزمة النظام ومضاعفة مشاكله سيؤدي إلى اللجوء إلى المزيد من التغيير في مراكز المسؤولية الحساسة، والمزيد من ضيق الدائرة التي يعتمد عليها صدام للاستمرار في السلطة، وبمحاولة الخروج من الأزمة الخانقة التي تحيط بها.

المعارضة في القوات المسلحة

لم يكن من المتوقع أن تمر الهزيمة التي لحقت بالقوات المسلحة جراء زجها في مغامرة غزو الكويت، دون أن تثير احتجاجاً واسعاً داخل صفوفها، ليس في المراتب الدنيا فحسب، بل حتى في قياداتها، بما في ذلك أوساط داخل الحرس الجمهوري، ويستدل على ذلك من التصفيات الجسدية وإجراءات العزل والتنحية والتنقلات السريعة والمتواصلة في قيادات الفرق وحل عدد منها وإعادة تشكيلها.

وأخطر من هذا كله على النظام سعي أوساط، تتسع يوماً بعد آخر، داخل الجيش للبحث عن سبل لإزاحة صدام حسين، باعتباره المسؤول الأول عن الكارثة التي حلت بالبلاد وبالقوات المسلحة، وعقد الصلات مع المعارضة، وتنظيم المحاولات الانقلابية.

وكانت أولى البوادر لذلك ما جرى لعدد من الضباط والشخصيات المنتسبين لعشائر الجبور والعبيد، وإبعاد عدد منهم وملاحقتهم بغرض تصفيتهم جسدياً.

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل تعداه إلى تنظيم محاولات انقلابية كان أبرزها ماجرى في الصيف الماضي، عندما تحرك لواء في الحرس الجمهوري وما نجم عن ذلك من تصفية لهذا

اللواء.

إن المهم في هذا الحدث هو تعمق الانفصام بين قمة السلطة وفئات متسعة باستمرار من القوات المسلحة، التي تحرص على عدم الاندفاع في تنفيذ المهمات القمعية التي يريدها النظام، كما أظهرت ذلك الصدامات في منطقة الأهوار والصدامات المنفردة في كردستان خلال السنة الأخيرة. الأمر الذي سيترك آثاراً عميقة على موقف القوات المسلحة في المستقبل من النظام، ومن أية انتفاضة شعبية قادمة. وسيدفع قادة ومراتب فيها إلى تنظيم أنفسهم والتنسيق مع قوى المعارضة، وحتى مع دول إقليمية وأجنبية للتخلص من صدام حسين.

وفي مثل هذه الأوضاع التي تعيشها أجهزة الدولة العسكرية والمدنية، بما فيها الأوساط المعارضة لنهج الدكتاتورية وسياساتها داخل الحزب الحاكم، يترتب على حزبنا وقوى المعارضة جميعاً تنشيط العمل لإيجاد وتطوير الصلات بهذه الأوساط المؤثرة التي يعتمد على انحيازها إلى صف الشعب حسم المعركة مع النظام والقوى المؤيدة له، وتحسين أساليب مخاطبتها في الدعاية السياسية، بما يؤمن التوقف على تأييدها للنظام وتحولها إلى صف الشعب.

الأزمة الاقتصادية

رغم مايدعيه النظام من إعادة الاعمار والبناء والتغلب على مادمرته الحرب، فإن إعادة البناء لم تتعد بعض الهياكل الارتكازية كالجسور ومحطات الطاقة الكهربائية ومشاريع إسالة الماء وأنابيب النفط؛ فقط.

أما فيما يتعلق بإعادة تشغيل المصانع الإنتاجية وتوفير المستلزمات الأساسية لمعيشة الشعب، فلم يقتصر إخفاق النظام على بقاء الخراب والدمار في هذه المجالات، بل اشتدت الضائقة الاقتصادية والمعاشية لجماهير الشعب، وأصبحت الفئات الاجتماعية التي تعيش تحت مستوى الفقر تشمل أجزاء واسعة من الطبقة الوسطى، ومن ذوي الدخل المحدود وخصوصاً موظفي الدولة ومستخدميها، والمتقاعدين،ولم تعد مقتصرة على العمال والفلاحين والكادحين.

وتكمن أسباب ذلك في إصرار دول التحالف على استمرار الحصار المفروض على البلاد، الذي تحول إلى عقوبة للجماهير أكثر من كونه عقوبة لصدام وطغمته، وفي رفض النظام قبول تصدير ماقيمته (١٦٠٠) مليون دولار من النفط الخام لاستيراد المواد الغذائية والأدوية.

ومما عمق هذا الوضع المتردي وزاده صعوبة وكان سبباً هاماً في نشوئه هو نشاط المافيا الطفيلية من أفراد العائلة الحاكمة، ولاسيما الدائرة الضيقة من أولاد الرئيس وأقاربه ووكلائهم ووسطائهم الذين احتكروا استيراد المواد الغذائية والتجارة بها في السوق السوداء والمضاربة بأوراق العملة الصادرة عن المصرف المركزي والمزورة داخل البلاد وخارجها. وشراء الذهب من الأسواق وتهريبه مع العملات الصعبة إلى البنوك الخارجية وإغراق السوق بعملة لاغطاء لها، الأمر الذي رفع حالة التضخم الفائقة إلى معدلات عالية جداً.. وهو مايطلق عليه الاقتصاديون تسمية حالة مافوق

التضخم، وانخفاض قيمة الدينار إلى أقل من واحد على خمسين مما كان عليه في بداية الثمانينات. وانخفض في الأيام الأخيرة إلى أقل من ذلك إذ أصبح سعر الدولار حوالي الثلاثين ديناراً بعد أن كان الدينار الواحد يساوي ٣,١٠ دولار!!

ومن الطبيعي أن ترتفع أسعار المواد الغذائية والاستهلاكية، التي كثيراً ماتختفي من الأسواق، والخدمات إلى مستويات يعجز عن دفعها غير الأغنياء الذين لايشكلون إلا نسبة صغيرة من أبناء الشعب. وتوسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء وازداد عدد المليونيرية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ بلادنا، عن طريق المضاربات والفساد ونهب أموال الشعب.

تعاظم التوتر الاجتماعي

وفي ظروف مثل هذه من الطبيعي أن يزداد التوتر الاجتماعي، وتتحفز الجماهير الغفيرة للمطالبة بتحسين أوضاعها وتوفير الغذاء لها. وقد ظهر ذلك واضحاً أيام الأزمة بين النظام والأمم المتحدة بشأن تفتيش وزارة الزراعة والري، وتلويح الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين بالعمل العسكري، واستهداف صدام حسين شخصياً إذا ما استمر في مماطلته في تنفيذ قرارات مجلس الأمن.

وعبرت نقمة الجماهير عن نفسها بأشكال عديدة من بينها الهجرة الواسعة إلى الخارج وتزايد الانتقاد العلني للسلطة ورموزها في شوارع العاصمة والمدن الأخرى، وفي التجمعات الجماهيرية كالمصانع والمدارس والجامعات وفي وسائل النقل العام، وكذلك في الإضرابات والاحتجاجات العمالية في الحلة والديوانية وتظاهرة الأعظمية، والتجمعات الجماهيرية في العشرة الأولى من شهر محرم الحرام.

ومن جانب آخر استشرت ظاهرة التمييز الطائفي بشكل لم يسبق له مثيل. إذ أبعد العديد من الضباط الشيعة في القوات المسلحة، والأجهزة الخاصة وموظفي الدولة، من مراكزهم وبلغ حد منع العمال من الاشتغال في بعض المشاريع الحكومية.

ومن جانب آخر ساد التطير والهلع أوساطاً غير قليلة من الإداريين والموظفين الكبار ومراتب أجهزة الأمن والشرطة الذين تركوا مواقع عملهم أو أظهروا مشاعر التودد للجماهير الناقمة تحسباً لانفجارها وخشية منها. وأظهرت الأحداث أن ليس لدى الزمرة الحاكمة، ماتقدمه للجماهير غير أساليبها الفاشية.

ومثلما نكل صدام بالضباط والعسكريين في تموز الماضي لمواجهة غضب القوات المسلحة لجأ إلى اقتراف جريمة بشعة جديدة، بإعدام عشرات التجار بينهم باعة مفرد صغار وتعريض مئات آخرين إلى ممارسات مهينة. . واستهدفت السلطة بسلوكها هذا إشغال الجماهير وصرف اهتمامها عن الأزمة الخانقة والتستر على المضاربين الحقيقيين. من أفراد العائلة الحاكمة. والأهم من ذلك بالنسبة للسلطة هو إرهاب المواطنين وردعهم عن الاحتجاج على سوء الأوضاع التي يعيشونها، وعن

المطالبة بتوفير الغذاء واستباق أي تحرك جماهيري يمكن أن يتحول إلى انتفاضة جديدة.

والحصيلة من هذه الإجراءات كما كان متوقعاً على عكس ماابتغاه النظام. فقد انكمش النشاط الاقتصادي فوراً، وانخفض استيراد المواد الغذائية من الأردن بنسبة عالية، وهرب عدد من التجار والاقتصاديين مع أموالهم إلى الخارج، واختفت المواد الغذائية وارتفعت أسعارها من جديد، وانطلقت موجة شديدة وعلنية من الغضب وانتقاد الدكتاتور.

إن تحرك الحزب ونشاطه مع قوى المعارضة ينبغي أن يأخذ هذه العوامل بنظر الاعتبار. وفي المقام الأول التوجه إلى ماشخصه الحزب سابقاً، لخلق حركة جماهيرية حول مطالب اقتصادية واجتماعية وإيجاد الأطر التنظيمية المناسبة لمثل هذا التحرك الجماهيري. ومن المهمات الجديرة بالاهتمام تطمين قاعدة حزب البعث الحاكم وأعداد غفيرة من منتسبيه على مستقبلهم ورعاية مصالحهم المشروعة والعمل على فك ارتباطهم بالسلطة ووقف تأييدهم لها.

من مساعي النظام لتصريف الأزمة

ومن بين مالجأ إليه النظام لتصريف أزمته وصرف أنظار الجماهير عن مسؤوليته عن الأوضاع المزرية التي تعيشها البلاد افتعاله أزمة تفتيش وزارة الزراعة والري. وكعادته استند إلى الحسابات المغلوطة والأساليب التضليلية، متظاهراً بالدفاع عن السيادة الوطنية وبـ «منازلة» أمريكا وفرق التفتيش الدولية وتحدي قرارات مجلس الأمن الدولي التي تبيح لهذه الفرق الدخول إلى أية منطقة في العراق. وقد سبق للحكومة أن استسلمت لها وتعهدت بتقديم كافة المستلزمات لتنفيذها.

وبعد التهديد بالموقف المتشدد وبتوجيه ضربة عسكرية جديدة، استسلم صدام تحت ستار مساومة بقبول التفتيش تجنباً للضربة العسكرية، زاعماً أنه حقق نصراً جديداً، وأنه وجه ضربة للإدارة الأمريكية؛ متوهماً أنه كسب الشارع العربي باعتباره مناضلاً ضد الامبريالية الأمريكية، بعد أن ازداد افتضاح هزال موقفه بالنسبة للجماهير العراقية، وعمل على إلهاء الناس بالحديث من جديد عن «عراقية» الكويت، وبتنظيم المؤتمرات والمهرجانات «الوطنية» و«العربية» و«الدولية» التي يدعو إليها أعداداً كبيرة من المصفقين المضللين والمرتزقة.

وفي مواجهة اشتداد عزلة السلطة وتزايد النشاطات للإطاحة بها، داخلياً وإقليمياً ودولياً، شدد النظام حملاته الإرهابية ضد قوى المعارضة وجماهير الشعب، وخصوصاً في مناطق الأهوار حيث شنت قطعاته العسكرية حملات وحشية في تلك المناطق استهدفت شل المقاومة الشعبية المسلحة هناك وتهجير السكان الآمنين وحرق قراهم وإزالتها من الوجود. ولجأ النظام إلى ترميم أجهزته القمعية لإحكام قبضته الإرهابية على العاصمة بغداد، وغيرها من المدن. وقام بإعادة تنظيم أجهزة الحزب الحاكم، وتشكيل قوى مسلحة منه لمواجهة احتمالات الانتفاضة الشعبية، وعسكرة الأجهزة الإدارية والسعي لكسب ولاء العشائر وتسليحها. وقد تجلى كل هذا في الدورة الاستثنائية للمؤتمر القطري العاشر التي انعقدت في تشرين الأول ٩٢.

غير أن الدلائل تشير إلى أن كل ما قام به النظام لم يؤد إلى فك عزلته والتخفيف منها.

حول حظر الطيران الحربي العراقي جنوب خط العرض ٣٢

تلقى النظام ضربة موجعة خطيرة، وذلك بإقامة منطقة محظورة على الطيران الحربي الحكومي جنوب خط عرض ٣٢ من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا، استناداً لقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨، وهنا تراجع النظام مجدداً بالرغم من تصريحات الناطقين المخولين باسم مجلس قيادة الثورة وممثل العراق في الأمم المتحدة بالمقاومة والمجابهة العسكرية، إذ انسحبت الطائرات العراقية إلى شمال المنطقة المحظورة.

إن مساحة المنطقة المحظورة على الطيران الحربي الحكومي تبلغ ثلث مساحة العراق تقريباً. ويسكنها أكثر من ثلاثة ملايين مواطن، ومن المتوقع أن تتحول إلى ملاذ آمن على غرار ماتم في كردستان، وذلك بتحريم استخدام القوات البرية والدبابات والمدفعية في مجابهة نضالات قوى المعارضة وجماهير الشعب.

وتجدر الإشارة إلى خطورة هذه الخطوة على النظام إذا أضفنا إليها المنطقة الآمنة الأخرى في كردستان العراق، والتي يقطنها، أيضاً، حوالي ثلاثة ملايين مواطن. وأقيمت فيها سلطة إقليمية غير خاضعة لسلطة حكومة صدام.

والأمر الأكثر خطورة في حسابات النظام هو أن انتفاضة آذار ١٩٩١، التي شملت العراق جنوباً وشمالاً، انطلقت أولاً من المنطقة الجنوبيةالتي ماتزال تضم في الأهوار والمناطق الريفية في المحافظات الأخرى، قوى شعبية مسلحة من المدنيين والعسكريين، تقوم بأعمال انصارية في مراكز المحافظات الجنوبية ومدنها، ، وتسيطر على طرق المواصلات وتضعها تحت إشرافها عند حلول المساء. وبمعنى آخر تشكل هذه المنطقة بؤرة ثورية أخرى يمكنها أن تعجل كثيراً بعملية إسقاط الدكتاتورية.

لقد أعلن المكتب السياسي لحزبنا في تصريحه الصادر في ٢٢ آب الماضي تفهمه لإقامة منطقة آمنة قبل إعلان قرار حظر الطيران الحربي جنوب خط عرض ٣٢ آخذاً بنظر الاعتبار عوامل عديدة، بالإضافة إلى ماسبق ذكره، منها:

تعرض سكان مناطق الأهوار والمحافظات الجنوبية واللاجئين إليها من قوى انتفاضة آذار ١٩٩١ إلى إبادة منهجية أكدها مبعوثو ومراقبو الأمم المتحدة، بعد أن أصدرت قوى المعارضة ونشر عنها حزبنا تفصيلات إضافية.

لقد حظي إعلان هذه المنطقة بتأييد أوساط من جماهير الشعب وقوى المعارضة والرأي العام العالمي ومؤسساته/سيما وأن إعلان هذه المنطقة كان استناداً لقرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨.

إن حزبنا إذ يبدي تفهمه لإقامة المنطقة يدرك جيداً ماتعنيه من مخاطر جسيمة تمس بسيادة العراق، وتهديد لوحدة ترابه الوطني، وصيانة كيانه السياسي الموحد، وخطر على ثرواته البترولية

الغزيرة في هذا الجزء من وطننا. وبالإضافة إلى ذلك فإنها تفسح في المجال للتدخل الخارجي، ويحمل حزبنا صدام حسين ونظامه وزمرته المسؤولية التاريخية الكاملة عما ألحقه بوطننا وشعبنا من كوارث، وما هدده بأخطار انفجار النزاعات الطائفية والقومية، والتجزئة والتقسيم. ويدين حزبنا بشدة ادعاءات النظام ومزاعمه الكاذبة والتضليلية بالدفاع عن سيادة واستقلال العراق.

ويؤكد حزبنا للرأي العام في كل مكان أن مايريده صدام حسين هو أن يبقى حاكماً فرداً متسلطاً حتى وإن اقتصرت سلطته على جزء من العراق فقط مستهتراً بمصالح الشعب والوطن.

وإن استمرار النظام الدكتاتوري الحالي يضاعف هذه الأخطار التي يعتمد إحباطها على وعي جماهير شعبنا وقوى المعارضة العراقية ونضالها لدرئها وصيانة وحدة وطننا وثرواته.

مسؤولية تاريخية ومهمات صعبة

إن الظروف الاستثنائية التي يمر بها شعبنا ووطننا في الوقت الراهن، تضع على عاتق قوى المعارضة العلمانية والإسلامية، مسؤولية تاريخية ومهمات صعبة للتعاون من أجل إسقاط النظام ودرء الأخطار التي سبق ذكرها.

ولا بد من التنبيه إلى أن إصرار الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها على إضفاء الصفة الطائفية على المعارضة في المنطقة أمر مقصود، وليس جهلاً بحقيقة الوضع، الهدف منه تغليب التركيب الاثني والديني والطائفي على نشاط المعارضة العراقية، واستبعاد المحتوى الديمقراطي لنضال شعبنا، وإضعاف دور حزبنا والقوى الديمقراطية في رسم مستقبل وطننا والبديل الديمقراطي الذي ينشده الشعب.

ويتفهم حزبنا أيضاً القلق الذي أعربت عنه بعض الدول والأوساط العربية تجاه إعلان المنطقة، وما يمكن أن يشكله من أخطار على وحدة العراق، وخشيتها من هذه السابقة.

وإن حزبنا إذ يقدر قلق الأوساط الشقيقة والصديقة يناشدها مساندة نضال شعبنا الشاق، بعربه وكرده وأقلياته، للخلاص من الدكتاتورية، وصيانة وحدة وطنه..

وفي كل الأحوال يتميز موقفنا بقبول المنطقة الآمنة ودعم المطالبة الجماهيرية بتوسيعها لتشمل العراق كله، وتحويلها إلى ملاذ آمن تحت إشراف الأمم المتحدة، باعتباره ذلك حلاً مؤقتاً، ومقدمة لإسقاط الدكتاتورية، وأرضية للنشاط مع كل قوى المعارضة الداعية للحفاظ على وحدة العراق وكيانه السياسي وإقامة نظام ديمقراطي تعددي فيه.

وضع جديد

لقد نشأ وضع جديد يتطلب بذل الجهود المكثفة والعاجلة لتعزيز منظماتنا ونشاطها وتوطيد صلاتها مع جماهير الشعب الواسعة ومع أطراف المعارضة الأخرى ذات الوجود الملموس، ومتابعة مستجدات هذا التغيير الخطير الذي سينعكس بالضرورة على مواقف منتسبي القوات المسلحة.

وعلاقتهم مع الجماهير، واحتمال امتناع أوساط غير قليلة من هذه القوات على تنفيذ أوامر الدكتاتور، والتحاقها بصفوف الشعب.

ومن المتوقع أن تنشأ ظروف تستدعي إقامة إدارة ذاتية شعبية في المنطقة، وينبغي العمل على جعلها تستقطب كل القوى الناشطة في الساحة دون استثناء وتجنب الأعمال والشعارات الفئوية الضيقة التي ألحقت أضراراً كبيرة بانتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة. والتأكيد على الشعارات الموحدة التي تجمع عليها قوى المعارضة، واتخاذ خطوات تكسب أوسع الفئات الشعبية والجماهير، بمن فيها المرتبطون بالنظام حتى الآن، المستعدون لترك هذا الارتباط والالتحاق بصفوف الشعب.

علقت الجماهير آمالها على انتخابات المجلس الوطني الكردستاني، لكنها صُدمت لما شابها من شوائب. بالرغم من ذلك قبلت الجماهير والأحزاب الكردستانية الاتفاق بين حدك وأوك حول اقتسام مقاعد المجلس الوطني مناصفة بينهما،

، إن لم تستطع حلها. ولكنها

ماذا تواجه اليوم؟

الأزمة الاقتصادية

الوضع الاقتصادي يزداد سوءاً

السلطات المركزية، بالإضافة إلى الحصار المفروض على العراق عموماً من قبل مجلس الأمن الدولي، وما نتج عن ذلك من توقف العملية الإنتاجية وخصوصاً في ميدان الصناعة حيث توقفت معامل الاسمنت والنسيج والسكائر والسجاد وغيرها عن العمل لفترة طويلة ولم تستعد طاقاتها الإنتاجية بعد عودتها للعمل، ورمي آلاف العمال إلى أحضان البطالة.

كما قامت سلطات النظام الدكتاتوري بشراء نسبة ليست قليلة من الحاصل الزراعي، وخصوصاً الحبوب بأسعار مغرية عن طريق التهريب، بهدف خلق المصاعب أمام الشعب الكردي ومؤسساته، وحل مشاكل النظام على حسابه.

ومن ناحية أخرى لم تقم الجبهة الكردستانية العراقية سابقاً ولا السلطات الإقليمية اليوم بدورهما في وضع الموارد المالية تحت تصرف الحكومة الإقليمية إلا مؤخراً. وهي مبالغ غير قليلة، تتجاوز المليار دينار سنوياً، إذا ماتأمنت جبايتها من واردات الكمارك والخدمات المدنية، وباستطاعتها تخفيف الأزمة الاقتصادية إلى درجة ملموسة ودفع مرتبات وأجور الموظفين والمستخدمين والمتقاعدين الذين أوقفت الدوائر المركزية صرف أجورهم.

ومن المؤسف أن المساعدات الإنسانية التي تقدمها لجان الإغاثة ووكالات الأمم المتحدة

لاتصل نسبة كبيرة منها إلى المعوزين، الأمر الذي يتطلب تنظيم التوزيع على مستحقي هذه المساعدات بالاعتماد على هيئات شعبية.

وما تزال قضية توفير الوقود الضروري لتسيير الحياة والنشاط الاقتصادي تقلق أبناء الشعب. ومن ناحية أخرى ارتفعت أسعار الوقود، لدرجة لايستطيع معها السكان عموماً شراءها. وسيكون فصل الشتاء بسبب ذلك مأساة جديدة تحل بمئات الألوف من السكان، وتؤدي إلى تدمير البيئة بسبب من قطع الأشجار واستخدام أخشابها كوقود، إن لم يجر حل هذه المعضلة.

منطقياً بمطالبة الفلاحين بالعودة

إلى قراهم وأراضيهم المدمرة والمصادرة، بينما يمنعهم من ذلك الأغوات المتحالفون على اختلاف انتماءاتهم السياسية. وكان من شأن هذا الوضع أن وقعت مصادمات بين تحالف الأغوات هذا وتحالف الفلاحين الذين يناضلون من أجل الحفاظ على قانون ٩٠ لسنة ١٩٧٥، كما حصل في منطقة بشدر.

ومن الملاحظ أن الإنتاج الزراعي كان جيداً هذا العام، والمواد الغذائية متوفرة في الأسواق، وكذلك السلع الاستهلاكية الأخرى. لكن ارتفاع أسعارها الجنوني يحول دون حصول الغالبية العظمى من المواطنين عليها. إن التخمة في العرض وارتفاع الأسعار يعود في أحد أسبابه إلى تشكيل مافيا احتكارية، تنزل إلى الأسواق يومياً وتتحكم في تحديد الأسعار والمضاربة بها.

ومن الظواهر الخطيرة استمرار تهريب ثروات كردستان إلى إيران، من المكائن والمركبات وغيرها من المعدات الآلية والكهربائية التي تقدر قيمتها بمئات الملايين من الدولارات. هذا التهريب صار مصدر ثروات مالية كبيرة جداً لبعض الشخصيات المتنفذة، المرتبطة بهذه الجهة السياسية أو تلك.

إن حزبنا يدعو إلى اتخاذ إجراءات عاجلة لمعالجة الوضع الاقتصادي، وذلك بـ :

- توفير الوقود عن طريق

حسين، تنفيذاً لقرارات مجلس الأمن، أو عن طريق شرائه من الخارج.

- رفع الحجز عن كامل الأموال العراقية المجمدة في البنوك الأجنبية واستخدامها بشكل عقلاني لصالح جماهير الشعب،

المصانع المتوقفة عن العمل..

- تأمين الحصول على المساعدات المالية التي جمعت تضامناً مع الشعب الكردي في البلدان المختلفة.

- إقامة علاقات تجارية مع الدول المجاورة للحصول على المواد الغذائية والاستهلاكية الضرورية والمواد الأولية لتشغيل المصانع.

- الرقابة على السوق المحلية لمنع المضاربة والاحتكار، ومنع التهريب.

- تدقيق توزيع البطاقات التموينية وضمان عدالته ورعاية المحتاجين والفقراء.

- تطمين الفلاحين إلى حقوقهم في الأرض وفي ناتجها. وذلك بالالتزام بقانون رقم ٩٠ لسنة

١٩٧٥، ودعم الفلاحين للعودة إلى قراهم وإعادة إعمارها وذلك عن طريق مدهم بالسلف المالية والبذور والأسمدة والوقود ومواد البناء وتنظيم حملات المكافحة بالمبيدات.

أمن المواطنين

لايشعر المواطنون بالأمان على حياتهم وممتلكاتهم الشخصية وحرمة دور سكنهم، إذ تجري الاغتيالات من أجل السرقة والثأر العشائري وتصفية الحسابات القديمة وتنفيذاً لتوجيهات دوائر المخابرات العراقية والأجنبية.

وراح ضحية هذه الجرائم رجال ونساء وأطفال، شخصيات اجتماعية مختلفة،وطالت الاعتداءات ممثلي الأمم المتحدة ووكالات الإغاثة وقواتهم.

وينعكس افتقاد الأمن والاستقرار سلباً على النشاط الاقتصادي والتجارة الداخلية واستثمار رؤوس الأموال المتوفرة في كردستان.

التنافس بين القوى الكردستانية

أضاف توتر العلاقات والتنافس بين بعض الأحزاب الكردستانية، وانفجار الصدامات بينها بين فترة وأخرى، وسقوط عدد من القتلى والجرحى، مزيداً من عدم الاستقرار وعدم الاطمئنان إلى المستقبل. ولحسن الحظ تم تطويق هذه الحوادث بمبادرة من إحزاب الجبهة الكردستانية، لكن منع تكررها يحتاج إلى مزيد من الجهود من جانب الحكومة وأحزاب الجبهة.

ومن المؤسف جداً أن ينشأ خلاف ويصل إلى الصدام العسكري

العراق، ممثلاً بأحزابه ومؤسساته الإقليمية من جهة، وبين حزب العمال الكردستاني في تركيا من جهة أخرى نتيجة

واقعياً من جانب حزب العمال الكردستاني لأهمية حماية

لصالح مجموع حركة التحرر الوطني الكردستانية، وذلك بوقف نشاطه العسكري

، الأمر مواصلة الجهود لحل الخلاف القائم، وحماية مكتسبات الشعب الكردستاني.

الجبهة الكردستانية (ج. ك.)

مثلما كان متوقعاً وتصورت بعض أطرافها، فقدت ج.ك كثيراً من نفوذها ودورها بعد انبثاق المجلس الوطني الكردستاني وتشكيل الحكومة الإقليمية. انطلقت تلك الأطراف من أن الجبهة لم تعد هي السلطة في كردستان المحررة. وحاولت تهميش دورها السياسي، تمهيداً لإنهاء وجودها.

وفي المقابل أراد آخرون أن تكون القيادة السياسية للجبهة هيئة مشابهة لمجلس الأعيان، تحال إليها قرارات وقوانين البرلمان والحكومة للتصديق عليها.

أما موقف حزبنا، فينطلق من أن الجبهة الكردستانية،بقدر مايتعلق الأمر بكردستان،لم تعد جبهة معارضة مثلما كانت أثناء تسلط الدكتاتورية في

للتحولات التقدمية والعمل على إسقاط الدكتاتورية في بغداد بالتحالف مع قوى المعارضة العراقية.

وفي كل الأحوال لايمكن للجبهة أن تحكم مباشرة، كما كانت عندما انسحبت الدكتاتورية قبل تشكيل المجلس الوطني والوزارة. وليس من الصحيح أن تتدخل في شؤون إدارة إقليم كردستان.

ويرى الحزب أن تبقى ج.ك قيادة سياسية، وأن تجتمع دورياً وبانتظام وتبحث الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. وعندما تتوصل إلى قرار بالاتفاق حول أية قضية يمكن أن يأخذ هذا القرار طريقه، كمقترح، إلى البرلمان والحكومة للتشريع والتنفيذ، ويؤكد حزبنا ضرورة تحول المكتب التنفيذي (الكاركير) إلى سكرتارية للقيادة السياسية، تنظم اجتماعاتها وتعد تقاريرها ومشاريع قراراتها وتسهر على تنفيذها عند إقرارها. كما يطالب بأن تتحول ج.ك إلى حركة جماهيرية في المحافظات والأقضية والقصبات والريف لتكون قوة فاعلة، وليس جهازاً فوقياً معلقاً.

ويدرك الحزب من تجاربه السابقة في التحالفات، ومن تجارب غيره، مساعي الأحزاب المتنفذة التي تنتقل إلى السلطة للاستئثار والهيمنة في تحالفاتها مع الأحزاب الأقل نفوذاً وقوة.

ويرتبط بتعزيز دور ج.ك وقيامها بمهماتها في الظروف الجديدة، وما تتطلبه من وحدة صف لمواجهة صعوبات الأوضاع الاستثنائية الانتقالية الحالية، يرتبط بهذا كله ضرورة تمثيل جميع أطراف ج.ك في البرلمان وفي الحكومة، سيما وأن المجلس الوطني الكردستاني جرى تشكيله على أساس الاتفاق، الذي يمكن أن يتسع الآن لجميع أطراف ج.ك، وأن قرار القيادة السياسية في ٢٢/٥/ ١٩٩٢ بإجراء الانتخابات في ١٥/١٠/ ١٩٩٢ لم تتوفر مستلزمات تطبيقه حتى الآن.

الآفاق المنظورة

وعسكرياً من قبل حكام بغداد، وسلامتها

، ومعرضة لضغط دول الجوار. وبسبب من ذلك لابد من التفكير الجدي بالوسائل والمستلزمات الضرورية للدفاع عن مكتسبات الشعب الكردستاني.

الدكتاتورية الشوفينية ، وتتحين الفرص، وتهدد بالعودة والانتقام من الشعب الكردي وج.ك وأطرافها وقادتها. وتراهن لتحقيق مخططها على:

ـ إثارة وتعميق الخلافات والصدامات بين الأحزاب القومية الكردستانية. ومن الصعب استبعاد نشاط السلطة الدكتاتورية في الصدامات التي حدثت في الفترة السابقة.

ـ ما تشعر به الجماهير من خيبة أمل لاستفحال الأزمة التي تعيشها. ولئن لم تبادر، حتى الآن،إلى حركة مطلبية واسعة، وذلك راجع لإدراكها خطورة الوضع وأخطار اجتياح الدكتاتورية كردستان؛ غير أن استمرار موقفها هذا غير مضمون كما ليس بمقدور أحد أن يضمن عدم ظهور وشيوع ظاهرة عدم الاكتراث لديها رغم أجواء الحرية والديموقراطية لأنها تريد الخبز والديمقراطية في آن واحد.

ـ الوصول إلى اتفاق في نهاية المطاف بين الولايات المتحدة والدول المتحالفة وبين صدام حسين، لاستحصال موقف محايد من الحلفاء إزاء هجوم

حصلت الولايات المتحدة الأمريكية على جميع مطالبها وعززت مواقعها ونفوذها في العراق. وللشعب الكردي تجربة مريرة على قوات الشاه باجتياحها وتعليق قادتها على أعواد المشانق.

لكن التطورات الأكثر احتمالاً في أعقاب الإعلان عن المنطقة المحظورة على الطيران الحكومي في جنوب العراق تنحو إلى أن على صدام حسين أن يرحل، وينبغي التهيؤ للتعامل مع من يخلفه.

وتعلمنا التجربة أن النظام الديمقراطي هو الحامي لكردستان وشعبها والشعب العراقي.

رعاية وتوطيد، وذلك بتكريس حرية التنظيم السياسي والنقابي والديمقراطي على أساس التعددية، وحرية الصحافة والتعبير عن الرأي، والتجمع والتظاهر والإضراب بتشريعات تضمن عدم تقييدها، والاكتفاء بتقديم إشعار من قبل ممارسي هذه الحريات إلى السلطات المسؤولة.

لقد ناضل حزبنا الشيوعي العراقي من أجل حل القضية الكردية في العراق حلاً سلمياً ديمقراطياً. . وأقر حق تقرير المصير للشعب الكردي. واقترح الحلول لهذه القضية وفقاً لتطوراتها على أرض الواقع. فرفع شعار الحكم الذاتي منذ الستينات، وبعد فرض هذا الشعار على النظام في اتفاقية آذار ١٩٧٠، وما تلا ذلك من تشويه لهذه الصيغة وإفراغها من محتواها القومي الديمقراطي، رفع حزبنا ـ مع كل القوى الوطنية العراقية ـ شعار الحكمُ الذاتي الحقيقي لكردستان، إلى جانب شعار الديمقراطية للعراق.

وارتباطاً بتطورات القضية الكردية في أعقاب انتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة، دعا حزبنا لتطوير شعار الحكم الذاتي الحقيقي وصولاً إلى الفيدرالية. ويلور شعار الفيدرالية في إطار العراق الديمقراطي الموحد المنشود، باعتبار ذلك هو الحل الأكثر تعبيراً عن الاستجابة للحقوق القومية للشعب الكردي في الظروف الراهنة، ويخدم مصالحه، ويتيح له أفضل الفرص للتقدم الاجتماعي. وسيظل حزبنا ملتزماً باحترام إرادة الشعب الكردي باختيار أي حل آخر للقضية القومية في الفترة التي تعقب إسقاط النظام الدكتاتوري أو في حالة استمراره.

وعندما أقر المجلس الوطني الكردستاني،في الرابع من تشرين الأول ١٩٩٢،الفيدرالية كشكل للعلاقة التي يريدها الشعب الكردي في العراق بالحكومة المركزية في ظل الديمقراطية، بادر حزبنا إلى تأييد هذا القرار في تصريح للمكتب السياسي بتأريخ ٥/١٠/ ١٩٩٢ . كما حظي هذا القرار باحترام غالبية قوى المعارضة العراقية.

المعارضة العراقية ونشاطها

أحد أهم أسباب بقاء الدكتاتورية، على الرغم من أزمتها القاتلة وهزائمها العسكرية والسياسية، هو أزمة المعارضة العراقية المتمثلة في تشرذمها وعدم اتفاقها على إطار تنظيمي وبرنامج تلتزم به وتواصل العمل من أجل تحقيقه، وغيابها عن ساحة النضال في عموم العراق، وانفراد هذا الطرف أو ذاك منها بموقف يضعف اتفاقها ويودي بها في نهاية المطاف.

تجلت هذه الظاهرة خلال مايزيد على السنة. وبالأحرى منذ المؤتمر الأول الذي دعت إليه وبادرت إلى تنظيمه لجنة العمل المشترك (لعم) في آذار ١٩٩١ في بيروت. فالخلاف الذي نشأ بين أطراف المعارضة، قبيل انعقاد المؤتمر وأثناءه، استمر وتعمق في الفترة اللاحقة. ويمكننا أن نشخص عوامل معينة أعاقت نشاط قوى المعارضة للوصول إلى وحدة عملها في الفترة التي أعقبت المؤتمر حتى الوقت الحاضر.

أولاً : إن حرب الكويت،وهزيمة النظام،وتوقع نهايته، شجعت قوى وشخصيات عديدة، مقيمة في الخارج على النشاط السياسي والانغمار فيه دون أن يكون لها تنظيم معترف به أو قاعدة جماهيرية تستند إليها، وبعضها كان إلى وقت قريب في عداد قوى الدكتاتورية أو مؤيداً لها، بدرجات متفاوتة، أو اعتزل العمل السياسي. أراد قسم من هذه القوى،من منطلقات مختلفة، أن يحتل الصدارة والقيادة، الأمر الذي كان واضحاً قبيل المؤتمر وأثناء الجهود اللاحقة من أجل الاتفاق على توحيد المعارضة.

ثانياً : كشفت انتفاضة آذار ١٩٩١ . ضعف قوى المعارضة التنظيمية في ساحة النضال، ومفاجأتها بالأحداث دون أن تكون مستعدة لها، إضافة إلى استغلالها من قبل بعض أطرافها بطرح شعارات فئوية ضيقة، الأمر الذي كان له ردود فعل سلبية لدى الجماهير التي وجدت نفسها في الميدان دون قيادة.

ثالثاً : عدم مبادرة لعم كإطار تنظيمي لقوى المعارضة وقوى أخرى إلى الانتقال إلى كردستان في آذار ١٩٩١ حين وجهت الدعوة إليها.

رابعاً : انفراد ج.ك،وهي طرف رئيس في لعم، بالتفاوض مع النظام.

خامساً : ارتباط بعض فصائل المعارضة بدول أجنبية وخضوعها لضغوطها ولمصالحها.

سادساً : تدخل الدول الخارجية في شؤون المعارضة وسعيها لفرض وصايتها عليها.

سابعاً: التغيرات الجذرية في كردستان العراق من انسحاب السلطة الدكتاتورية إلى اجراء

الانتخابات وتشكيل حكومة إقليمية.

في ظل هذه الظروف، وتحت تأثير هذه العوامل، عملت لعم وفصائل المعارضة الأخرى، للوصول إلى صيغة توحيدية من الناحية التنظيمية والبرنامجية دون تحقيق نتائج مثيرة. فكانت الحصيلة هدر الجهود والوقت وعرقلة الخطوات الكفيلة بالوصول إلى اتفاق ملموس وزادت الصعوبات في عمل لعم ودفعت قوى من داخلها وخارجها للدعوة لتصفيتها كصيغة عمل مشترك لقوى المعارضة العراقية.

أمام هذه العقبات الجدية قامت بعض القوى التي تعاونت فترة مع لعم،في إطار اللجنة التحضيرية لعقد المؤتمر الثاني للمعارضة وخارجها، بمبادرة
حزيران ١٩٩٢.

وحصل هذا المؤتمر على صفة تمثيلية معينة للهيئات المنبثقة منه، بسبب مشاركة أطراف من ج.ك لاسيما الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني، وعلى اعتراف دولي، حرصت الولايات المتحدة وبريطانيا على توفيره له.

ان الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من هذا النشاط الواسع الذي رسمته وشجعته الولايات المتحدة وبريطانيا، وما تبعه من وفود وزيارات، والمحاولات التي لم تثمر لعقد مؤتمر آخر، هي:

- إن إسقاط النظام العراقي مطروح في جدول العمل العاجل. والبديل المطلوب كما يزعم هو نظام «ديمقراطي ليبرالي»، لا يكون تابعاً أو تحت نفوذ أي من الدول المجاورة، وأن يحتفظ بعلاقات طبيعية معها ويحفظ للغرب مصالحه.

- نلمس سعياً حثيثاً تشترك فيه أطراف مختلفة لإبعاد حزبنا والقوى العلمانية الديمقراطية الأخرى عن المساهمة في رسم مستقبل العراق، وذلك بالاستفادة من تعرضه لضربات عديدة على يد الدكتاتورية الشوفينية، ومن انتكاسة الحركة الشيوعية العمالية، والتغيرات في موازين القوى لصالح الامبريالية.

- نحن مدعون للإقدام على مبادرات جدية لاحباط تلك التوجهات، والمساهمة بنشاط المعارضة وإقامة العلاقات معها، استناداً إلى أرضيتنا السياسية.

- التركيز في نشاطنا على الساحة الداخلية، وتوثيق علاقاتنا مع ج.ك وأطرافها، وتأكيد وجودنا ونفوذنا الجماهيري.

- دعم كل الجهود والمبادرات لتوحيد نشاط المعارضة والاتفاق على الأطر التنظيمية المناسبة وعلى برنامج يستند بالأساس إلى مايلي:

١ - إسقاط النظام الدكتاتوري بالاعتماد على القوى الشعبية الداخلية والدعم الاقليمي والدولي.

٢ - تشكيل حكومة ائتلافية واسعة، لفترة انتقالية محددة لا تزيد عن سنتين.

٣ - اطلاق الحريات الديمقراطية وضمان تعددية التنظيم السياسي والجماهيري الديمقراطي

وحرية الصحافة، واصدار عفو سياسي عام على السجناء والمعتقلين وضحايا الدكتاتورية الشوفينية.

٤ ـ تصدير النفط حسب قرارات مجلس الأمن وتعديلها لصالح حل الأزمة الاقتصادية ورفع الحصار الاقتصادي عن العراق.

٥ ـ الاعتراف للشعب الكردي بحقه في تقرير مصيره وحريته في اختيار العلاقة التي يريد مع الشعب العربي في العراق، واحترام اختياره للفيدرالية في إطار عراق ديمقراطي موحد.

٦ ـ احترام القوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة عن غزو الكويت كمنطلق لتجميدها وإلغائها.

٧ ـ العمل على ضمان احترام حدود العراق الدولية.

٨ ـ التزام الدول المجاورة والأمم المتحدة بالحفاظ على كيان العراق السياسي ووحدة أراضيه.

٩ ـ انتخاب جمعية تأسيسية تحت اشراف ورقابة الأمم المتحدة، لضمان حرية الانتخابات ونزاهتها، لكي تضع الجمعية الدستور الدائم وتحدد طبيعة النظام السياسي والاجتماعي في البلاد، ولانبثاق سلطة تنفيذية منها.

واستناداً إلى موقفنا الثابت بدعم الجهود الهادفة إلى تعبئة طاقات المعارضة في إطار تحالفي شامل أيد حزبنا مبادرة الأخ مسعود البارزاني لتوحيد عمل قوى المعارضة العراقية التي شاركت في مؤتمر فيينا الذي انعقد في ١٦ ـ ١٩ حزيران/١٩٩٢ مع أطراف لجنة العمل المشترك التي لم تساهم فيه. وشارك وفد من الحزب في أعمال ندوة صلاح الدين ـ شقلاوة التوحيدية في ٢٣ ـ ٢٧ أيلول ١٩٩٢ وعمل على انجاحها تمهيداً لعقد الاجتماع الموسع للمؤتمر الوطني العراقي الموحد في أواخر تشرين الأول/١٩٩٢.

الوضع في البلدان العربية وبلدان الشرق الأوسط

ما يزال تغير ميزان القوى الدولي الذي حصل لصالح الامبريالية وإسرائيل في منطقتنا، بعد انهيار أنظمة أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي، وتحولها نحو الرأسمالية، وبعد غزو النظام العراقي للكويت، وهزيمته العسكرية والسياسية، وموقف قيادة منظمة التحرير الفلسطينية المساند لصدام حسين، مايزال يتواصل تأثيره على اللوحة والعلاقات السياسية فيما بين البلدان العربية وبينها وبين دول الشرق الأوسط، وما يزال متواصلاً استبعاد العراق عن أي دور مؤثر في قضايا المنطقة وحلولها.

١ ـ دخلت القضية الفلسطينية والنزاع العربي ـ الإسرائيلي، خلال السنة الماضية، طوراً جديداً، بل مرحلة نوعية، ذلك أن مفاوضات عربية جماعية ـ إسرائيلية، وعربية ـ إسرائيلية ثنائية، وفلسطينية ـ إسرائيلية تجري لأول مرة، برعاية الولايات المتحدة المنحازة لإسرائيل، والحريصة على ضمان تفوقها العسكري والاقتصادي على البلدان العربية، وعلى تدفق المهاجرين اليهود إلى

إسرائيل، وبالتالي استيطانهم في الأراضي العربية المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧، واستبعاد الدور المؤثر للأمم المتحدة؟ وبعد أن زال الاتحاد السوفييتي، صاحب المبادرة لعقد المؤتمر الدولي، برعاية الأمم المتحدة، لحل القضية الفلسطينية على أساس الاعتراف بحق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته الوطنية المستقلة. ولم يتسن له إلا المشاركة الشكلية في رعاية مؤتمر مدريد في خريف السنة الماضية قبل انهياره.

استمر التراجع الذي شهدته الثورة الفلسطينية وقضية الشعب العربي الفلسطيني واستمرار الضغط على م.ت.ف لكي تقبل حلولاً غير مضمونة النتائج مثل الإدارة الذاتية، في الوقت الذي حصلت فيه إسرائيل من الولايات المتحدة على ضمانات قروض بـ ١٠ مليارات دولار، لتخفيف أزمتها الاقتصادية، مقابل تأجيل توطين المهاجرين اليهود، في الأراضي المحتلة وأعلنت تمسكها بالقدس الشرقية، وعدم استعدادها للانسحاب التام من هضبة الجولان السورية ومن جنوب لبنان ومن جميع أراضي الضفة الغربية. وزاد من صعوبة الموقف الخلافات العميقة بين الفصائل الفلسطينية ومعارضة الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وجبهة التحرير الفلسطينية وجبهة النضال الشعبي الفلسطيني وحماس وخمسة فصائل أخرى لمشروع حل القضية الفلسطينية المطروح من قبل الوفد الفلسطيني في مفاوضات واشنطن.. كما أن لدى القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة تحفظات جدية على مسيرة المفاوضات. وبالرغم من أن بعض قادة الفصائل الفلسطينية انتقد مواقفها في دعم النظام العراقي واشتراك قطعات من بعض فصائلها ضد انتفاضة شعبنا في آذار ١٩٩١، وصدور تصريحات صحفية بإدانة غزو الكويت، غير أن المطلوب هو أن يصدر عن م.ت.ف. موقف شجاع وصريح بالتضامن مع نضال شعبنا وإدانة الحكومة العراقية ودورها في الإضرار بالقضية الفلسطينية، واستخدامها لأهدافها العدوانية.

إن حزبنا يجدد ويؤكد تضامنه ودعمه لنضال الشعب الفلسطيني الشقيق من أجل حقه في تقرير مصيره بنفسه وعودته وإقامة دولته الوطنية المستقلة.

٢ ـ وفي الوقت الذي تطالب سوريا بأن تكون المفاوضات السورية الإسرائيلية، وما يتم التوصل إليه جزءاً من الحل الشامل للقضية الفلسطينية والنزاع العربي الإسرائيلي على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ تناور إسرائيل بدعم من الولايات المتحدة وتصر على الاتفاقات الانفرادية والحلول الجزئية وعلى تفسيرها الخاص للقرارين، وتعمل على شق الموقف العربي الموحد الداعي إلى الانسحاب الكامل من كل الأراضي العربية المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧، والالتزام بموضوعة الأرض مقابل السلام وتطبيقها.

إن حزبنا يؤيد ويدعم الموقف السوري باعتباره موقفاً يخدم قضية السلم في الشرق الأوسط واسترداد الأراضي العربية المحتلة وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني.

٣ ـ وأبرزت التغيرات في الوضع الدولي، الضغط الذي يمكن أن تمارسه تركيا على العراق وعلى دول المنطقة الأخرى، باعتبارها دولة لها استراتيجيتها وأطماعها وعضواً في الحلف الأطلسي، وتجلى دورها خلال السنة الماضية في:

ـ السيطرة على مصادر مياه نهر الفرات بإقامة سد أتاتورك ومشروع جنوب الأناضول الزراعي، الأمر الذي سيلحق أضراراً بالغة بسوريا والعراق، إذا لم يتم الاتفاق على سياسة مائية رشيدة مشتركة تأخذ بالاعتبار مصالح البلدان الثلاثة وكون الفرات نهراً دولياً.

ـ التحكم بمرور النفط العراقي عبر الأراضي التركية.

ـ الدور الذي تلعبه تركيا في الحلول للقضية الكردية، بالارتباط مع موقفها من الحقوق القومية للشعب الكردي في كردستان تركيا.

ـ ادعاء تركيا بمسؤوليتها على مصالح التركمان في العراق.

ـ مشاريع تركيا لبناء نظام أنابيب لتزويد بعض دول المنطقة بالمياه العذبة.

استناداً إلى هذه العوامل وغيرها من المصالح الاقتصادية لتركيا، تحركت الحكومة العراقية لتطبيع علاقاتها معها وتعهدت بتطمين مصالحها، الأمر الذي يعتبره صدام حسين ضرورياً لبقائه في السلطة.

وانطلاقاً من هذه التقديرات تواجه المعارضة العراقية كلها والجبهة الكردستانية والحكومة العراقية والحكومة الإقليمية في كردستان العراق مهمة إقامة علاقات مع تركيا تؤمن السيادة والوحدة الوطنية والمصالح المشتركة والتكافؤ معها بعد الإطاحة بالدكتاتورية وإقامة بديلها.

٤ ـ شهدت منطقة الخليج، بعد هزيمة النظام العراقي وتحطيم قدراته العسكرية تنامياً نسبياً لنفوذ إيران. ولاسيما بعد زوال نفوذ العراق السياسي الذي رعته ورحبت به لفترة طويلة دول الخليج لتواجه به الخطر الإيراني. ولكن نزعة إيران للسيطرة في المنطقة سوف لاتصطدم فقط بمعارضة عربية واسعة، وإنما بالقوة الرادعة الحقيقية التي كثفت وجودها في المنطقة ذات الإنتاج والاحتياطي البترولي الهائل. ونعني بتلك القوة الولايات المتحدة بشكل خاص، والقوة الاقتصادية للاحتكارات الرأسمالية العالمية، يابانية وأوروبية بشكل عام.

مثل هذا التوازن المحفوف بالمخاطر والانفجارات لابد أن يكون موضوع حسابات قوى المعارضة العراقية بفصائلها العلمانية والإسلامية، والجمهورية الإسلامية الإيرانية نفسها.

ومن هنا فإن إقامة عراق ديمقراطي تعددي سيلعب دوراً إيجابياً في أمن واستقرار منطقة الخليج والشرق الأوسط والحفاظ على مصالح الجميع وجريان الإمدادات البترولية.

٥ ـ والجواب للخروج من الأزمة التي تعيشها، منذ مدة، البلدان العربية، في ظل الظروف الموضوعية الصعبة المعقدة، يبدأ من نضال الجماهير والمنظمات السياسية والنقابية والاجتماعية من أجل الديمقراطية وتحقيق تحولات ملموسة في هذا الشأن، كمقدمة لكي تأخذ الشعوب بيدها تقرير مصائرها ورسم سياسة بلدانها.

ومن ناحية أخرى، أبرزت التطورات خلال الفترة الأخيرة أهمية التضامن العربي على المستوى الشعبي والحكومي بين الدول وفي إطار الجامعة العربية بدل المواقف المتقاطعة انطلاقاً مما ألحقه النظام العراقي من شق في الصف العربي، وما ينبغي أن يترتب على ذلك من تعليق عضوية الحكومة العراقية الحالية في الجامعة العربية والاعتراف بقوى المعارضة العراقية بإطارها

التنظيمي المتفق عليه بين فصائلها كممثل للشعب العراقي في الجامعة.

والجامعة العربية من جانبها لايجوز أن تبقى على ميثاقها القديم، فهي مدعوة لأن تعيد صياغته تماشياً مع التغيرات في العالم، والتأكيد على التزام أعضائها بتلبية مواثيق الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الإنسان والحقوق السياسية والمدنية والنقابية والاجتماعية: وإدخال فقرات تردع وتمنع حل الخلافات بالأساليب العنفية، والعسكرية، واتخاذ العبر والدروس من تجربة غزو الكويت. وسيكون للاعتراف بالحقوق القومية العادلة للقوميات المتعايشة مع الشعوب العربية تأثير إيجابي بالغ الأهمية لصالح جامعة الدول العربية والشعوب العربية.

في الوضع الدولي

لقد حسمت الحياة خلال الأشهر الماضية النقاش والجدل الذي كان يدور في الأوساط السياسية وعند الجماهير، والمجتمع الدولي، حول مصير الاتحاد السوفييتي ووجهة مسيرته، إذ انهارت الدولة العظمى وتفتت البناء الشامخ الذي شيد على مدى سبعة عقود، وتبعثر في دول ودويلات، وتشرذم الحزب الشيوعي، وتحدد التحول الاقتصادي الاجتماعي نحو النظام الرأسمالي، وانفجرت الأزمة السياسية والاقتصادية والقومية والثقافية والأخلاقية بصورة مذهلة، وتعمق الخلل في ميزان القوى لصالح الرأسمالية والامبريالية ولغير مصالح الشعوب.

كما نُشر العديد من الوثائق والبحوث عن الأسباب التي كمنت وراء هذا الانهيار المريع، والتي يمكن تلخيصها تحت عناوين رئيسية وهي: غياب الديمقراطية وتفشي الآمرية البيروقراطية بدلها في الحزب والدولة والمؤسسات، والتخلف العلمي والتكنولوجي، واتساع الفجوة في هذا المجال بين الاتحاد السوفييتي السابق والبلدان الرأسمالية المتطورة، وحرق المراحل والقفز عليها في البرامج والتخطيط والتنفيذ، وإرهاق المجتمع بكلف سباق التسلح فائق التطور، والجمود في الفكر والثقافة، واغتراب الشغيلة والجماهير وقاعدة الحزب عن ثروات المجتمع والملكية العامة، وإبعادهم عن عملية البناء وإدارة وتسيير المجتمع الاشتراكي.. إلخ.. ولكن يبقى سؤال آخر كبير، لم تتم الإجابة عليه بشكل قاطع هو: هل ماحدث كان حتمياً، أم كان بالإمكان التحوط منه بوقت مبكر وحتى تجنبه في المراحل الأخيرة؟

فالاتحاد السوفييتي كان يمتلك طاقات بشرية هائلة وقاعدة اقتصادية وتكنولوجية وعلمية جبارة. وقبل ذلك تمكنت الدولة السوفييتية الوليدة من هزيمة ١٤ دولة معتدية في حرب التدخل، وانتصرت في الحرب الأهلية، واستطاع الاتحاد السوفييتي الصمود بوجه العدوان النازي وإلحاق هزيمة تأريخية به. فلماذا استطاع سابقاً الحفاظ على نظامه السياسي الاجتماعي مع وجود المظاهر السلبية وبموازين قوى أخرى، ولماذا فشل في أواخر القرن العشرين بعد كل إنجازاته؟ ولماذا حلت به هزيمة تأريخية؟ إن ماحسم التحول هو العامل الذاتي المتمثل بعناصر متنفذة في قيادة الحزب

والدولة، استفادت من العوامل الموضوعية، ونفذت ماكانت أو أصبحت تؤمن به وتعمل من أجله، وهو التخلي عن الاشتراكية، والارتداد إلى النظام الرأسمالي. ومثلما كانت قضايا العالم لاتحل في السابق بمعزل عن دور النظام الذي ولدته ثورة أكتوبر ولا عن الدولة السوفييتية العظمى، فاليوم أيضاً لايمكن النظر إلى معضلات العالم وحلولها بمعزل عن نتائج فقدان ذلك الدور وغيابه.

إن انعكاسات هذا التغير ماتزال في بدايتها. وسيزداد تأثيرها في الأمم المتحدة والتجمعات الدولية والإقليمية الأخرى، وسيزداد أيضاً دور العامل الخارجي في التغيرات الوطنية الداخلية، وسيكون حاسماً في ظروف معينة، وما سيترتب على ذلك سيتعمق ويطول، فالقوى الرأسمالية المنتصرة ذات القدرات المتنوعة الهائلة سوف لن تكتفي بما حققته، وإنما ستعمل بكل الوسائل على ترسيخه ومنع الرجعة عنه، وتنفذ ما كانت تنادي به، سابقاً، ووضعته هدفاً لها، وذلك بالاحتفاظ بالوضع القائم بين النظامين العالميين الاشتراكي والرأسمالي، والانتقال إلى الوضع القائم قبل قيام النظام الاشتراكي. لكن كل الذي حصل لايمكن أن يلغي ما حققه نضال الشعوب وحركة الطبقة العاملة العالمية ومساهمتها في بناء العالم الحديث لاسيما في القرن العشرين، ولا يلغي الآمال المعقودة على الاشتراكية العلمية وبناء مجتمع العدالة الاجتماعية، والخلاص من الاستغلال، وسيادة القيم الإنسانية الرفيعة، وذلك بالاسترشاد بها.

وفي الوقت الذي انهارت فيه الأنظمة السياسية ـ الاجتماعية في أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي، نتيجة ابتعادها عن الواقع فان الرأسمالية لم تقدم إلا الحلول السلبية لمشاكل العالم، ولاسيما في البلدان الفقيرة.

فالمجاعة تقتل الملايين في أفريقيا، وعشرات الملايين من الكادحين والعمال في البلدان الرأسمالية المتطورة يعيشون تحت مستوى الفقر، ٣٥ مليوناً منهم في الولايات المتحدة لوحدها. وانتشرت البطالة بمعدلات عالية، ولاسيما في الأنظمة الجديدة في أوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفييتي السابق. وارتفعت نسبتها في البلدان الرأسمالية المتطورة من ٥,٦٪ عام ١٩٩٠ إلى ٦,٤٪ عام ١٩٩١، ويقدر أن تصل ٧٪ عام ١٩٩٢.

وأصبحت معضلات تلوث البيئة وتغيرها مشكلة كبرى تهدد بكوارث من نوع خاص.

أما بلدان العالم الثالث فإنها تتعرض اليوم لابتزاز القوة العظمى ـ الولايات المتحدة ـ والتدخل في شؤونها والتحكم في سياستها.

من ناحية أخرى ان ما نجم عن انهيار الاتحاد السوفييتي وسيطرة الولايات المتحدة في العالم، لا يضمن بالضرورة مسيرة وفاق هادئة بين دول هذا العالم. فالتناقضات والحروب الاقتصادية والتنافس على الأسواق الجديدة في المعسكر الاشتراكي السابق، لا تلبث ان تنشأ ولا يمكن التكهن بنتائجها. وإدراكاً لهذه الظواهر الجديدة، تشهد في الفترة الأخيرة بوادر نهوض في الحركة العمالية لاعادة بناء تنظيماتها السياسية وقيادة نضال الجماهير بالاعتماد على انجازات الأنظمة السابقة وفقدانها للمكتسبات التي كانت تتمتع بها بالمقارنة مع الضائقة الاقتصادية وانخفاض مستوى المعيشة والفوضى الاجتماعية المتفشية فيها، الأمر الذي يغير انعطاف جماهير

غفيرة للتصويت للأحزاب الاشتراكية ذات الأصول الشيوعية بنسب جيدة، كما حدث في بلغاريا، وجيكوسلوفاكيا، وبولونيا والبانيا ومنغوليا وألمانيا وليتوانيا. كما أقدمت عدة أحزاب شيوعية في أوربا ومنطقة البحر المتوسط والبحر الأحمر والشرق الأوسط على عقد اجتماعات لها لمناقشة المتغيرات والأوضاع الجديدة والبحث عن استراتيجيات جديدة وتبادل الآراء بشأنها.

وفي كل الأحوال ستواجه الشعوب، وشعبنا من بينها، معارك شاقة لنيل حريتها والسير على طريق التقدم الاجتماعي وبناء الديمقراطية السياسية والتعددية. وستحتاج طلائعها إلى برامج وأساليب نضال جديدة، وتضامن عالمي بمحتوى جديد.

الاجتماع الاعتيادي الكامل
للجنة المركزية للحزب الشيوعي
العراقي
أواخر تشرين الأول ١٩٩٢



نظرية ماركسية لينينية، أم: منهج مادي جدلي تاريخي؟

عطية مسوح

يسعى أعداء الاشتراكية في أيامنا هذه الى اظهار انهيار النموذج الاشتراكي في اوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي ، على انه انهيار للاشتراكية كفكر وكطموح إنساني الى العدالة ، ويبشّرون ـ مأخوذين بنشوة النصر ـ بأن الفكر الماركسي قد افلس لانه لم يكن اكثر من شطط فيلسوف جمح به الخيال .

ويحاول هؤلاء إيهام الكادحين بأن الراسمالية ، التي فازت في المباراة ، قادرة على الاستمرار الى درجة الخلود لانها اكثر انسجاماً مع طبيعة البشر .

وقبالة ذلك ، يقف الاشتراكيون على اختلاف مواقعهم ، بين ذاهل ويائس وغاضب ، حتى ان بعضهم لايجد فسحة إلاّ للبكاء على أطلال الماضي وتقريع قادة البلدان الاشتراكية الذين استعجلوا في «منح» الديمقراطية . للناس، فأساؤوا استخدامها،وساروا في ركب الدعاوة الامبريالية والصهيونية وانقضّوا على مكاسبهم ومنجزات ثورتهم .

وفي غمرة الذهول واليأس والغضب يطغى الارتباك وتهيمن العواطف على ساحة التفكير ، فالمأساة كبيرة ونبع الثقة بالمستقبل رُدم تحت أنقاض الانهيارات .

في مثل هذه الحالة ، تجد التفسيرات السطحية ، لاسيما عندنا في البلدان النامية ، طريقها الى النهوض ، لانها اكثر صلة بالعواطف وانسجاماً مع طقوسيتنا وجمودنا العقائدي .

إذا كان اعتبار الانهيارات المذهلة نتيجة التآمر الامبريالي الصهيوني هو أسهل التفسيرات ، فإنه ـ باعتقادي ـ ليس اكثرها صحة ، بل ليس صحيحاً على الاطلاق .

فلنفترض ان الامبريالية استطاعت أن توصل شخصاً او بضعة أشخاص ، او شبكة كاملة من المتعاملين معها ، الى قمة الهرم السياسي والحزبي في الاتحاد السوفياتي أو غيره من البلدان الاشتراكية ، فهل سيكون بإمكانهم هدم بناء راسخ اقامته ايدي الكادحين مدماكاً مدماكاً ؟ الا يعرف ملايين الشغيلة كيف يحمون مابنوه ؟

وكيف يصل الى القمة عميل ، أو مجموعة عملاء ، في ظل «ديكتاتورية البروليتاريا» وسلطة الشغيلة وقيادة الحزب ورقابته ؟

وإذا اتفقنا على أن ماجرى هو زلزال عالمي هائل،فهل يمكن لشخص أو مجموعة اشخاص ـ مهما تكن درجة عبقريتهم ـ ان يحدثوا مثل هذا الزلزال الانعطافي خلافاً لمنطق التاريخ ومقتضيات التطور ؟

إن فكر ماركس الجدلي ، وكل التطور التاريخي ، يؤكدان أن للأحداث الكبيرة في التاريخ أسباباً موضوعية وواقعية عميقة ، وأن دوافع التطور الأساسية يجب البحث عنها في تناقضات الظاهرة المدروسة ذاتها ، أي في بنيتها الداخلية .

وبالتالي ، فإن على الماركسيين أن يتلمسوا أسباب الانهيار في البنية المنهارة ذاتها ، ليكون ذلك درساً ، وعامل استنهاض جديد في مرحلة جديدة من مراحل الكفاح الانساني الدؤوب من أجل التقدم والعدالة .

ولعلّ البحث يجب أن يتعدى الجانب التطبيقي في تجربة الماركسية الى جانبها النظري ، فليس معقولاً بعد انهيار النموذج «الذي اقيم تحت شعارات الماركسية»ولوائها ، أن يبقى الفكر ذاته بعيداً عن إعادة النظر النقدية .

وليست مهمة هذه المقالة ، التنقيب في الفكر الماركسي وتلمُّس جوانب ضعفه ، فهذا اكثر مشقة من أن يقوم به باحث واحد ، وقد يحتاج الى جهود علمية مشتركة لعلّها تكون الشغل الشاغل للماركسيين في المرحلة الراهنة ، واقترح أن يلتقي الماركسيون العرب في ندوة للبحث في تطوير الفكر الماركسي بما يتلاءم مع الظروف المعاصرة ومع الواقع العربي .

وستكتفي هذه المقالة ، بمحاولة وضع بعض الافكار الأولية لاعادة الاعتبار الى منهج ماركس المادي الجدلي التاريخي ، على حساب النصوص الماركسية التي

ساهمت في تجميد عقول الماركسيين عشرات السنين .

* * * * *

١ـ الخلط بين المنهج والنظرية ، كأساس للجمود العقائدي :

يكثر استخدام مصطلح «النظرية الماركسية اللينينية» في وثائق الأحزاب الشيوعية ، وفي المؤلفات التي تعرض الماركسية وتدعو إليها . وسنحاول مناقشة هذا المصطلح انطلاقاً من سؤالين :

هل الماركسية اللينينية نظرية ؟

وهل هي ماركسية ، أم ماركسية لينينية ؟

انطلاقاً من أن النظرية هي فرضية تثبت بالبرهان /كما تشير المعجمات العربية/ فإن كل نظرية ، سواء أكان موضوعها الطبيعة أم المجتمع ، تتصف بمايلي :

ـ إنها تبدأ من نقطة معينة ، هي الفرضية ، وتنتهي الى نقطة معينة ، هي البرهان . أي أنها ذات بداية ونهاية .

ـ إنها ذات قوننة صارمة ، لامجال فيها لأي هامش يقتضيه اختلاف الظروف .

ـ إنها تهمل العناصر الثانوية ، مهما تكن كثيرة ، أو بالأحرى لامجال فيها سوى للهيكل الرئيسي الذي تضعه الفرضية ، وللسياق البرهاني الذي يقتضيه هدف البرهنة على تلك الفرضية .

ـ إنها على مستوى عالٍ من التجريد ، بل يمكن القول إنها تجريد كامل .

والنظرية ، أية نظرية كانت ،هي غير قادرة على التطور بذاتها ، أي بدوافع داخلية وآلية داخلية ، بل هي مؤهلة فقط لأن تسقط حين تبطلها (تنفيها) نظرية اكثر حداثة (صحة) منها ، مهما يكن الفرق بين النظريتين ضئيلاً . فعند الوصول الى نظرية اكثر صحة يصبح من الخطأ الركون الى النظرية السابقة (الأقل صحة) .

والنظريات ، أيا كان موضوعها ، هي نتاج منهج معرفي معين . فالمنهج الرياضي مثلاً يولّد نظريات متعددة ، تدور حول جوانب مادة البحث الرياضي ، وكذلك المنهج الفيزيائي ، والمناهج الفلسفية المختلفة . والمنهج جزء من العلم ، لأن العلم هو : موضوع البحث ، والمنهج المعرفي الخاص به ، والنظريات التي يولدها هذا المنهج .

وإذا انطلقنا من صفات النظرية التي ذكرناها ، فإن الماركسية لايمكن أن

تكون نظرية . وحين اعتبرت نظرية كفّت عن التطور لان النظرية ـ كما أسلفنا لا تتطور بذاتها بل تنفى من قبل نظرية أحدث منها . وهذا الموقف من الماركسية ـ أي اعتبارها نظرية ـ كان العامل الحاسم في جمودها وتحويلها الى مصدر لتجميد عقول معتنقيها .

الماركسية منهج معرفي ، على غرار الكثير من المناهج المعرفية ، وهو باعتقادي اكثرها صحة لانه منهج مادي جدلي تاريخي .

وكالمناهج المعرفية الأخرى ، ولّد المنهج الماركسي ـ في تطبيقاته الاجتماعية ـ مجموعة من النظريات ، كنظرية القيمة الزائدة ، ونظرية الدولة ، ونظرية الانعكاس ، ونظرية الثورة ... وغيرها . كما ولّد هذا المنهج مجموعة من الافكار عند ماركس وانجلز ولينين وكاوتسكي وبليخانوف وتروتسكي وسواهم ، في معرض تناولهم لمختلف الأحداث والظاهرات .

وحين اعتبر «الماركسيون» الماركسية (او الماركسية اللينينية) نظرية ، أصبحوا مضطرين الى الاخذ بها ، بكل ما احتوته ، منذ اول سطر خطّه ماركس الى آخر سطر خطه لينين ، دامجين المنهج ، بالنظريات التي ولّدها ، بالافكار التي احتوتها كتابات «المؤسسين» . وبطبيعة الحال ، فإن هذا الدمج كان على حساب المنهج ، لأن الأخذ بكل ماقاله ماركس او انجلز أو لينين في ظروف معينة ، وإعطاءه صفة الاطلاق النظري خارج حدود الزمان والمكان ، هو مصادرة للمنهج الذي يمكن أن يعطي في ظروف مختلفة ، نظريات وأفكاراً مختلفة ، تنفي الكثير مما توصّل إليه المؤسسون .

إن التطور الكبير الذي حدث في المجتمعات خلال القرن العشرين ، كان ينبغي أن يقود الى اعادة النظر في النظريات والأفكار الماركسية ، انطلاقاً من منهج ماركس المعرفي ، للوصول الى نظريات وأفكار جديدة ، ملائمة للواقع المعاصر . ولكن هذا لم يحدث ، لأن الماركسية اللينينية «نظرية» لا يأتيها الباطل ، ولأن كل افكارها صحيحة صحة مطلقة ، ولان كتب ماركس وانجلز ولينين هي بالنسبة «للماركسيين» كالمعجم ، تفتحه للوصول الى تفسير أية ظاهرة معاصرة ، وسيعطيك الجواب الشافي والكامل ، فكتب المؤسسين لم تنسَ شيئاً !.. ومن هنا جاء القسر ، فأنت مضطر للبحث عما قاله أحد المؤسسين عن ظاهرة مشابهة أو قريبة ، لتطبيقه على الظاهرة المعاصرة ، فكأن التاريخ يعيد نفسه ، وكأن الظاهرات الجديدة هي نسخ مطابق لظاهرات سابقة تناولها ماركس وانجلز ولينين !..

وكانت المصيبة اكبر عند الماركسيين العرب ، لان المسألة بالنسبة إلينا ليست مسألة مسافة زمنية بين النصوص الماركسية الكلاسيكية وعصرنا الحاضر فحسب ، بل هي ايضاً مسألة بنية اجتماعية مختلفة . فالنصوص الماركسية جاءت حصيلة لدراسة واقع اوروبي كان منذ ذلك الحين مختلفاً اختلافاً كبيراً عن الواقع العربي . ومع ذلك فإن معظم الماركسيين العرب ـ إن لم نقل كلهم ـ نظروا وينظرون الى الماركسية اللينينية كنظرية ، أي يعمدون الى تطبيق نصوصها على واقع المجتمع العربي المعاصر ، مما أدى الى مشكلات اساسية في التشخيص والاستنتاج والنهج . ونذكر على سبيل المثال : القول بالدور القيادي (أو الطليعي) للطبقة العاملة في مجتمع غير صناعي ، والقول بتجاوز المرحلة الراسمالية في مجتمع لم يتخلص بعد من بقايا العلاقات الاقطاعية ، ووضع مهمات اشتراكية في مجتمع لم تنجز فيه مهمات التحرر الوطني الديمقراطي ، وعدم إدراك دور العامل الديني (والروحي بعامة) في التطور الاجتماعي ، وإغفال دور العامل القومي والقفز فوق مهمة الوحدة القومية ، وغير ذلك .

ولو تمّ استيعاب المنهج الماركسي والافادة منه في دراسة الواقع العربي ، لوجدنا أن الكثير من النصوص التي تضمنتها كتب الكلاسيكيين لاحاجة لنا بها ، إن لم يكن بعضها ضاراً بالنسبة إلينا .

هذه هي صورة الجمود العقائدي الذي نجم عن اعتبار الماركسية اللينينية نظرية والتعامل معها على هذا الأساس ، اي مصادرة منهجها .

إن الاختلاف بين أن نقول «منهج ماركس المادي الجدلي التاريخي» وأن نقول «النظرية الماركسية اللينينية» ليس مجرد اختلاف في التسمية ، وليس فقط قضية شكلية ، وإنما هو نقطة الافتراق بين الجمود العقائدي والتحرر الفكري الخلاق ، وبالتالي فإن التعامل مع الماركسية كمنهج معرفي هو نقطة الانطلاق في التجديد الفكري المطلوب .

٢ـ الماركسية ، والماركسية اللينينية ، والنموذج الروسي :

الى أي مدى يعتبر مصطلح «الماركسية اللينينية» دقيقاً في التعبير عن المنهج والفكر الماركسيين ؟

لو عدنا الى تاريخ هذا المصطلح ، لوجدناه مصطلحاً ستالينياً . فلينين لم يعتبر نفسه في يوم من أيام نشاطه الفكري والسياسي صاحب مذهب آخر غير مذهب ماركس ، بل كان يؤكد على أنه ماركسي يسترشد بمنهج ماركس وأفكاره . ولاشك في

أن لينين ، بتعامله مع منهج ماركس المعرفي وباستفادته من افكار ماركس وانجلز وبليخانوف وغيرهم ، قد اضاف الى هذه الأفكار أفكاراً أخرى هامة . ولو أردنا أن نصنف نشاط لينين الفكري لوجدناه موزعاً على ثلاثة ميادين :

ـ ميدان روسي ، محتواه إعادة انتاج الماركسية روسيّاً ، اي وفق ظروف روسيا وخصائصها . ويدخل في هذا الاطار ما وضعه من افكار حول «الحزب من طراز جديد» و «ديكتاتورية البروليتاريا» و «التحالف بين العمال والفلاحين» وتصوراته حول طريق بناء الاشتراكية وغير ذلك .

ـ ميدان يُعدُّ دفاعاً عن افكار ماركس وانجلز وتوضيحاً لها . ويدخل في هذا الإطار ماكتبه حول «المادية والمذهب النقدي التجريبي» و «الدولة والثورة» وغيرهما .

ـ ميدان ثالث يعدُّ تطويراً لافكار ماركس وانجلز واستكمالاً لها ، وذلك بدراسة ظاهرات لم تكن واضحة في ايامهما ، كدراسته للامبريالية .

وإذا أردنا ان نضع هذه النشاطات الفكرية في إطارها الصحيح ، لوجدناها ـ على اهميتها ـ اقلَّ من نشاطات انجلز الذي وضع اهم المؤلفات الكلاسيكية في الفلسفة (انتي دوهرينغ ـ اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة)، كما اكمل الكتاب الاكثر اهمية في الفكر الماركسي وهو (راس المال) ، وكان على رأس نشاطات الشيوعيين خلال اثني عشر عاماً بعد وفاة ماركس .

فلماذا يختفي أسم انجلز وتصبح «النظرية» هي الماركسية اللينينية ؟

وإذا افترضنا ان «الانجلزية» متضمنة في «الماركسية» ، فإن اللينينية هي كذلك أيضاً ، لأن لينين لم يكن إلاّ ماركسياً .

إن اغلب نشاطات لينين الفكرية هي روسية الطابع ، اي انها تدخل في اطار انتاج الماركسية روسياً .

وهذا الجانب لايهمنا ـ نحن غير الروس ـ إلاّ من الزاوية التراثية ، من زاوية الاطلاع على تجربة الحركة الثورية في مختلف البلدان . أما نشاطات لينين الفلسفية فهي ليست اكثر قيمة من نشاطات بليخانوف مثلاً ، التي قال عنها لينين عام ١٩٢١ مايلي :

«... يبدو لي أن من المناسب تنبيه اعضاء الحزب الشباب الى أنه لايمكن للمرء أن يصبح شيوعياً حقيقياً واعياً بدون أن يدرس ، وأن يدرس بالذات ، كل ماكتبه بليخانوف في الفلسفة ، فذلك هو افضل ماتحويه كل الأدبيات العالمية للماركسية .»*

فلماذا تختفي «البليخانوفية» من تسمية «الماركسية اللينينية» ؟

أما دراسة لينين للإمبريالية ، فقد كانت إبداعاً وإضافة حقيقية الى الافكار الماركسية في بدايات هذا القرن . ولكن التطور العاصف الذي حدث في بنية الإمبريالية وأساليبها ، ولاسيما بعد الثورة العلمية التكنولوجية ، قد جعل الكثير من الافكار الواردة في كتاب (الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية) قديماً . يحتاج الى التدقيق والنفي في ضوء الواقع المعاصر .

فلماذا نصرّ على مصطلح «الماركسية اللينينية» ؟ ومن اين اتت وكيف عُمّمت هذه التسمية ؟

بعد وفاة لينين في عام ١٩٢٤ دخلت كلمة «اللينينية» حيّز الاستخدام الفكري والسياسي ، على يدي ستالين عندما شرح أفكار لينين في محاضراته التي جمعت في كتابين هما : «اسس اللينينية» و «حول مسائل اللينينية» . وإذا عدنا الى الصراعات السياسية والسلطوية في الاتحاد السوفياتي في تلك الفترة ، لادركنا أن هدف ستالين كان استخدام «اللينينية» لمحاربة خصومه ، رفاق لينين البلاشفة : (تروتسكي ، كامينيف ،زينوفييف ، بوخارين ..) الذين كانوا قد اختلفوا مع لينين في هذه القضية او تلك ، في حين لم يسبق له هو ان اختلف مع لينين في شيء هام .

ولكن ، لماذا لم يختلف ستالين مع لينين في شيء ؟ هل لأنه كان «لينينياً» ؟ أم لانه كان اقلّ شاناً من أن يختلف مع مفكر مثل لينين في مسائل هامة ؟ سيرة ستالين ونشاطه الفكري والسياسي تجعلنا نميل الى التفسير الثاني .

لقد انتصرت الستالينية في الاتحاد السوفياتي ، وانتشرت عالمياً ، وتمّ . فرض النموذج السوفياتي في بناء الاشتراكية وتنظيم الحزب وغيرهما على نطاق الحركة الشيوعية بأكملها . وكان هذا هو الخلفية الحقيقية لجعل مصطلح «الماركسية اللينينية» بديلاً لمصطلح «الماركسية» أو «المنهج الماركسي» . إنه نوع من تعميم الخاص ، وإعطاء المحلي «الروسي» طابعاً عالمياً .

إن لينين ، الماركسي المبدع ، لم يكن ليقبل بإغلاق باب الابداع والاجتهاد أمام العقل الماركسي أيّان وجد أين . ولكن مصطلح «الماركسية اللينينية» ، لاسيما إذا أخذ كنظرية ، يغلق هذا الباب ويعلن اختتام الماركسية بآخر ما كتبه لينين .

إن تطور الفكر الماركسي ، لايجوز أن يتوقف عند لينين ، وإذا توقف كفّ عن التأثير في عالمنا المعاصر . ومن هنا فإن مصطلح «الماركسية اللينينية» هو مصطلح غير صحيح ، ونرى أن يختفي ليحل محله مصطلح : «الماركسية» التي ينبغي أن

تؤخذ كمنهج معرفي ـ أي كما أخذها لينين ـ لا كنظرية ، كما اعتادت الأحزاب الشيوعية أن تأخذ «الماركسية اللينينية» .

٣ـ ادلجة الماركسية كاساس للانعزالية :

كثيراً ما توصف الماركسية في ادبيات الاحزاب الشيوعية ، وفي كتابات المفكرين الماركسيين بانها «ايديولوجيا» ، كما ينظر إليها خصومها على انها كذلك . وانطلاقاً من هذا الاعتبار ، ضيّق الشيوعيون حدود الماركسية واعطوها قالباً طبقياً صرفاً .

إذا انطلقنا من ان الايديولوجيا هي وعي طبقي ، هي ذلك الجانب المرتبط بمصالح طبقية محددة في الادراك الاجتماعي ، فإن أية ايديولوجيا كانت ، هي لاموضوعية ، او على الاقل تحمل في ذاتها بذور اللاموضوعية وهذا ما وصف به ماركس وانجلز الايديولوجيا البرجوازية .

ولعلّ أساس الوهم الذي سيطر على الشيوعيين عندما اعتبروا الماركسية ايديولوجيا ، هو اعتقادهم بأنها تنطلق من مصالح الطبقة العاملة ، وبالتالي فهي وعي طبقي صرف .

لكننا - بالعودة الى الماركسية - نجد انها فكر للتقدم الاجتماعي ، ينطلق من منهج علمي مادي جدلي تاريخي . فماركس رأى ان علاقات الانتاج الرأسمالية ستغدو عائقاً في طريق تطور القوى المنتجة ، اي في طريق التقدم الاجتماعي ، ومن هنا دعا الى تغييرها . لم يكن هدفه خدمة الطبقة العاملة بل خدمة التقدم الاجتماعي ، والتقت افكاره مع مصالح الطبقة العاملة لانها مصالح منسجمة مع مقتضيات التقدم .

فالماركسية - بهذا المنظور - هي أوسع بكثير من أن تكون ايديولوجيا (اي وعياً طبقياً) ، وهي اقرب بكثير لأن تكون أبيستمولوجيا ، فجانبها المعرفي هو العام ، اما جانبها الايديولوجي فهو ناتج عن عدم تعارض الطبقة العاملة مع مصالح التقدم الاجتماعي .

والماركسي ، وفقاً لهذا المنظور ، هو من يرى الى كل موقف أو ظاهرة ، من منطلق التقدم الاجتماعي، وليس من منطلق مصالح الطبقة العاملة ، ويكون عندئذ ، وبالنتيجة ، معبراً حقيقياً عن مصالح هذه الطبقة لانها غير متعارضة مع التقدم .

وقد يكون دافع الوهم الايديولوجي لدى الشيوعيين ناتجاً عن فكرة أن الطبقة

العاملة تجد سلاحها النظري في الماركسية . صحيح أن الماركسية سلاح في ايدي دعاة التغيير ، ولكن ليس لأنها تنطلق من مصالحهم ، وإنما لأن مصالحهم منسجمة مع مصالح التقدم الاجتماعي التي تنطلق منها الماركسية أساساً .

وبهذا الوهم الايديولوجي أوقف الشيوعيون الماركسية على رأسها ، عكس ما اراده ماركس . وحتى نوقفها على قدميها ، ينبغي أن ننظر إليها كمنهج معرفي ، وكأفكار للتقدم الاجتماعي والاشتراكية ، وليس كأيديولوجيا تعبر عن مصالح طبقية .

هل يمكن أن تدخل مصالح الطبقة العاملة (الآنية) في تعارض مع التقدم الاجتماعي ؟ وكيف سيكون موقف الماركسيين ؟

اعتقد أن هذا ممكن . فإذا انطلقنا مثلاً من أن إدخال التكنولوجيا الحديثة الى عملية الانتاج (وفي هذا مصلحة للتقدم الاجتماعي) سيؤدي بأقسام كبيرة من العمال الى البطالة (وهذا يتعارض مع مصالح الطبقة العاملة) فإن الموقف الطبيعي للماركسيين - وهم دعاة تقدم اجتماعي - ان يكونوا الى جانب تطوير التكنلوجيا ، ولكن عليهم في الوقت ذاته أن يناضلوا من أجل البحث عن أشكال لتلافي البطالة وحماية حقوق العمال .

أما إذا انطلق الماركسيون من منطلق ايديولوجي ، فإنهم سوف يقفون ضد تحديث التكنيك لانه يسبب البطالة ويلحق الضرر بالطبقة العاملة .

وقد يكون مثل هذا الموقف النابع من الوهم الايديولوجي ، أحد الأسباب الهامة للتخلف التكنلوجي في البلدان الاشتراكية . صحيح أن هذا التخلف رافقته حماية اجتماعية للعمال وانتفاء للبطالة الظاهرة ، ولكن هذا كان مؤقتاً ونسبياً ومتعارضاً مع مصالح التقدم الاجتماعي ، وبالتالي فقد انعكس - مع التراكم - انعكاساً سلبياً على مستوى حياة الكادحين .

إن الانطلاق دائماً من مصالح التقدم الاجتماعي ، هو - باعتقادي - السلوك الماركسي الصحيح ، وهذا ما يناقض النظر الى الماركسية كايديولوجيا ، حيث تضيق النظرة،ويغدو الموقف من القوى والظاهرات والاتجاهات التي تفرزها الحياة موقفاً انعزالياً .

٤ـ هل يمكن أن تكون الماركسية المكوّن الفكري الوحيد للماركسيين ؟

لا أعتقد . واظن أن كل من يدّعي بأنه ماركسي «صرف» أي بعيد عن التأثر

بأفكار أخرى غير ماركسية هو واهمٌ . فالفكر الانساني في حالة تلاقح دائم ، ولايمكن لمدرسة فكرية أن تلغي أثر المدارس الأخرى ، حتى على أنصارها هي ، والماركسية ذاتها لم تقدم نفسها بديلاً للفكر الانساني ، بل تواصلاً معه .

فبالاضافة الى افكار ماركس وأنجلز ولينين وغيرهم من المفكرين الاشتراكيين ، توجد في عقل كل منا وسلوكه مجموعة من المكوّنات الفكرية تتعايش معاً وتتلاقى وتتجادل لتكوين بنية على درجة كبيرة من التعقيد . ففي عقل كل منا وسلوكه : قرآنٌ كريم ، وعنترة ، وابو نواس ، وخيال الف ليلة وليلة ، وديوان الشعر العربي ، وميكيافيلية معاوية ، و رومانسية مجنون ليلى ، وعدالة عمر ، وعلمانية غاليلو ، وميثاق حقوق الانسان ، وثقافة الاستهلاك ، وسلبية غاندي ، وتمرد غويفارا ، وعقلانية ديكارت ، وتصوف السهروردي ، وغيرها ...وتشكل جميعاً نسيجاً متماسكاً لايمكن إلاّ أن يحدد شكل تعاملنا مع الظاهرات ومحتواه .

ولكن هذه البنية المعقدة ، لاتعني التقليل من أهمية المنهج المعرفي الماركسي ، أو خلطه بمناهج معرفية أخرى . فالمنهج ذاته يفعل فعله التحليلي من خلال البنية الفكرية المعقدة المشار إليها ، أي ليس من خلال خصوصيات الواقع الاجتماعي فقط ، بل من خلال التكوين الفكري والذهني لحامل المنهج أيضاً . وحمل المنهج المعرفي الماركسي لايعني الغاء المكوّنات الفكرية المذكورة ، وإنما يعني تحليل هذا التراث الفكري الهائل المكوّن للعقل والسلوك ، ومعرفة اثره في الواقع الراهن ، والاستدلال على ماهو إيجابي فيه لتقوية دوره في الفكر واستلهامه في السلوك ، أي للإفادة منه في تغيير الواقع .

٥ـ تطوير الفكر الماركسي بالأداة المعرفية الماركسية ذاتها :

إذا كان النفي هو طريق التطور وإذا كان التجديد يعني دائماً نفي القديم ، فإن تطور الماركسية ومواكبتها للحياة الواقعية لايكون إلاّ بنفي أفكارها باستمرار انطلاقاً من منهجها المادي الجدلي التاريخي . أي أن الماركسية ينبغي أن تنفي نفسها باستمرار .

لقد تجمدت الماركسية ، لا لأنها فكر للجمود ، بل لأن الماركسيين تعاملوا معها كنظرية وكأيديولوجيا ، وتجاهلوا منهجها المعرفي ، ونزّهوا نصوصها عن النفي والبطلان . إن الحياة الاجتماعية في تطور مستمر ، وستكون النتيجة الوحيدة لتجميد الماركسية هي وضعها في تعارض مع الواقع .

ولكي يطور الماركسيون الماركسية من خلال منهجها ، لابد من التعامل مع

مجموعة من المتطابقات أو الثنائيات ، التي يمكن اعتبارها من المقولات الخاصة بتطوير الفكر .

من هذه الثنائيات ، ثنائية

المنهج - النص

والعلاقة بين طرفي هذه الثنائية هي علاقة وحدة وتناقض . فالمنهج يعبر عن ذاته واقعياً من خلال نصوص محددة تأتي نتيجة لتطبيقه على ظاهرات محددة . وبغير هذه النصوص يظل المنهج نوعاً من التهويمات الذهنية ، يظل مبهماً وهذا هو جانب الوحدة بين طرفي الثنائية . ولكن للمنهج رحابته ، وللنص محدوديته. فالنص يتناول ظاهرة ما ، ويوضع في ظرف زماني ومكاني محدد ، ويصبح بالتالي - وهو تعبير عن المنهج - قيداً للمنهج ذاته . وهذا هو جانب التناقض بين طرفي الثنائية . والحل الجدلي لهذا التناقض هو في النفي المستمر للنصوص كما سنرى من خلال الثنائية الثانية . التي هي ثنائية :

النص - الواقع

وبينهما أيضاً علاقة وحدة وتناقض . فالنص يوضع نتيجة لدراسة واقع محدد ، ويحمل استخلاصاً نظرياً لدراسة هذا الواقع المنهجية ، فهو في وحدة مع الواقع ، ولكن هذه الوحدة نسبية ومؤقتة ، فالواقع دائم الحركة وبالتالي فإن النص سوف يدخل في تناقض مع الواقع منذ لحظة وضعه ، وسينمو هذا التناقض ويتفاقم ، الى أن يكف النص عن القدرة على التأثير في الواقع أو حتى تفسيره .

ويقود الجمع بين الثنائيتين المذكورتين الى إدراك العلاقة بين :
المنهج - الواقع - النص . وبالتالي الى نفي النصوص من خلال الدراسة المنهجية للواقع .

أما الثنائية التالية ، فيمكن أن تكون ثنائية :

المنهج - الواقع

فالمنهج ذاته يتكوّن عبر تراكم في الفكر الذي هو انعكاس للواقع المتطور . ومن هنا تأتي الوحدة بين المنهج والواقع . ولكن التطور الواقعي لايتوقف ، وبالتالي فإن انعكاساته الفكرية لاتتوقف بل هي دائمة التواصل والغنى . أي أن عملية تكوّن المنهج مستمرة ، وفي هذا تناقض بين المنهج والواقع الذي يغنيه ويدقّقه . وبالتالي فإن إغناء المنهج استناداً الى غنى الواقع ، ومجاورة المناهج المعرفية الأخرى والتفاعل معها ، هو عملية لا بدّ منها .

إن إدراك هذه الثنائيات من قبل الماركسيين ، مهم جداً لدفع سيرورة الفكر الماركسي والاشتراكي بعامه الى امام في مواكبة سيرورة الحياة الواقعية . وهذا لايتم إلّا بنفي هذه الفكرة الماركسية او تلك حين تقع في تناقض مع التطور الواقعي ، واستنباط افكار جديدة باستمرار ، هي أكثر ملاءمة للواقع ، وبالتالي اكثر صحة ، وستكون هذه الافكار الجديدة افكاراً ماركسية ، لانها جزء من سيرورة الفكر الماركسي ذاته ، ولأنها حصيلة المنهج المعرفي الماركسي الذي هو منهج لمعرفة التطور .

حمص / أيلول ١٩٩١

آراء للمناقشة

تعبئة الموارد المالية غير النفطية في العراق*

د. سنان الشبيبي

أخذ الاقتصاد العراقي منذ بداية عقد الثمانينات، وبالتحديد منذ عام ١٩٨٢، يتعرض إلى مشاكل لم يكن يألفها من قبل. فبسبب الحرب مع إيران أخذ هذا الاقتصاد يعاني من شحة في الموارد المالية إذ تم استنزاف الاحتياطي من النقد الأجنبي تقريباً في عام ١٩٨٢، بعد أن كان قد بلغ عشية الحرب في عام ١٩٨٠ حوالي ٣٧ بليون دولار. لقد انعكست هذه الشحة في نقص في عرض السلع من جهة وفي اقتراض وتراكم للديون من جهة أخرى، الأمر الذي أدى بدوره إلى استفحال حالة التضخم. إن الخاصية الأساسية للاحتياطي العراقي تكمن في أن تراكمه لم يكن نتيجة لعملية إنتاجيةكفوءة للاقتصاد الذي اتسم بغلبة القطاع العام فيه خاصة نشاط قطاع النفط الخام، وإنما نتيجة للفوائض المتتالية في الحساب الجاري في ميزان المدفوعات نتيجة للارتفاعات التي حصلت في أسعار وصادرات النفط حيث استلمت الدولة، كمالكة للمورد النفطي، حصيلة هذه الارتفاعات كريع.

لذلك عندما جوبه الاقتصاد بالحاجة الماسة إلى الموارد المالية بسبب الحرب وتأثر إنتاج وصادرات النفط بها، لم يكن يملك آلية محلية بديلة لتعبئة الموارد، إذ لم يكن باستطاعة لا القطاع الحكومي غير النفطي ولا القطاع الخاص القيام بهذا الدور، فالأول كان لايستحوذ إلا على نسبة ضئيلة من الناتج المحلي الإجمالي، وهو نفسه، كان معتمداً

* ورقة مقدمة إلى «حوارات عراقية ـ اللقاء الاقتصادي» فيينا، ١٥ أيلول ١٩٩١. عن ملف «الكارثة الاقتصادية في العراق ـ الديون، التعويضات، الاعمار، النموذج الاقتصادي».

على القطاع النفطي في تمويل عجزه الدائم الناتج عن عدم كفاءة الإنتاج فيه والثاني اتسم هو الآخر بصغره نتيجة لتضاؤل دوره منذ الستينات وانحصار هذا الدور في أنشطة زراعية وتجارة داخلية محدودة، وبالرغم من انتعاش قطاع المقاولات الخاص في السبعينات وتحقيقه لأرباح ضخمة إلا أن الدولة لم تتمكن من نقل جزء مهم من موارد هذا القطاع إليها بسبب ضعف النظام الضريبي.

وفي الوقت الذي لابد فيه لأي اقتصاد من أن يوازن حساباته الداخلية والخارجية، فإن لكل طريقة في الموازنة نتائجها. هذا ومن الممكن تصور اربع وسائل لجأ إليها النظام في العراق ضمن محاولاته لتحقيق التوازن الاقتصادي:

أولاً: لجأ النظام إلى الاقتراض والتمويل الخارجي بشكل عام، وبالتالي وضع بذرة تراكم الدين الخارجي في العراق. وتتكون تركيبة هذا الدين في الوقت الحاضر من قروض بدون فائدة تم منحها من قبل أقطار الخليج إبان الحرب مع إيران، ومن ديون رسمية وتجارية يتطلب الأمر خدمتها التي بلغت حوالي ثلث العوائد النفطية، ولاشك أن الاقتراض قد تتطلبه عملية التنمية في بعض الأحيان إلا أن الوضع في العراق يشير إلى أن الاقتراض والتمويل الخارجي كانت بالأساس تهدف إلى توفير الموارد لتمويل الحرب وعليه فإنها، في أغلب الأحوال، تمت لأغراض استهلاكية حكومية بالرغم من أن البعض منها قد استخدم لإنجاز بعض مشاريع البنية الارتكازية كالطرق والجسور وبعض المباني العامة. ويعني ذلك أن الموارد المالية التي تم اقتراضها لم تستخدم في زيادة المعروض من السلع كما أنها سوف لاتولد فائضاً اقتصادياً يمكن أن يستخدم لاحقاً في تغطية نفقات خدمتها. بعبارة أخرى فإن الأموال المقترضة لم تستخدم لا للاستهلاك الخاص ولا للاستثمار وبالتالي فإن النظام لم يعد يملك غير خيار المزيد من الاعتماد على عوائد النفط كي يتمكن من تغطية نفقات خدمة تلك الديون.

ثانياً: حاول النظام استخدام مدخرات القطاع الخاص في الخارج لتمويل الاستيراد فكان أن صير إلى مايسمى بسياسة «الاستيراد بدون تحويل خارجي»، أي أن لاتكون الدولة مسؤولة عن توفير العملة الأجنبية لهذا الاستيراد. والهدف الأصلي من هذه السياسة هو زيادة المعروض من السلع المستوردة في السوق المحلية عن طريق عودة رأس المال العراقي في الخارج إلى القطر على شكل سلع إلا أن الكلفة لعموم الاقتصاد كانت باهظة جداً وذلك للأسباب التالية:

١ ـ ساهم هذا الإجراء في أن يواصل معدل التضخم، والذي كان قد بدأ أساساً بالارتفاع بسبب شحة السلع بالنسبة للطلب عليها، ارتفاعه إذ استخدم القطاع الخاص لاستيراداته، وكما هو متوقعاً، سعر الصرف المنخفض للدينار العراقي (والذي يعبر عن

القيمة الحقيقية له) الأمر الذي أدى، مع هامش ربح المستورد، إلى ارتفاع كبير في كلفة الاستيراد وانعكاس ذلك في أسعار السلع نفسها.

٢ ـ انصرف هذا النوع من الاستيراد إلى السلع الاستهلاكية بالأساس غير انه،في بعض الأحيان، لجأ القطاع الإنتاجي الخاص هو الآخر إلى هذا النوع من الاستيراد لشراء بعض المواد الأولية خاصة في المنشآت التي بيعت إلى هذا القطاع الأمر الذي سنأتي عليه لاحقاً.

٣ ـ في الوقت الذي استهدف هذا الإجراء إعادة مدخرات العراقيين في الخارج على شكـل سلع حصل، على مايبدو، العكس إذ أخذ رأس المال يهرب إلى الخارج وذلك بسبب تضاؤل الرغبة لدى العراقيين في الخارج في استخدام مدخراتهم في تمويل عملية الاستيراد خاصة وأن الأرباح المتحققة لهم كانت ستستثمر في داخل القطر فقط، الأمر الـذي قد لايوفـر عائـداً مجـزياً في ظل قوانين غير مستقرة وبيئة تضخمية وسعر صرف منخفض. هذا وبسبب تزايد الحـاجة إلى النقد لتمويل عملية الاستيراد تم اللجوء إلى تهريب النقد من العملة المصدرة محلياً خاصة إلى الكويت. وقد شكل ذلك ضغطاً أكبر على الدينار العراقي مما أدى إلى الاستمرار في انهياره وبالتالي استمرار عزوف القطاع الخاص المستورد عن الاستمرار داخل القطر.

ثالثاً : صير أيضاً إلى بيع منشآت القطاع العام إلى القطاع الخاص أو مايسمى بالتخصيصية، ولاشـك أن الـدولة تحقق فوائد مالية للميزانية من هذا الإجراء،تتمثل في الإيراد المتحصل عن البيع، توقف إعانة المشاريع الخاسرة واحتمال أن يتوفر إيراد للميزانية من الضرائب التي ستفرض في المستقبل على المنشآت المشتراة، إلا أنه يلاحظ على هذه التجربة مايلي:

ـ من حيث الأساس لم يكن هناك ضمان أن هذه المنشآت قد بيعت إلى الفئة التي يمكن أن تعتبـر من قبيل المنظمين. وفي الحقيقة إنه باستثناء عدد قليل من الصناعيين القدامى الذين استطاعوا، بشكل أو بآخر، التعايش مع النظام يمكن القول إن الطبقة الصنـاعية العـراقية أخـذت تنحسـر منـذ الستينـات وبـالتالي فإن قيادة القطاع الخاص أصبحت، خاصة إبان السبعينات، بيد قطاع المقاولات، وقد أدى ذلك إلى أن الذي يملك القوة الشرائية لشراء منشآت القطاع العام هم إما أن يكونوا مرتبطين بالنظام أو عناصر من قطاع المقاولات.

هذا وإن المتتبع لتطور هذا القطاع يمكن أن يستنتج أنه ظل، بالرغم من أرباحه الطـائلة، قطاعاً استهلاكياً في الأساس لايمكن أن يعول عليه في المساهمة في تنظيم الحياة الاقتصـادية. كل ذلـك يؤكـد على أن الهدف من بيع منشآت القطاع العام كان

بالأساس مالياً قصير الأمد وليس تنموياً وإنتاجياً طويل الأمد.

لايمكن فصل التخصيصية عن السياسات الاقتصادية المطبقة،ففي الوقت الذي كانت المنشآت العامة قبل البيع تستطيع استيراد ماتحتاجه من مواد أولية لم يتح هذا الخيار للمنشآت الخاصة المشتراة إلا بشكل محدود،وقد أدى ذلك أولاً إلى انخفاض الإنتاج وعدم الحاجة إلى جزء كبير من القوة العاملة بما في ذلك العمالة الوافدة خاصة وأنه قد تم، في ذلك الوقت، تسريح جزء من الجيش.

إن سياسة الانفتاح على القطاع الخاص وتشجيعه هي بلا شك سياسة ملائمة للاقتصاد العراقي في ظل ظروف انهيار موارد الدولة المالية كذلك الذي حصل في عقد الثمانينات إلا أن السير في هذا الاتجاه قد تم في ظل استمرار النظام على إعطاء الأولوية للإنفاق العسكري حتى بعد انتهاء الحرب مع إيران. وعلى هذا، ولكي يتفرغ النظام إلى هذه الأولوية ماكان عليه إلا أن يحاول التخلص (أو التنصل) من أعباء تملك منشآت القطاع العام وأنشطته بما في ذلك الاستيراد المدني. ونظراً لأن الدولة هي التي تملك موارد العملة الأجنبية بسبب ملكيتها لقطاع النفط الخام فإنها، ولكون القطاع العسكري ذا كثافة استيرادية عالية، أعطت الأولوية لهذا القطاع عند تخصيص العملة الأجنبية وبالتالي قامت، أي الدولة، بالتنافس على هذه العملة مع نفس القطاع الذي ادعت تشجيعه (القطاع الخاص). إن النتيجة الحتمية لذلك هي ألا يتمكن القطاع الخاص من استيراد كامل احتياجاته من المواد الأولية والسلع الإنتاجية،فينخفض استغلال الطاقة الإنتاجية والإنتاج الفعلي وتنتشر البطالة وترتفع الأسعار بسبب قلة الإنتاج، أو أن يلجأ القطاع الخاص إلى توفير مايحتاجه من العملة الأجنبية عن طريق السوق السوداء الأمر الذي يؤدي هو الآخر إلى ارتفاع معدل التضخم. هذا وليس المقصود من هذا التحليل أن يظل القطاع الخاص معتمداً على الدولة في تعبئة موارده المالية إلا أنه لابد من ضخ بعض الموارد له في الفترة الانتقالية تفادياً للنتائج المذكورة أعلاه. إن هذا هو الوضع الذي تمر فيه دول أوربا الشرقية الآن،وفي الوقت الذي تحاول فيه هذه الدول الحصول على موارد خارجية لاجتياز هذه المرحلة يلعب تخفيض الإنفاق العسكري في حالة العراق دوراً حاسماً في هذا المجال.

رابعاً: إن مشاكل العراق الاقتصادية المتمثلة بشحة السلع والتضخم والديون، والمتزامنة مع الإبقاء على أولوية الإنفاق العسكري،أضفت على هدف الحصول على موارد مالية إضافية أهمية قصوى. وفي بلد كالعراق يمكن لهذه الموارد أن تتوفر عن طريق ارتفاع أسعار النفط، توفير التمويل الخارجي، وكذلك عن طريق الإعفاء من الديون. وواضح أن هذه الأساليب العلاجية تشكل الأساس الاقتصادي لخلاف العراق مع الكويت فمن

الناحية الأولى اعتبر العراق الكويت ومعها الإمارات العربية المتحدة مسؤولتين عن خفض أسعار النفط خلال الفترة السابقة للغزو على اعتبار أنهما قد تجاوزتا حصتيهما المقررة لهما من قبل منظمة الأوبك، ومن ناحية ثانية طالب العراق الكويت بأموال إضافية (تمويل خارجي) إذ ادعى أن الكويت قامت بالإنتاج من حقوله النفطية في الرميلة، وأخيراً فإن الكويت، وعلى ما يبدو، لم تعف العراق من ديونه لها. وإزاء ذلك اعتقد النظام العراقي أن ضمان الموارد المالية الإضافية يكمن في غزو الكويت الأمر الذي يمهد الطريق لحل مشاكله الاقتصادية.

إلا أن غزو الكويت والحرب اللاحقة أديا إلى تدهور أكبر في الأوضاع الاقتصادية فالحظر الاقتصادي أدى بالعراق إلى أن يكون، من الناحية الفعلية، بلا مورد مالي يستطيع معه تغطية نفقات إعادة الاعمار والتنمية بل وحتى نفقات الغذاء والخدمات الصحية والاجتماعية.وحتى إذا ماتم رفع الحظر عن الصادرات النفطية فإن العراق، في واقع الأمر، سوف لايتمكن من التصرف بأكثر من نصف هذه الصادرات لاستيراد المواد الأولية والاستهلاكية والاستثمارية، أما النصف الآخر فتتقاسمه نفقات خدمة الديون وتعويضات الحرب. وهذا يمثل انخفاضاً هائلاً في القوة الشرائية لصادرات العراق والذي لابد وأن ينعكس في إعاقة عملية التعمير بل وانخفاض المستوى الاقتصادي للشعب. أما فيما يتعلق بالنفقات المحلية،يقوم النظام بطبع النقودوفي الوقت الذي يخلق ذلك طلباً محلياً ليس هناك عرضاً يقابل هذا الطلب نتيجة لتوقف الاستيراد وتأثر الإنتاج المحلي بذلك. لقد أدى ذلك إلى ارتفاع كبير في الأسعار وأصبح العراق يعاني، ولأول مرة، من ظاهرة الـ (HYPER- INFLATION) حيث يرتفع مستوى الأسعار بحوالي ١٠٠٠٪،وقد أدى ذلك بدوره إلى انخفاض في المستوى المعيشي للناس. لقد كان تقييد الاستهلاك وتقنينه نتيجة طبيعية للحظر،ويلجأ الناس في الوقت الحاضر إلى السوق السوداء لإكمال احتياجاتهم الاستهلاكية والتي تتجاوز بكثير الكمية المقننة. هذا وبالنظر لعدم كفاية الدخول الجارية لهذا الغرض يلجأ الناس إلى استهلاك ادخاراتهم وتسييل مايملكونه من ثروات (أثاث ومجوهرات وماإلى ذلك) لتغطية نفقات الحياة اليومية. هذا ومن الظواهر المصاحبة لذلك فقدان الأمن وانتشار الجريمة والسرقة بالإضافة إلى مشاكل اجتماعية لم يعهدها العراق من قبل.

إن خروج الاقتصاد العراقي من أزمته الحالية يستلزم توفر شروط سياسية وسياسات اقتصادية جذرية تعكس نظرة جديدة نحو عملية الإعمار والتنمية والعلاقات الاقتصادية الخارجية. إن المهمة الأساسية تكمن في تعبئة موارد مالية غير نفطية تضاف إلى الموارد التي تتولد من قطاع النفط نظراً لضخامة المتطلبات من العملة الأجنبية لتغطية نفقات

الاستيراد،وخدمة الديون والتعويضات-والتي ستتجاوز لسنوات عديدة مقبلة عوائد النفط وحدها. إن السياسات والإجراءات الاقتصادية يمكن أن تنصرف إلى مايلي :

أولاً : أن يصار إلى تخفيض كبير في الإنفاق العسكري. إن أهمية هذا الإجراء، والذي يختلف في طبيعته عن إجراءات أخرى سنأتي على ذكرها فيما بعد لانه إجراء محلي محض، تكمن في أنه سيؤدي إلى زيادة آنية في العملة الأجنبية الأمر الذي سيؤدي بدوره إلى ارتفاع مباشر في القوة الاستيرادية للسلع المدنية وبالتالي المساهمة في خفض التضخم إلى حد ما. إن أي متتبع للتطورات الاقتصادية في العراق في السبعينات والثمانينات يستطيع أن يستنتج أن النظام لم يكن يعير أهمية كبيرة لمشكلة التضخم وبالتالي تبنّي السياسات المناسبة للسيطرة عليها. وقد أدى ذلك إلى أن يعيش العراق حالات تضخمية في ظل كل من ظروف وفرة العملة الأجنبية في السبعينات وشحتها في الثمانينات،إذ نتج التضخم في الحالة الأولى عن ارتفاع حجم الإنفاق المالي نسبة إلى الطاقة الاستيعابية للقطر، وفي الحالة الثانية عن انخفاض سعر الدينار بشكل أساسي، لقد كان بإمكان النظام في السبعينات أن يضغط على الإنفاق لينسجم مع الطاقة الاستيعابية للقطر وكان بإمكانه في الثمانينات أن يخفض من الإنفاق العسكري،وفي كلتا الحالتين كان يمكن تحييد التضخم. . لقد أدى ذلك إلى انخفاض القيمة الحقيقية للأجور والرواتب خاصة في القطاع العام. وعلى أية حال إن خفض التضخم سوف يوفر قدراً من الحرية في استخدام، وزيادة فعالية، السياسات النقدية والمالية كسياسات سعر الصرف والفائدة والضرائب والإنفاق في تعبئة الموارد المالية بل وفي المساعدة على معالجة الظواهر التضخمية المقبلة. إن التضخم العالي يستلزم تخفيضاً كبيراً في سعر الصرف وارتفاعاً كبيراً في سعر الفائدة ومعدل الضرائب، بعبارة أخرى إن صياغة هذه السياسات يجب أن يكون ضمن العمل على تحقيق أهداف تعبئة الموارد المالية غير النفطية وليس استجابة للتطورات التضخمية.

ثانياً : بالنظر لأن الهدف ينصب على تعبئة الموارد المالية غير النفطية ونظراً لأن العراق يستورد مايقارب ثلاثة أرباع استهلاكه الغذائي يكون التركيز على تطوير القطاع الزراعي هو الأساس في أية سياسة لإحلال الاستيراد كمرحلة أولى. ومن ناحية أخرى فإن القطاع الزراعي يملك إمكانيات تصديرية يمكن تعيشها في الأمد القصير،الأمر الذي يشكل مصدراً مهماً للعملة الأجنبية. هذا ويجب التركيز على رفع إنتاجية القطاع الزراعي إذ يعتقد أن النظام قد ضخ موارد ليست بالقليلة في هذا القطاع انتهت، كما هو معروف، بزيادة الاستيراد أكثر من زيادة الإنتاج المحلي. هذا ويجب ألا تتعارض السياسة السعرية مع الأهداف الآنفة الذكر،وعلى هذا الأساس فانه في الفترة الانتقالية يجب على الدولة، التي

تكـون قد وفـرت بعض الموارد المالية من خلال خفض الإنفاق العسكري، أن تساعد القطاع الخاص الزراعي حتى لاتؤدي التطورات السعرية إلى نتائج تضخمية.

ثالثاً : لو كان العراق يتمكن من تغطية كلفة خدمة ديونه دون إجراء تكيف داخلي وخارجي ينعكس أساساً في خفض الاستيراد والاستثمار،لما شكل الدين الخارجي عبئاً. وواضح أن هذا ليس هو وضع العراق الذي يتوجب عليه خفض الاستيراد كي يتمكن من خدمة الديون خاصة في ظل استقطاع ٣٠٪ من عوائد النفط لتعويضات الحرب حتى إذا ماعـادت الصـادرات النفـطية إلى سابق عهدها. إن الأعمار والتنمية يتطلبان حلاً لهذه المشكلة التي جعلت الاقتصاد العراقي يتعرض لتغيرات سعر الفائدة الدولي بالإضافة إلى تغيرات شروط التبادل التجاري. لقد ساهمت هذه التغيرات، في كثير من الدول النامية، في تحويل المدخرات المعبأة محلياً نحو تغطية تكاليف تقلبات هذه الأسعار الدولية وفي استفحال ظاهرة تدفق الموارد من الدول النامية. إن تركيبة الدين العراقي البالغ في الوقت الحـاضـر ٨٠ بليون دولار تبين أن حوالي نصفه هو قروض بدون فائدة لدول الخليج، وحوالي ٢٠ بليون دولار إلى أوربا الغربية والباقي هو ديون عسكرية لدول أوربا الشرقية أساساً، ولقد بلغت كلفة خدمة الدين حوالي ٤ بلايين دولار وهي في الحقيقة تتعلق بالدين الغـربي. والدين العراقي، في غالبيته، يعود إلى جهات رسمية،إذ أن ٦٥٪ من الديون للدول الغربية يعود للحكومات، أو أنه مضمون من قبل الحكومات. إن هذه التركيبة تعني أن الاستراتيجيات الدولية للديون والتي يتم تداولها حالياً قد لاتشمل، بشكل مباشر، حالة الدين العراقي. فخطة (برادي) وزير الخزانة الأمريكي تنصب أساساً على الديون التجارية بالـرغم من أن الأقـطار المـدينـة بمثل هذه الديون كغالبية أقطار أمريكا اللاتينية هي، كالعراق، أقطار ذات دخل متوسط ضمن الأقطار النامية. من ناحية أخرى تختص مايسمى باستراتيجية تورونتو التي تم تبنيها من قبل مجموعة الدول الصناعية السبع (G7) بتخفيف الديون الرسمية، كأغلب تلك التي على العراق، إلا أن التركيز في هذه الحالة هو على الدول الأكثر فقراً ضمن الدول النامية خاصة الدول الأفريقية. وعلى هذا فإن على العراق ألا يعول على مثـل هذه الاستـراتيجيات وأن يعمل على معالجة قضية دينه بمزيج من التكيف والتمويل بحيث يخفف الأخير من الأثر السلبي للأول:

ـ يجب أن ينصب التكيّف على تخفيض كبير للإنفاق العسكري الذي شكل حوالي ثلث المـوارد المالية للميزانية. وحتى لايتعارض ذلك مع مناقشتنا للعلاقة بين تخفيض الإنفـاق العسكـري والتضخم، فإنه يجب ألا تذهب كل العملة الأجنبية الموفرة،نتيجة لتخفيض الإنفاق العسكري، إلى خدمة الديون.

ـ ضمن التمويل، يسعى العراق إلى إعادة جدولة ديونه الرسمية من خلال مايسمى

بنادي باريس والذي يختص بمثل هذه الديون، هذا ويمكن الحصول على شروط أفضل لإعادة الجدولة هذه من الاتفاقات الثنائية المباشرة.

وفيما يتعلق بديون الخليج فإنه يجب حصول اتفاق بشأنها يهدف بالنهاية إلى إلغائها، هذا بالرغم من أن هذه الديون لم تجر خدمتها لحد الآن.

ومن الممكن ايضاً دراسة إمكانية تحويل الدين الغربي إلى استثمار داخل العراق. ويتم ذلك من خلال قيام الدائن؛ خاصة إذا ماكان هذا الدائن مصرفاً تجارياً، ببيع هذا الدين إلى شركات استثمارية بخصم يعكس قيمة الدين الحقيقية (في الأسواق الثانوية لتقويم الديون) واحتمال تسديده. ومن بعد ذلك تقوم الدولة المدينة بتسديد الدين بصورة استثمار داخل القطر وبالعملة المحلية. هذا ومن الممكن استقدام رأس المال العراقي في الخارج بهذه الطريقة إذا ماكانت الشركات الاستثمارية المشار إليها أعلاه تضم مساهمين عراقيين. إلا أنه من الممكن إيراد بعض الملاحظات بشأن هذا الأسلوب.فمن الناحية الأولى يصعب المضي في هذا الأسلوب في ظل عملة وطنية منهارة كالدينار العراقي في الوقت الحاضر إذ أن على الدولة أن تصدر كميات أكبر من العملة لتحويل الدين إلى العملة المحلية.وهنا تبرز مرة أخرى أهمية خفض الإنفاق العسكري الذي سيوفر الموارد ويوفر الخلفية لإسناد الدينار. ومن الناحية الثانية يتوقف هذا الأسلوب على تصور الدائن لقدرة العراق على خدمة ديونه في المستقبل، الأمر الذي يحدد المقدار الذي يخصم به الدين عند البيع.وأخيراً يتوقف هذا الأسلوب على المناخ العام للاستثمار في البلد.

رابعاً : أن يصار إلى تبني نظرة جديدة نحو الاستثمار الأجنبي والعربي لغرض اجتذابه إلى العراق الذي هو بحاجة إلى مثل هذه التدفقات المالية، إن المسألة الأساسية في هذا المجال هي أن لاتتعارض مجالات الاستثمار الأجنبي مع الاستثمار المحلي بل تكون مكملة له، بعبارة أخرى أن يكون الاستثمار الأجنبي منسجماً مع أهداف التنمية المحلية والتي يجب أن يتم تحديدها من خلال المساهمة الفعالة للقطاع الخاص إذ لايجب أن يعيق الاستثمار الأجنبي نهوض القطاع الخاص المحلي، هذا وقد يبدأ الاستثمار الأجنبي بملكية كاملة مروراً بملكية مختلطة وينتهي بملكية محلية صرفة من قبل القطاع الخاص المحلي. وهذا ينسجم مع الافتراض في أن حاجة العراق إلى موارد خارجية يجب أن تكون حاجة مؤقتة إذ لابد للقطاع الخاص بالنهاية من تعبئة الموارد التي سيحتاج إليها والتي تكمل موارد الدولة النفطية.

خامساً : أن يتاح المجال للقطاع الخاص لان يلعب دوراً أكبر في عملية التنمية.ولا يعني ذلك ألا تتدخل الدولة في العملية الاقتصادية.إلا أن التدخل لايجب أن ينصرف فقط إلى تملك الدولة للمؤسسات الإنتاجية نفسها. إن عمل هذه المؤسسات صناعية كانت أم

زراعية،يتطلب توفر حالة ديناميكية لمراقبة تطورات السوق لاتتوفر ضمن الأجهزة البيروقراطية للدولة. فالذي عملته التجربة العراقية لتدخل الدولة هو أنها قضت على آلية السوق لكنها لم توفر آلية بديلة. لقد كانت النتيجة تملك الدولة لمشاريع خاسرة أصبحت بالنتيجة عبأ عليها،فكان على ميزانية الدولة أن توفر لهذه المشاريع الإعانات التي مكنتها من موازنة حساباتها بل، وفي بعض الأحيان، تحقيق ربح ظاهري فيها. إن تدخل الدولة في الاقتصاد ينبغي، في المرحلة الانتقالية، أن ينصرف إلى توفير الموارد المالية له، بعدئذ يتخذ التدخل شكلاً دائمياً ولكن من خلال صياغة السياسات التي تمكن القطاع الخاص من أن يلعب دوراً كفؤاً في العملية الاقتصادية خاصة عن طريق تطوير القطاعات القابلة للمتاجرة (TRADEABLES). فعلى سبيل المثال يمكن أن تهدف السياسة الائتمانية للدولة إلى تشجيع صناعات ضمن قطاع معين بل وفي منطقة معينة وذلك باعتماد سياسات مالية ونقدية لهذا الغرض. إن من المفارقات الاقتصادية في العراق هو أن يستخدم سعر الصرف المنخفض بشكل مكثف في «الاستيراد بدون تحويل خارجي» فيؤدي إلى رفع كلفة هذا الاستيراد ويكون بالتالي عاملاً تضخمياً بينما لايستخدم مثل هذا السعر المنخفض في تشجيع القطاع الخاص ليتمكن من المنافسة في السوق الدولية،وعلى ذلك فإنه في الحالات التي يصبح معها بمقدور القطاع الخاص التصدير فإن ذلك يتم بسعر صرف مرتفع كان قد تحدد أساساً في ضوء صادرات قطاع النفط الخام الذي تختلف طبيعة سوقه الدولية تماماً عن تلك الخاصة بالقطاع الخاص. وعلى هذا الأساس فإن سياسة سعر الصرف للدولة هي بلا شك إحدى وسائل تدخلها إلا أنها يمكن أن تستخدم في رفع كفاءة القطاع الخاص وإنتاجيته. إن تجربة التنمية في كوريا الجنوبية تشير إلى تدخل فعال في تلك التجربة ولكن عن طريق صياغة السياسات وليس عن طريق تملك المؤسسات.

سادساً : لقد اضطر عدد كبير من العراقيين إلى ترك العراق خاصة في فترة الثمانينات بحيث أصبح الأمر بالنسبة لهم كالهجرة القسرية. ولذلك أسباب عدة منها مايتعلق بانعدام الثقة بديمومة القانون في العراق والمنع المستمر للسفر والإصرار على موافقة الحكومة لعمل العراقيين في الخارج. وهكذا فإن علاقة العراقيين في الخارج، والذي يقدر عددهم بحوالي المليون، بوطنهم أصبحت مقطوعة أو شبه مقطوعة، هذا وفي الوقت الذي يشكل فيه العاملون في الخارج، في أقطار كثيرة في العالم، مصدر دخل لبلدانهم حيث يمولون ميزان المدفوعات بحوالاتهم واستثماراتهم انعكست قطيعة العراقيين عن وطنهم في حرمانه من مثل هذه التدفقات المالية.

سابعاً : ويقع ضمن تعبئة الموارد غير النفطية أن يُعد برنامج ضخم لمساعدة العراق، يساهم فيه المجتمع الدولي، يشتمل على الإعانات والقروض التساهلية وذلك

كي لايزداد عبء الدين عما هو عليه الآن.

لقد اتسم الاقتصاد العراقي، ولا زال، بانفتاحه على الخارج من الناحية التجارية وذلك بسبب ارتفاع نسبة صادرات النفط إلى مجموع الصادرات وارتفاع نسبة هذه الأخيرة إلى الناتج المحلي الإجمالي. إلا أن وضع الثمانينات، وبسبب الديون، أضاف إلى ذلك انفتاحاً مالياً. والقطر الذي يملك اقتصاداً بمثل هذه الخصائص، والتي تعكس الاعتماد المتبادل التجاري والمالي بينه وبين دول العالم، لايمكن أن يعيش في عزلة بل يجب أن يتوفر فيه نظام يتمتع بعلاقات حسنة مع دائنيه كي يمكن التفاهم معهم على شطب بعض الديون ومع الدول المانحة للمساعدات حتى تدرس إمكانية تقديم المساعدات له أو بفكر مواطنيهم في الاستثمار فيه. وواضح أن هذه هي بعض الوسائل التي تم طرحها آنفاً. وفوق كل ذلك فإن اللجوء إلى القطاع الخاص العراقي في الداخل والخارج يتطلب توفر ثقة متبادلة بين النظام ومواطنيه. كل ذلك لايتحقق إلا بتوفر نظام يتمتع بمصداقية على كافة الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية. إن المصداقية المحلية لاتتحقق إلا عن طريق الديمقراطية التي تعتبر هي أيضاً وسيلة لتعبئة الموارد غير النفطية عن طريق مراقبة وترشيد الصرف برلمانياً. كما أن نظاماً يتمتع بمصداقية دولية يمكن له أن يحشد الجهود الدولية للعمل على إلغاء النسبة التي تذهب لتعويضات الحرب والبالغة ٣٠٪ من العوائد النفطية الأمر الذي يعمل بدوره على تعبئة الموارد المالية.

نشوء الاقطاع ونضال الفلاحين في العراق

سين. ز

بدأ الاحتلال العثماني للعراق منذ عام ١٥١٣ بعد ان استولى السلطان سليم الاول على شمال العراق. واستخدموا الموصل كمركز لانطلاقهم لاستكمال احتلال بقية العراق. ولم يتم لهم ذلك حتى عام ١٦٣٨، بسبب الصراع العنيف بينهم وبين ايران، مما سبب الدمار لاقتصاديات البلاد.

ان تاريخ العراق مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الدولة العثمانية ولا يمكن النظر الى هذه البلاد بمعزل عن التاريخ العام للامبراطورية العثمانية. فقد كان السلاطين في الدولة العثمانية وولاتهم، الذين ينفردون بالحكم المطلق في الاقاليم الخاضعة لسلطتهم، محتفظين بالنظام الاجتماعي الذي كان يسود الشعوب الخاضعة وقت ان احتلوها.

وقد قاسى شعب العراق من الظلم والاستغلال العثماني طيلة اربعة قرون، لينتقل الى ظلم الدول الرأسمالية الاوربية. ففي اواخر العشرينات واوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر، اخذت الاوساط الاستعمارية البريطانية بتوسيع تجارتها وازداد طموحها للسيطرة على سوريا ولبنان والعراق لانها كانت على طريق الهند.

ثم بدأ الاحتلال البريطاني للعراق منذ اواخر عام ١٩١٤ بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى واستطاعت بريطانيا احتلال بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ بقيادة الجنرال مود بعد ان دارت معارك عديدة في مناطق مختلفة بين القوات البريطانية والقوات التركية المنسحبة.

لقد سعت رؤوس الاموال الاجنبية لفرض سيطرتها التامة على اقتصاد البلاد وحصلت على ارباح طائلة عن طريق نهب ثرواتها الوطنية والاستغلال لقوتها البشرية، وبهذا تعرض نموها الاقتصادي للتعطيل والتشويه.

وفي اواسط القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، كان العراق يعيش مرحلة انتقال صعبة ومعقدة فيها انماط متعددة، وكانت مسرحاً لفعل قوانين اقتصادية موضوعية منبثقة عن علاقات انتاجية مختلفة، بعضها سائرة نحو الزوال واخرى جديدة. فقد وجُد في العراق:

- بقايا علاقات بطرياركية - ابوية - علاقات الانتاج الطبيعي الموجه لاغراض الاكتفاء الذاتي.
- العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية.
- علاقات انتاجية رأسمالية في المشاريع الاقتصادية للاحتكارات الرأسمالية الاجنبية تعمل بالاساس لخدمة التجارة الخارجية والنقل. كما نمت في الوقت نفسه وبشكل بطيء، علاقات انتاجية رأسمالية بسيطة في المدن والمناطق الريفية القريبة منها.

ادت السيطرة العثمانية على العراق طوال اربعة قرون الى تدهور الانتاج الزراعي وتركيز الاهتمام على جباية الضرائب بمختلف الوسائل المتعسفة.

لقد كانت الاكثرية من سكان العراق من الفلاحين والرعاة، الرحل وشبه المتوطنين، يتنقلون من مكان الى آخر خوفاً من بطش السلطة، ومن اجل الماء والعشب. وعملت السلطة بكافة الوسائل على اضعاف نفوذ الامراء وكبار رؤساء القبائل، بوضع بعضهم في وجه البعض الآخر. ونجم عن هذه الدسائس والاساليب الصدامات المسلحة بين القبائل وأريقت فيها دماء كثيرة.

كان هم العثمانيين الوحيد هو جمع الضرائب وانفاقها على الجهاز الاداري التركي والجيش وفي المجالات التي تحددها السلطة المركزية. ولا يرصد من هذه الضرائب التي تجبى في العراق سوى جزء ضئيل لاغراض لها علاقة بالزراعة أو الاقتصاد العراقي ككل.

في عام ١٩١١ بلغت ريوع ممتلكات الدولة (٢,٤) مليون روبية، بينما بلغت الضرائب المباشرة (٩,٨) مليون روبية جاء ثلثها من قطاع الزراعة[1].

وفي الوقت الذي كان الفلاحون يستخدمون الادوات الزراعية المتأخرة ولم يحدث أي تطور في نظام الري حيث بقي على ما عليه منذ القرون الوسطى فقد ادى ذلك الى الجفاف الشديد في الاراضي الزراعية في الفترات التي كانت تنحسر فيها المياه في الانهر، مؤدياً ذلك الى العديد من حالات المجاعة في البلد[2].

تميزت المناطق الجنوبية في العراق بسيادة العلاقات الابوية القائمة على استغلال الارض بشكل جماعي من قبل افراد القبائل وقد سعى شيوخ القبائل للاستيلاء على اراضي المشاعات الفلاحية، وساندت السلطات التركية هذه المحاولات من جانبها لتعزيز سلطتها في تلك المناطق.

. ان الامتيازات التي حصل عليها شيوخ العشائر قد جعلتهم متميزين عن بقية افراد عشائرهم، كحقهم في الاستيلاء على قسم من اراضي المشاعية واستخدامها لرعي ماشيتهم أو منحه الى افراد عشيرة اخرى لاستغلاله بشكل مؤقت وفرض الاتاوات على افراد العشيرة والاستيلاء على خمس

الغنائم التي يحصل عليها افراد القبيلة عند غزوهم لقبيلة اخرى، اضافة الى استيلائهم على ضريبة الخوة التي تؤخذ من القبيلة المغلوبة عسكرياً اثناء الحروب العشائرية والتي تجمع باسم افراد العشيرة. غير ان المستفيد الوحيد من الخوة هو رئيس القبيلة نفسه.

ولم يقف رؤساء القبائل عند هذا الحد من استغلال ابناء قبائلهم بل امتد الى الفلاحين المستقرين وفرضوا عليهم دفع ضريبة الخوة بدعوى حمايتهم من غزوات القبائل الاخرى. وكانت نسبة هذه الخوة تتراوح ما بين ٥٠ ـ ٨٧٪ من المحصول. هكذا، ومن خلال هذا التسلط، تحول رؤساء القبائل الى اقطاعيين مستبدين[٣].

وابتدع الاقطاعيون ضرائب جديدة حيث فرضوا غرامة على الفلاحين ممن يتأخرون في دفع الضريبة، تسمى (الاوده) وهي ان ينزل اتباع الاقطاعيين ضيوفاً ثقلاء على الفلاحين لفترة قد تصل الى ثلاثة ايام أو أكثر حتى يقنعونهم بدفع الضريبة أي انهم لا يسافرون إلا اذا دفع الفلاح ما عليه[٤].

وفي ظل الاحتلال التركي الثالث للعراق (١٨٣١ ـ ١٩١٤) تكون الاقطاع من ملتزمي جباية الخراج لخزينة الدولة لقاء عمولة تقارب (١٢,٥٪ من ريع الاراضي الخراجية)[٥].

وكانت الاراضي توهب وتباع في عهد ولاية كل من (داود باشا) و (علي رضا باشا)، فيستحوذ احفاد الموهوب لهم أو المشترين على مساحات شاسعة من الاراضي ويجري البيع والشراء عرفياً خارج دوائر الدولة.

ومنذ عام ١٨٦١، حقق العثمانيون نجاحات معينة في تحويل قسم من القبائل شبه المستقرة الى مجاميع متوطنة حتى جاء (مدحت باشا) عام ١٨٦٩، فشرع بتطبيق قانون الاراضي العثمانية على العراق، بعد ان ظهر ان الاضطهاد وحده غير كاف لمقاومة القبائل وتصفيتها. فبدأ ببيع الاراضي بيعاً قانونياً وبأقساط بخسة نسبياً ولآماد طويلة الى الاصحاب السابقين من مالكي الارض حاملي السندات المشكوك فيها والى الزعماء ورؤساء القبائل المتنفذين على اساس وثائق خاصة دعيت بالـ (طابو). أي ان المالك الجديد اصبح له حق التصرف في الارض مع بقاء رقبتها بيد الدولة[٦].

وكان الهدف الاساسي للدولة العثمانية في انتهاج هذه السياسة هو تفكيك القبائل من خلال استيطانها وتشجيع الزراعة وحماية الطرق التجارية واضعاف نفوذ الزعماء ورؤساء القبائل وبالتالي تعزيز السلطة المركزية ليسهل عليها جمع الضرائب.

ونظراً لفساد الموظفين واعتيادهم الرشوة، فقد حدثت مخالفات عديدة لتطبيق القانون وغالباً ما اعطيت الى اشخاص سندات التملك لاراضي كان يملكها آخرون واراض يشك في موقفها الحقيقي أو ليس لها حدود واضحة، وبذلك اصبح بحوزة هؤلاء الاشخاص مساحات شاسعة من الارض وادى ذلك الى حرمان مشغليها الحقيقيين منها. اضافة الى ذلك تردد افراد القبائل في شراء السندات مما افسح المجال امام المتنفذين في الدولة ووجهاء المدن لشراء الاراضي لقاء سندات الطابو، ونجم عن ذلك تكوّن عدد كبير من الملاكين البعيدين عن الارض وفلاحيها، من سكنة المدن[٨].

اذا كان تنفيذ قانون الاراضي العثماني ادى الى زوال النظام الاقطاعي العسكري تدريجياً ونشوء طبقة جديدة من الاقطاع العشائري من رؤساء القبائل ووجهاء المدن ورجال الدين، وتقوية نفوذ الملاكين القدماء، فقد ادى كذلك الى تمزيق القبيلة باعتبارها منظمة موحدة واضعفت العلاقات الابوية التي تعتبر اساس الوحدة السياسية للقبيلة وخاصة من المناطق القريبة من المدن، ونشأ بدلاً من ذلك نوع جديد من العلاقات يعتمد على المصالح الطبقية والاقتصادية في القبيلة وتحول شيوخ القبائل الى اقطاعيين وبسطوا نفوذهم السياسي على افراد قبائلهم الذين تحولوا الى فلاحين أو رعاة باستخدام القوة ضدهم.

وهكذا نشأت عوائل اقطاعية في جنوب العراق تملك اصقاعاً واسعة من الارض. وتركز في ايدي شيوخ آل سعدون حتى اوائل القرن العشرين غالبية الاراضي في ضفتي الغراف وفي اطراف لواء الناصرية الى سوق الشيوخ وكذلك في لواء البصرة، تلك الاراضي التي كانت مستغلة من قبل مئات الالوف من ابناء القبائل سابقاً[٩].

أما المدن الكبيرة كالبصرة وبغداد والموصل فقد سادت فيها حيازات كبيرة للاراضي من قبل الاقطاعيين، بحيث بلغت حيازة اثني عشر فقط من كبار الاقطاعيين في منطقة شط العرب من (١٦٠) الى (٤٠٠) هكتار أو اكثر من اخصب بساتين النخيل وكانت بساتين ديالى ملكاً لبعض العائلات من اثرياء الاقطاعيين الذين يقطنون بغداد. كما احتفظت الدولة العثمانية والاقطاعيون المحليون بملكيات الري في البلاد[١٠].

لم تكن حيازة الاقطاعيين على مساحات هائلة من الاراضي تضمن لهم القوة الاقتصادية والسلطة السياسية في الريف فحسب، بل كان في ايديهم القسم الاكبر من الخيرات المادية التي يخلقها الجيش المكون من الفلاحين والرعاة. وبذلك امسك الاقطاعيون في قبضتهم السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية.

لم تستطع الحكومة فرض حق التملك بشكل كامل نتيجة للمقاومة الباسلة التي ابداها افراد القبائل في معظم مناطق العراق ضد اجراءات السلطة. فلم يعترفوا ابداً بالملاكين الجدد واحجموا عن دفع الضرائب ونشبت بسبب ذلك العديد من الانتفاضات الفلاحية ضد الاقطاع[١١]. مما دفع السلطات التركية الى جمع الضرائب بالقوة من الفلاحين. وقد تحول الشيوخ الذين قادوا الانتفاضة الى مستغلين ومتعسفين بحقوق الفلاحين، أي تحولوا الى اقطاعيين جدد[١٢].

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، اخذ وضع جديد بالتبلور متمثلاً في اشكال بسيطة للعلاقات الرأسمالية والاستغلال الرأسمالي في القرى القريبة من المدن. وبدأت العلاقات البضائعية تنمو في هذه المناطق حيث امتهن الفلاحون زراعة المحاصيل التي تلبي طلبات المدينة. وهكذا تقوضت اسس الاقتصاد الفلاحي المغلق وبدأت تتعزز علاقاتهم بالسوق وظهرت اول علائم العلاقات الرأسمالية في الزراعة باستخدام العمال الاجراء[١٣].

وبدخول العراق النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي وارتباطه باحتياجات السوق الدولية وخاصة بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩، نشأت تغييرات اجتماعية هامة، منها تحول العلاقات

الابوية القائمة في الريف الى علاقات بين صاحب الارض والفلاح بشكل تدريجي والاتجاه المتزايد نحو الانتاج للسوق بدلاً من الاكتفاء الذاتي. وازداد اقبال السوق العالمية على المحاصيل الزراعية العراقية، وبذلك ازداد شره الاقطاعيين فشيدوا القصور الضخمة في بغداد وغيرها من المدن الاخرى، ووفرت لهم المصنوعات الاجنبية الحديثة حياة مترفة وباذخة في المأكل والملبس وغيرها من مواد الترف والنعيم، مما دفع الاقطاعيين الى استغلال الفلاحين بشكل اكثر وحشية لسد نفقاتهم ونفقات مرتزقتهم الذين اخذوا يزدادون يوماً بعد آخر وبذا تحمل الفلاحون عبء هذه النفقات لوحدهم.

ونتيجة لحاجة الاقطاعي الى المال كان يسعى بكل ما اوتي من قدرة لتزويد الاسواق بكميات من الانتاج اكثر فأكثر[١٤]. وقد ارتفعت كمية الحبوب المصدرة من العراق من حوالي ٧٠ ألف طن في تسعينات القرن التاسع عشر الى ١٨٨ ألف طن في عام ١٩١١[١٥]. وادت ايضاً الى ارتفاع الايجار[١٦]. مما ضاعف استغلال الفلاح وتدهور مستواه المعيشي.

أما في كردستان، فقد كانت الارض محصورة في ايدي رؤساء القبائل الاكراد. وكانوا في الواقع من كبار ملاكي الارض وممثلاً حياً للاقطاعيين تحت الستار القبلي وكانوا يتخذون العساكر ويدفعون الضرائب لولاة السلطنة العثمانية[١٧].

وقد اشار كوتلوف الى ان العلاقات الابوية قد تحولت الى قانونية لنظام آخر هو النظام نصف الاقطاعي الذي بدأ يظهر بشكل تدريجي. وقد اختفت الملكية المشاعية من الناحية الفعلية في معظم مناطق كردستان. وازداد خطر غزوات الاقطاعيين على الفلاحين المستقرين الذين كانوا يضطرون الى منح الارض لاي من الاغوات والبيكات من رؤساء العشائر للدفاع عنهم[١٨].

وقد عانى الاكراد الرحل واشباه الرحل (الكوجر) الذين حافظوا على استقلالهم الظاهري، عانوا ظروفاً استعبادية لا مثيل لها وتحول معظمهم الى رعاة مأجورين. وكان الكثيرون منهم محرومين من امتلاك أي رأس من الجياد. ولم تكن لديهم من الماشية ما يوفر لهم حداً ادنى من الاستقلال الاقتصادي. كما حرموا من الحقوق السياسية التي كانوا يتمتعون بها في المنظمات القبلية. واضطر قسم منهم الى الانخراط في خدمة رئيس القبيلة وحراسته، مما افقدهم ارادتهم بشكل مهين. ونتيجة للاستغلال الاقطاعي فقد حاول قسم من الرحل الهرب من (الرعية) تخلصاً من المستغلين[١٩]. بينما شيد الاقطاعيون من قبيلة همـاوند القصور الضخمة وشكلوا الحرس الخاص للزعيم والفرسان المسلحين في الاقطاعيات الزراعية التي تشبه تلك التنظيمات في المقاطعات الصغيرة التي انتشرت في بولونيا[٢٠].

كما بلغت الاراضي التي استحوذ عليها رئيس قبيلة (الجاف) في بداية القرن العشرين بتأثير الظروف السياسية والاقتصادية، عشرات الالوف من (الهكتارات)[٢١]. وظهرت الملكيات الاقطاعية واشكال الاستغلال شبه الاقطاعي والاقطاعي بين عشائر اليزيدية في جبل سنجار، وكان رئيسهم ذا مركزين ديني ودنيوي ويمثل المستغل الرئيسي لفقراء اليزيديين[٢٢].

وقد ادى استحواذ رؤساء القبائل واثرياء المدن ورجال الدين على اراضي الفلاحين الكرد الى

توطيد الاستغلال الاقطاعي لجماهير الكادحين فأفقدهم الاستقلال الشخصي بعد ان فقدوا استقلالهم الاقتصادي. وبالرغم من الاستغلال الفظ للفلاحين من قبل الاقطاعيين فان العلاقات بين المستغَلين والمستغِلين لم تكن قد اتخذت بعد طابع تناقض طبقي حاد. فان عملية الاستقطاب الطبقي للفلاحين قد تأخرت ولاسيما من جراء وجود النظام القبلي الذي استغلته القمة الاقطاعية بذكاء، والذي ولد اوهاماً باطلة بين الجماهير الكادحة. وان كل هذا خفف بشكل محدد من حدة الصراع الطبقي وتحول الى اساس نفوذ ملموس للقمة الاقطاعية، والذي تعاظم اكثر بحكم جمع زعماء معظم المناطق الكردية والآثورية واليزيدية بين السلطتين الدينية والدنيوية»[٢٣].

ولم تكن سلطات الاحتلال البريطاني قد عملت على تغيير مجرى حياة الاقطاع، بل انتهجت سياسة تهدف الى ايجاد قاعدة اجتماعية محلية تتمكن من خلالها من بسط سيطرتها الاستعمارية على البلاد. ووجدت ضالتها في الزعماء المحليين، أي في القوة الاجتماعية التي ترى في الاستعمار البريطاني خير سند لتحقيق مصالحها الطبقية. كانت بريطانيا تسعى اولاً الى النهوض بطبقة الاقطاع التي وجدت فيها خير سند لاحتلالها، فشجعت بحماس هذه الفئة الاجتماعية واثرتها ثراءاً شديداً. وفي نفس الوقت اعاقت تطور البرجوازية العراقية. فقد بلغت مساعي الامبريالية البريطانية اوجها لكسب زعماء العشائر ووجهاء المجتمع العراقي منذ بداية القرن العشرين وذلك من خلال الشركات الاجنبية التي اقامت علاقات اقتصادية مع الاقطاعيين العراقيين والكومبرادور. كما لعب عملاء المخابرات العسكرية والمدنية دوراً مهماً في هذا المجال وهم الذين جاءوا الى العراق بصفة سائحين ومبشرين وآثاريين... الخ[٢٤].

وقد تلقى موظفو القنصليات البريطانية المتواجدة في العراق طلبات عديدة من وجهاء محليين وشيوخ عشائر يطلبون فيها حماية الحكومة البريطانية عن طريق تسلم الحكم في البلاد[٢٥]. كما ساند بعض رؤساء العشائر الاحتلال البريطاني للعراق، حيث مدوا له يد العون حتى قبل احتلال البصرة، وسارعوا في مراسلة القوات الغازية[٢٦].

وازدادت تلك الروابط باحتلال القوات البريطانية لبغداد. فسارع السير (بيرسي كوكس) الى مصادقة نقيب اشراف بغداد (السيد عبد الرحمن الكيلاني) بعد ان لبى النقيب دعوته لزيارة المقر العام للمندوب السامي وقام النقيب بنفسه بالترحيب بقائد الجيش البريطاني. وعلى اثر ذلك توجه الى المندوب السامي شيوخ بعض القبائل الصغيرة في النجف وكربلاء والفرات الاوسط واستلموا المكافآت لقاء المحافظة على الامن في منطقتهم[٢٧].

وبعد ان استتب الامن لسلطات الاحتلال، ادركت بشكل قاطع ان رؤساء العشائر وشيوخها يمكن الاعتماد عليهم والثقة بهم، فعمدت الى اسنادهم بكل السبل وارشائهم واستبدال المناوئين للاحتلال البريطاني بالشيوخ الذين يمكن ضمان ولائهم بالمكافآت والارض والمسؤوليات.

فاذا كان الجهاز العثماني اعتمد في حل مسألة الارض على سياسة زرع الشقاق بينهم وتفكيك القبائل واضعاف مكانة الشيخ؛ فقد اتبع الانكليز سياسة تستهدف تقوية رؤسائهم والاعتراف بنفوذهم. وكتبت (مس بيل) بهذا الشأن: «وبدلاً ان يستخدم الاتراك سلطة الشيوخ،

كانوا يتبعون سياساتهم التقليدية في محاولة تحسين مركزهم بالقضاء على الموجود من العناصر المحلية التي تحافظ على الامن والاستقرار. وكانت الحالة في ولاية البصرة تعطي صورة شاملة للفوضى والاضطراب. فقد حوفظ في منطقة دجلة على سيطرة متقطعة بالاستفادة من العداوات الموروثة بين المجموعات القبائلية الكبيرة واللعب بالخصومة الشخصية الموجودة بين افراد الاسرة المالكة فيها. أما معرفة التركي للسلطة الحقيقية الموجودة في كل منطقة وتسخيرها في خدمته، فذلك شيء يقع خارج نطاق تفكيره. وخير ما يمكن ان يقال عن جلوسه غير المريح في وسط الدوامة هو انه استطاع الجلوس في وسطها. أما في وادي الفرات فيمكن الاعتراف بان التركي قد ازيح عن مقعده المذكور»[28].

منذ الايام الاولى للاحتلال البريطاني قاوم الشعب العراقي مقاومة عنيفة. وكانت قمة هذه المقاومة قد تفجرت في ثورة العشرين التي شارك فيها (١٣٠) ألف مقاتل معظمهم من الفلاحين[29]. الامر الذي ارهق كاهل دافع الضرائب البريطاني واشتد كذلك ضغط الشعب الانكليزي لاعادة ابنائه المجندين الى بلادهم، ونتيجة ذلك كله، اضطرت بريطانيا الى تقليص قواتها في العراق عام ١٩٢٠ - ١٩٢١ والتركيز على الاقطاعيين ليحلوا محلها في حفظ الامن في البلاد.

وقد سعت سلطات الاحتلال تحت هذه الظروف الى دعم وضمان ولاء زعماء القبائل، ما عدا المتمردين منهم. وكان من مصلحة الاحتلال ان تتركز السلطات في ادارة مركزية. فقد عملوا على توحيد قياداتها مع رؤساء القبائل وخاصة اولئك الذين يشغلون مناصبهم بمساندة وتأييد الانكليز، والذين يعملون تحت امرة الضباط السياسيين لحماية الطرق واستتباب الامن، وزودوهم بالمال والسلاح ليكونوا على اهبة الاستعداد لقمع اية حركة معادية للاحتلال[30].

لقد اصبحت تحت امرة العشائر (١٠٠) ألف بندقية بينما لم تكن للحكومة غير (١٥٠٠) بندقية كما اشار الى ذلك الملك فيصل في مذكرته المعروفة[31].

أما رؤساء العشائر «غير الموالين» كالشيخ محمود في كردستان والشيخ عبد الواحد الحاج سكر وزملاء له في الفرات الاوسط، فكان نصيبهم العقاب المتعدد الاشكال. فقد تقلصت اراضيهم وثقلت ديونهم وعانوا من صنوف التعسف والاضطهاد ومن الضيق الشيء الكثير.

ومن اجل منح التقاليد والاعراف العشائرية صفة قانونية فقد اصدر الانكليز ما يسمى بنظام دعاوي العشائر المدني والجزائي لعام ١٩١٨ليمنح رؤساء القبائل والآغوات والاقطاعيين سلطات استثنائية وذلك بتحويل (المجالس العشائرية) المخولة قانوناً للبت في النزاعات الى اداة بيد الاقطاعيين لحسم تلك النزاعات حول الاراضي الزراعية لصالح تملكهم لها، وتوسيع هذا التملك. ثم عملوا على تكريس الاقطاع في الريف والقضاء على الحيازة الصغيرة للارض من خلال تطبيق نظام الطابو في عام ١٩١٩، كي يخلقوا امكانيات لاستحواذ كبار الاقطاعيين ووجهاء المدن على اراض شاسعة على حساب الفلاحين الذين لم يكن في حوزتهم وثائق لحيازة الارض رسمياً، بل كانوا يستغلون الارض حسب ما يقتضيه العرف المحلي[32].

أما في كردستان فقد تميزت السياسة البريطانية بخصائص معينة، اذ اعاد المحتلون تسجيل حقوق حيازة الارض واعترفوا بشرعية حيازة الاقطاعيين الاكراد على اراض الفلاحين في العهد التركي[٣٣].

لم يكتف الملاكون بهذا القدر مما استولوا عليه من اراضي الفلاحين، بل اشترى البعض منهم الاراضي من الفلاحين بثمن بخس بعد تراكم الفوائد الربوية التي عجزوا عن دفعها، أو بقطع مياه السقي عن اراضي الفلاحين لاجبارهم على التنازل عنها.

أما كبار الملاكين «الموالين»، فان اكثرهم استولى على الارض من دون ثمن، كمنحة من الدولة على حساب كادحي الريف. وكانت الدولة تعفيهم من اجرة الارض الاميرية والضرائب المتراكمة بجرة قلم[٣٤].

وبالارتباط مع تنامي وترسيخ مواقع الاقطاعيين في الريف جرى اخضاع جماهير الفلاحين لابشع انواع الاستغلال من قبل شيوخ الاقطاع وعلى يد السلطات الخاضعة للاحتلال البريطاني، بحيث قدر ما جمعته هذه السلطات من الفلاحين على شكل ضرائب خلال اعوام ١٩٢١ - ١٩٢٦ مبلغ ٦٧ لك من الروبيات يضاف اليها ما جمعته من ضرائب على المواشي والاغنام بلغت ٢,٦ مليون روبية[٣٥].

وكان اكثر القوانين بشاعة هو قانون الزراع رقم ٢٨ لسنة ١٩٣٣ اذ يربط الفلاح بالارض ويمنعه من مغادرتها اذا لم يسدد كافة الديون المترتبة عليه للاقطاعيين. وقد كان من المتعذر على الفلاح ان يسدد هذا الدين مهما كان بسيطاً نتيجة لفقره وشدة استغلاله، حيث انه كان يدفع سنوياً فوائد تزيد على ٥٠٪[٣٦]. اضافة الى ما يستولي عليه من انتاجه فلا يبقى له في بعض الاحيان اكثر من ربع المحصول. ولذلك لا يعتبر الفلاح مستأجراً للارض طالما كان فاقداً للضمان القانوني ولحرية العمل، وهذا يعني تحويله الى حالة تشبه حالة الاقنان في اوربا الاقطاعية[٣٧].

واذا كان افراد العشائر فيما مضى اصحاب الارض اسمياً وتستغل الارض من قبل العشيرة بشكل مشترك وحسب العرف السائد، وكان رؤساء القبائل يقومون بدور الوصي أو المشرف على الاراضي نيابة عن الدولة، فقد اصبحت هذه الاراضي فعلياً وقانونياً، عملياً واسمياً، ملكية خالصة للشيوخ والآغاوات والاقطاعيين. واصبحت الغالبية الساحقة من سكان الريف لا تملك شبرا واحدا من الارض في حين اصبح بحوزة كبار الاقطاعيين مساحات شاسعة من الارض[٣٨].

وكان الانكليز يقاومون كل محاولة لاصلاح اوضاع الاراضي مهما كانت جزئية أو ثانوية واصروا على سياستهم في تقوية مركز كبار الاقطاعيين بالضد من التقدم الموضوعي للمجتمع العراقي، وبدلاً من ان يعملوا على تسهيل انحلال الطبقة الاقطاعية فقد رأوا ان من مصلحتهم الابقاء على النظام الاقطاعي بل وتقويته بكافة السبل المستطاعة واضفاء خصائص جديدة عليه لم تخفف من حدة الاستغلال اللاانساني الذي يتسم به النظام الاقطاعي الكلاسيكي. وبذلك نشأت علاقات اجتماعية جديدة ومصالح جديدة في الريف العراقي هي اكثر ظلماً وابشع، انسانياً ومعنوياً، من تلك التي سادت في النظام الاقطاعي في القرون الوسطى.

لم يكتف الانكليز بمنح الاقطاعيين اراض شاسعة، بل لجأوا الى تعيين عدد كبير من ممثلي كبار الملاكين في المدن وزعماء العشائر في الوزارات والمجالس التشريعية وهؤلاء لم يجدوا انفسهم امام أية ضرورة ملزمة لرعاية مصالح الفلاحين الذين يؤلفون الاكثرية الساحقة من سكان العراق والذين ساءت احوالهم منذ انتهاء الانتداب اكثر فأكثر[39]. وقد صار الموظفون ادوات طيعة بأيدي بريطانيا في تنفيذ السياسة الاستعمارية في العراق.

فعندما انعقد في نيسان ١٩٢٢ مؤتمر وطني كبير (من زعماء الدين والعشائر، السنة والشيعة) بكربلاء للمطالبة بموقف حازم من غارات قبائل ابن سعود، وباتخاذ سياسة وطنية، فان الاقطاعيين الموالين للانكليز نظموا حركة معاكسة ووقعوا على عريضة وعدة مذكرات بالاتجاه المضاد. ومن هؤلاء عداي الجريان (رئيس البو سلطان) ورشيد العنيزات وشمران الجلوب وعلي السليمان (رئيس الدليم) وغيرهم.

وفي ٢٣ نيسان ١٩٢٢ ذهب الشيخ علي السليمان مع اربعين شيخاً لمقابلة الملك بعد ان قابلوا المندوب السامي (كوكس)، فذكروا له بعبارة واضحة بانهم لن يقسموا بالولاء له إلا بشرط وهو ان يصغي للنصائح البريطانية.. ثم نظموا مضبطة طويلة تشتم مؤتمر كربلاء. وقد ورد فيها:

«من حيث ان حكومتنا هي الآن في الدور الابتدائي ومحتاجة الى من يمد اليها يد المساعدة مادياً وادبياً، فالى ان تبلغ درجة الكمال والاستغناء عن الغير يجب ان يطلب من حكومة بريطانيا، المنتدبة من قبل عصبة الامم على العراق، كل المساعدات المطلوبة والتي يتوقف عليها توطيد اركان حكومة العراق كحفظ النظام وتوطيد الامن واعمار البلاد ويجب ان يعتمد عليها كصديق مخلص للبلاد واهل البلاد»[40].

وقد انضم الى هذه الحركة رؤساء اقطاعيون آخرون امثال رؤساء الخزاعل وسالم الخيون وخيون العبيد.. وغيرهم.

وعندما اخذ الرؤساء القبليون يستحوذون على الارض ويستغلونها بصورة (الطابو) أو اللزمة وينصبون المضخات الزراعية بالمشاركة مع تجار المدن وكبار الموظفين (الباشوات والبيكات) ويحولون الفلاحين الى عبيد بعد ان اخذ النظام القبلي بالتفكك تدريجياً، فقد صار الفلاح العراقي يعيش حياة البؤس والشقاء والحرمان من ابسط وسائل العيش.

وكان الفلاح يعيش في جنوب العراق ووسطه في اكواخ من القصب والبردي وهي خالية من النوافذ وفي الشمال كان الفلاح يسكن غرفاً اشبه بالحفرة لا ينفذ منها الهواء إلا قليلاً[41]. بينما سكن البدو خياماً ممزقة. وكان الفلاح يستعمل كوخه لكافة احتياجاته فكان مكاناً للنوم والطبخ وتشاركه فيه حيواناته كذلك، وقد يقطع قسماً قليلاً منه للضيوف والاغراب ويطلقون عليه اسم (الربعة). أما الشيوخ والاقطاعيون فقد بنوا لانفسهم المضايف الكبيرة والتي كان يحتاج العمل فيها الى شهر والى خبرة ومهارة لم تتوفر لدى الجميع.. وكان الملاكون يستخدمون الفلاحين لهذا العمل دون ان يدفعوا لهم اجراً بالرغم من ارتفاع دخل الملاك وانحطاط دخل الفلاح[42]. ففي عام ١٩٢٨ مثلاً كان دخل الشيخ يقارب الـ ٢٧ ألفاً من الروبيات بينما لم يتجاوز دخل الفلاح ٢١٠ روبية في

السنة[43].

في وسط هذا الفقر المدقع كان يتوجب على الفلاح القيام بأعمال مجانية لسد احتياجات مضيف الشيخ ومصاريفه الشخصية بحجة مراجعة الدوائر الحكومية وتقديم الرشاوى من اجل مصالح افراد العشيرة نتيجة لارتباطهم به عن طريق الاكراه الاقتصادي والاكراه اللااقتصادي. وقد كانت المصاريف تقدم عيناً[44].

وقد سببت الحرب العالمية الاولى تدهور الوضع الاقتصادي في العراق، حيث ألقي بالعبء الاكبر من تمويل الجيش على كاهل الشعب العراقي (أي الجيش العثماني والجيش البريطاني) وفرض الانكليز ضرائب اكثر مما فرض العثمانيون وتحمل الفلاحون ثقل هذه الضرائب باعتبارهم من دافعي الضرائب الاصليين والمنتجين المباشرين للخيرات[45] وقبلهم قامت السلطات التركية باجبار الفلاحين على بيع المحاصيل الزراعية لها بأسعار بخسة جداً لتلبية احتياجات جيشها[46]. وقد ساق الانكليز عشرات الالوف من المواطنين اكثرهم من الفلاحين الى السخرة لاقامة المنشآت للمحتلين الانكليز في ظروف عمل لاانسانية فقد اجبروا على الاقامة في العراء من دون ان يوفر لهم حتى الحد الادنى من الغذاء وتشير التقارير الرسمية الى انه استخدم خلال عام ١٩٢٤ وحده (٩١٢٥٠) فلاحاً في عمل السخرة[47]. أما في كردستان فقد كان الكري وتنظيف القنوات من واجبات الفلاحين وبشكل مجاني. ولم يتجاوز تكاليف حفر ثلاث قنوات في منطقة السليمانية مبلغ (٨٠٠٠) روبية. وكانت هذه الجهود التي يصرفها الفلاحون تذهب لمنفعة الآغاوات الذين يستغلون الاراضي المطرية[48].

مقاومة الفلاحين

ولم يمض وقت طويل على ادخال نظام الطابو، حتى ظهرت نضالات فلاحية ضد الشيوخ الاقطاعيين في لواء المنتفك الذين استولوا على اراضي الفلاحين خلسة وسجلوها باسمهم وبدأوا يطالبون بنسبة كبيرة من المحصول كريع، وساندت الحكومة التركية هذا المطلب. وقد رفض الفلاحون دفع حصتهم من المحصول وطردوا الاقطاعيين من المنطقة في عام ١٨٧٨[49]. وفي عام ١٨٩٢ انتفض فلاحو الناصرية بوجه العثمانية بعد ان استولت على قسم من اراضي هذه المنطقة لصالح مالية الدولة. وبعد عام ثار فلاحو قبيلة آل محمد في العمارة بسبب سوء توزيع اراضي هذه المنطقة وقد قمعت حركتهم بقوة[50]. وفي الفترة ١٩٠٠ - ١٩٠٨ حدثت سلسلة من الانتفاضات ضد الدولة العثمانية وكانت اشدها انتفاضة تشرين الاول ١٩٠٣ التي استمرت عدة اشهر وساهم فيها (٤) آلاف مسلح وتمكنوا من ابادة الحامية التركية في المنتفك. كما شهد ريف كردستان انتفاضات فلاحية خلال هذه الفترة وخاصة في الموصل ومنطقة بارزان وغيرها. وبعد اعلان الدستور العثماني نشبت في العراق سلسلة من التحركات الفلاحية في مناطق البلاد المختلفة وبلغت اوجها في ١٩١٣ - ١٩١٤ عندما صدر قرار السلطات التركية ببيع الاراضي الاميرية للاجانب، وامتنع

الفلاحون (رداً على ذلك) عن دفع الضرائب[41]. وسبقت هذه التحركات انتفاضة اهالي الحلة والديوانية في عام ١٩١٢[42]. ومن اجل قمع هذه التحركات، وجهت السلطات حملات تنكيلية ضد الريف.

لم تحل سلطات الاحتلال البريطاني مسألة الارض لصالح الفلاحين، بل ساهمت في خلق الفوارق الطبقية وانمائها في الريف العراقي. وكانت السلطة السياسية تمثل مصالح الاحتكارات الاجنبية والكومبرادور والاقطاع، فقامت حركة بني ركاب في (لواء المنتفك) عام ١٩١٨ ضد ظلم الشيوخ الاقطاعيين والملاكين (إلا ان السلطة تمكنت من اخمادها بعد ان استعملت الطائرات في شل حركتها)[43]، بعد ذلك، قامت ثورة العشرين التي وان كانت قد بدأت ثم انتهت تحت قيادة بعض الشيوخ ورجال الدين ومثقفي المدن، إلا ان الواقع يقول بان الفلاحين قد مارسوا فيها ثورتهم التي طالما حلموا بها، الامر الذي ازعج الاقطاعيين والكومبرادور الكبار وحتى بعض قيادات الثورة ازعاجاً شديداً ودفعهم اكثر من مرة الى ادانة التمرد المسلح واستنكاره. واذا كانت هناك ثمة نتيجة أو تأثير على الفلاحين فان ثورة العشرين كانت قد ارست التقاليد التاريخية لاستعمال العنف المسلح من قبل الفلاحين، اذ انها قد اشعرت الفلاحين انهم خسروا الجولة في الحصول على الارض رغم النصر الذي حققوه ضد الاستعمار البريطاني المباشر! فالثورة لم تخفف من الحقد الطبقي ضد الاقطاع، وادرك الفلاحون ان عليهم مواصلة الكفاح وان ثورة اخرى بانتظارهم يجب ان يخوضوها ضد الحكم الجائر وضد الاقطاع.

وسرعان ما بدأت انتفاضات الفلاحين في الشمال والجنوب على طول فترة العشرينات. وكانت انتفاضة «آل عايد» الفلاحية في اوائل الثلاثينات ذات مضمون طبقي واضح اتجهت ضد الاقطاعيين والحكومة المحلية على الرغم من ان السلطات اغرقتها بالدماء[44].

ان سياسة السلب والنهب التي مارستها الدولة العثمانية ومن بعدها الاحتلال البريطاني والحكم الموالي له ضد الفلاحين العراقيين قد كلفتهم كثيراً من الدماء والويلات والخراب وسرقت كدحهم وجهدهم واعاقت تطورهم الاجتماعي والاقتصادي. كما ان السيطرة الاجنبية المزمنة قد اوجدت من جانب آخر لدى جماهير الفلاحين، عبر مختلف اشكال نضالهم الطويل، تقاليد ثورية عميقة وراسخة في المعارك الطبقية والوطنية التي خاضوها ضد الانكليز في فترتي الاحتلال والانتداب وضد الاقطاعيين.

بعد نهاية الانتداب وحصول العراق على الاستقلال الشكلي استمر كفاح الفلاحين من أجل الأرض وضد استغلال وجور الفلاحين الإقطاعيين المدعومين من السلطة الملكية التابعة، وتكررت الانتفاضات الفلاحية حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وقد أيدها كادحو الريف بكل حماس خاصة مع المشروع باستعادة الدولة لجزء من أراضيها من كبار الملاكين وتوزيعها على فقراء الفلاحين بموجب أول قانون للإصلاح الزراعي صدر في خريف ١٩٥٨، وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الكفاح الفلاحي..

الهوامش

(١) ل. ن. كوتلوف «ثورة العشرين التحررية في العراق» ترجمة الدكتور عبد الواحد كرم مطبعة اوفسيت الديواني. بغداد، ١٩٨٥، ص ٧٣، ٧٤.

(٢) نفس المصدر. ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) نفس المصدر. ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٤) حسين الجليلي ـ الاستعمار واعمال السخرة. ثقافة ـ العدد (٥) لشهر مايس السنة ١٩٨٠. ص ٦٧. الهامش.

(٥) زكي خيري: الحزب الشيوعي العراقي والمسألة الزراعية، ملاحظات اولية عن الاصلاح الزراعي المنشود في العراق. مطبعة الشعب. بغداد ١٩٧٤. ص ٤٢.

(٦) م. ط. الاصل التاريخي لعلاقات الدولة بالارض والازدواجية في ملكية الاراضي في وادي الرافدين. ث. ج العدد ١٧، ١٨ السنة ١٩٧٠ ص ٢٧.

(٧) ايرلاند. فيليب ميلارد. (العراق، دراسة في تطوره السياسي). ترجمة جعفر الخياط دار الكشاف للنشر والمطبوعات والتوزيع. بيروت. ص ٥٧.

(٨) لونغريغ. (اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر الخياط. ط ٣ مطبعة البرهان. بغداد ١٩٦٢. ص ٣٦٩.

(٩) لطفي جعفر فرج (عبد المحسن السعدون) منشورات وزارة الثقافة والفنون في الجمهورية العراقية، سلسلة الاعلام والمشهورين. ١٩٧٨. ص ٢٥.

(١٠) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ٦٤.

(١١) لوتسكي (تاريخ الاقطار العربية الحديث) دار التقدم، موسكو ١٩٧١. دار الفارابي، بيروت. ص ١٦.

(١٢) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ٤٩.

(١٣) المصدر السابق. ص ٧٥.

(١٤) لوتسكي. نفس المصدر السابق. ص ٢٨.

(١٥) د. محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي في العراق) ج ١. المكتبة العصرية. بيروت. ص ٢.

(١٦) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ٧٧.

(١٧) لوتسكي. نفس المصدر السابق. ص ١٦.

(١٨) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ٥٤.

(١٩) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ٥٦.

(٢٠) نفس المصدر. ص ٥٧.

(٢١) نفس المصدر. ص ٥٥.

(٢٢) نفس المصدر. ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢٣) ل. ن. كوتلوف (الانتفاضة الوطنية ـ التحررية لعام ١٩٢٠ في العراق) موسكو ١٩٥٨. عن: د. كمال مظهر احمد ثورة العشرين في الاستشراق السوفييتي، مطبعة الزمان. بغداد ١٩٧٧.
(٢٤) نفس المصدر. ص ١٠٢.
(٢٥) مس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر الخياط. بيروت. ١٩٧١. ص ٢.
(٢٦) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ١٢٠.
(٢٧) مس بيل. نفس المصدر السابق. ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٢٨) مس بيل. نفس المصدر السابق. ص ٦٩.
(٢٩) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ٢٦٧.
(٣٠) نفس المصدر. ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٣١) عبد الرزاق الحسيني. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الثالث. الطبعة الثالثة ص ٣٠٠ ـ ٣٠٧.
(٣٢) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ١٢١ ـ ١٢٢.
(٣٣) نفس المصدر السابق. ص ١٢٧.
(٣٤) زكي خيري. المصدر السابق. ص ٤٤.
(٣٥) د. كمال محمد سعيد الخياط (مجلة الاقتصادي) العدد ٢ حزيران ١٩٧٠. التطور التاريخي لحيازة الارض وعلاقات الملكية في العراق.
(٣٦) محمد توفيق حسين. نهاية الاقطاع في العراق. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥٨. ص ١١٣.
(٣٧) «يرى عبد الرزاق الظاهر في كتابه (الاقطاع والديوان) ص ٢٠، ان الغرض من هذا القانون كان خلق صلة بين الفلاح والارض بحيث يصبح الفلاح (قنا) أو (ربيطة) في الارض كما انه يرى بحق ايضاً، ان هذا القانون كان جزءاً من سياسة عامة لغرض انشاء ما يسميه (اقطاعية الافندية)» عن ابراهيم كبة. (الاقطاع في العراق). مطبعة المعارف. بغداد. ١٩٥٧. ص ٢٣.
(٣٨) نفس المصدر السابق. ص ١١.
(٣٩) ابراهيم كبة. نفس المصدر السابق. ص ١٢.
(٤٠) علي الوردي (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق (الحديث) الجزء (٦) مطبعة بغداد. ص ١٥٠ ـ ١٥١. عن عزيز الحاج (القضية الكردية في العراق). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٨٤. ص ٦٣.
(٤١) محمد توفيق حسين. نهاية الاقطاع في العراق. نفس المصدر السابق. ص ٢٨ ـ ٢٩.
(٤٢) حسين الجليلي. العمل الجماعي والسخرة في العهد العثماني. مجلة الثقافة. العدد (٦) السنة ١٩٨٠. ص ٣٤.
(٤٣) عماد احمد الجواهري. تاريخ مشكلة الارض في العراق ١٩١٤ ـ ١٩٣٢. منشورات وزارة الثقافة والفنون في الجمهورية العراقية. سلسلة الدراسات ١٨٢. بغداد ١٩٧٨. ص ٤١.
(٤٤) حسين الجليلي. نفس المصدر السابق. ص ٣٦.
(٤٥) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ١٠٨.
(٤٦) كوتلوف. نفس المصدر السابق. ص ١٠٩.
(٤٧) عماد احمد الجواهري. نفس المصدر السابق. ص ٣٦٤.

(٤٨) حسين الجليلي. (العمل الجماعي واعمال السخرة في العراق). الجزء الثاني. العدد (٩) السنة ١٩٨٠. مجلة الثقافة. ص ٢٧.

(٤٩) د. محمد سلمان حسن. (التطور الاقتصادي في العراق) الجزء الاول. المكتبة العصرية. صيدا - بيروت. ص ١٩٠.

(٥٠) علي علي منهل. (حركة التحرر الوطني العراقي من سبعينات القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الاولى). مجلة الثقافة. العدد (٧) آب ١٩٧٠. ص ١٩.

(٥١) لوتسكي. نفس المصدر السابق. ص ٣٩٨.

(٥٢) علي علي منهل. نفس المصدر السابق. ص ٢١.

(٥٣) حسين الجليلي. (اعمال السخرة والتمردات الفلاحية في العصر العثماني. القسم الثاني). مجلة الثقافة العدد (١٠) تشرين الاول ١٩٨٠. ص ٢٥.

(٥٤) ز. خ. (ح ش) والمسألة الزراعية). المصدر السابق. ص ١٦٣ - ١٦٤.

تعالوا نحدد المفاهيم قبل ان نبدأ المساجلة، ولتكن الدقة أول الحوار

- حيدر ابراهيم علي*

يتسم الفكر العربي المعاصر بقدر كبير من عدم الدقة في تحديد المفاهيم،قبل مناقشة اي قضية أو موضوع. فمن الغريب أن يدور حوار أو نقاش لمدة سنوات دون الاتفاق على حد أدنى على تعريف المفاهيم المكونة لهذه القضية أو تلك. وهذا مايجعل النقاش في أغلب الأحيان أقرب إلى المغالطات الصريحة والجدال السجالي العقيم. فآلية عدم تحديد المفاهيم/المقصود بها عند الاسلاميين السياسيين تسويق وترويج بعض الأفكار دون التوقف عند مدلولاتها، تُوظّف فقط لانها الأكثر إثارة لاإقناعاً ومعقولية. ويتعامل الإسلاميون ـ السياسيون مع المفاهيم بإزدواجية وبإنتقائية واضحة، فنرى جماعاتهم احياناً تهاجم المفاهيم والمصطلحات باعتبارها دخيلة ومغربّة وعدائية، وأحياناً أخرى تتبنى هذه المفاهيم دون اي نقد وفحص، ولا تحاول أن تستخرج مفاهيم أصيلة. على سبيل المثال لماذا تهاجم مفهوم أو مصطلح الأصولية، حين تسمّى به، وتتبنى بشدة مفهوم العلمانية الذي تدينه، على رغم أصولهما المشتركة.

لايهتم الإسلاميون ـ السياسيون بدقة وصحة المفاهيم التي يستعملونها لانها مطلوبة من أجل مهام سياسية فقط،ويستعملون هذه المفاهيم كسياسيين وليس كمفكرين أو علماء. لذلك يغطي غبار السياسة وضباب الايديولوجيا على كل علم أو معرفة صحيحة. ويتعمد الإسلاميون ـ السياسيون، حتى الأكاديميون منهم، تعتيم المفاهيم والمعاني وبالتالي تزييف الوعي بهدف سحب تأييد الجماهير للقوى الأخرى/بغضّ النظر عن الأسلوب والطريقة والقيم والمبادىء التي تكمن وراء عملية تجييش وتعبئة الشارع وتحريك ورص الجماهير. لذلك وُصف

(*) باحث سوداني مقيم في المغرب.

الخصوم بالعلمانية ثم تم تفسير العلمانية بأنها الإلحاد والابتعاد عن الدين ومحاربته.

هذا نموذج جيد للخلط سيء النية بين الدين والسياسة، أي تصنيف كل خصوم الجماعات الدينية السياسية بأنهم علمانيون. ولو كان أهل الإسلام السياسي يتعاملون مع الدين حقيقةً لفضلوا مصطلح الزندقة مثلاً،لأنه أكثر اصولية وارتباطاً بالتاريخ الإسلامي، ولكن كلمة الزندقة لايمكن أن توظف في الصراع السياسي، لانها ليست مشحونة بالإيحاءات والظلال التي تحملها كلمة العلمانية. حتى في نقاشات الاصلاحيين استخدموا مصطلح «الدهريين» لمناقشة افكار الوضعيين والطبيعيين» السبب في هذا الاختيار ان أساس النقاش فكري وليس سياسياً.

كان الفقهاء والمفكرون المسلمون في فترة النهضة الإسلامية والصحوة الحقيقة يهتمون بالفكر والمعرفة، ويقول المستشرق روزنتال أن التعريفات والمصطلحات كانت من موضوعات النقاش المحببة لدى المفكرين الذين نشأوا في ظل تقليدين أحدهما عربي وثانيهما فلسفي أرسطي. وبالفعل تشتمل كتب تلك الفترة على سجالات عميقة حول الدال والمدلول واللفظ والتصور والمعنى والاسم والمسمى والتسمية أو الأسماء والصفات. ونجد عند التهانوي «كشاف اصطلاحات الفنون» وعند الجرجاني كتاب التعريفات مثلاً. أما اليوم، وعلى رغم التطور العلمي والفكري الذي يجتاح اركان المعمورة، ومع كل هذا الحديث عن الصحوة الإسلامية وانتشارها بين المثقفين، فإن الكتابات في الصحف أو الكتب تخلو من أي احترام حقيقي للعقل والمعرفة، إذ غالباً ماندخل في النقاش دون أي تحديد لموضوع النقاش ولهذا تغيب القضايا الجوهرية. وهذه ايضاً آلية مفيدة في تزييف الوعي اي جر النقاش إلى الهامشي والجانبي. فقد يكون النقاش حول الانقضاض على الديموقراطية في قطر ما عن طريق الانقلاب العسكري، وإذا به يتحول إلى أن النخبة العلمانية كانت بعيدة عن الخيار الحضاري، ثم ينقل النقاش أو السجال إلى مجال آخر هو الدفاع أو الهجوم على دور النخبة. وتبدأ عملية تبرير الواقع عوضاً عن التفسير والتعليل. والأهم من ذلك انّ الهدف من مثل هذه السجالات هو تعميمي وخلق الخصم أو المعارض بالصورة التي تسمح باستعمال ترسانة الهجوم على الآخر. ومثال العلمانية خير مثال حيث تلصق على الآخر صفة العلمانية سواء كانت الدولة أو المؤسسات أو السياسيين ويبدأ الهجوم على العلمانية قبل إثبات صفة العلمانية على هذا الشخص أو الدولة أو المؤسسة.

لقد نجح الإسلاميون ـ السياسيون في ترويج وتسويق فكرة وجود دولة عربية علمانية ومؤسسات وتيارات ومدارس فكرية علمانية فضلاً عن كتّاب ومفكرين علمانيين. وقد بنت الحركة الإسلامية السياسية صرح عملها الفكري والسياسي على هذا الأساس الوحيد. وهي هنا بالضبط تخلق الخصم وتحاربه لأن السؤال هو: هل توجد أصلاً علمانية في المجتمعات العربية لكي تحاربها هذه الحركة ولكي تقيم مجدها المقبل على القضاء على العلمانية؟ من المؤسف أن الأطراف الأخرى دخلت لعبة تسمية نفسها أو بعضها بهذا الاسم الخيالي. والسبب في هذا

الخلط عدم تحديد مفهوم العلمانية في أي نقاش، فلم يتبلور ـ رغم هذا الاستعمال ـ أي معنى دقيق وشامل ومقبول للعلمانية. فهي عند الشيخ القرضاوي مروق من الدين، وعند الشيخ محمد مهدي شمس الدين نهج حياتي مادي تكون نتيجة لنمو الفلسفات المادية اللادينية. وقول سعد الدين صالح عميد كلية أصول الدين والدعوة في الزقازيق: «إن العلمانية لاتصلح للمجتمع الإسلامي لأنها مخالفة لدستور الأمة وشرعها، فالعلمانية هي وضع الدين في مواجهة العلم وإذا كانت قد صلحت مع النصرانية فهذا لأنها دعوة تطهيرية فقط». أما أبو الأعلى المودودي فيرى انها تعني اللادينية و «إن لاعلاقة للدين بالمبدأ الأول ولا لإلهه ولا لتعاليمه بشؤون الإنسان السياسية والإجتماعية، وأن الامر في شؤون الدنيا ومعاملاتها كلها لايرجع إلا إلى الناس انفسهم، فهم الذين يسيرون على مشيئتهم ويضعون لتسييرها المبادىء والقوانين والنظريات والمناهج، ولاحق لله أن يتدخل في هذه الشؤون ولاحاجة بنا إلى أن نسأله عما يحبه أو لايحبه». اما محمد عمارة والذي ألف كتابه بعنوان «العلمانية ونهضتنا الحديثة» فلم يقدم تعريفاً دقيقاً واكتفى بالرجوع إلى معجم مدرسي عربي، لذلك اكتفى بالقول: «لقد نشأت العلمانية وصيغت كمقابل للمقدس بمعناه الكنسي اللاهوتي الكاثوليكي وليس بمعنى المقابل للدنس وكمقابل لخارق الطبيعة والتقليدي الجامد الذي لايراعي النفع وينكر التغير والتجديد».

يظهر بوضوح تام عدم الاتفاق حول معنى العلمانية بين الإسلاميين عموماً، ولكن على رغم ذلك يقوم الصراع الحالي كله حول محاربة هذا الشبح. هذا على مستوى المعنى العام المجرد،اما لو أعتبرنا أن لكل مفهوم سياقاً تاريخياً ومكانياً محدداًفالعلمانية لاتعني بالضرورة، إذا ما وجدت، غياب أو حضور الإيمان أو التناقض بين الإيمان والإلحاد. فهناك علمانيات منها الفكرية والسياسية والفلسفية والعلمية، لذلك لم تتعدَ العلمانية في كثير من الأحيان حدود الفصل بين الكنيسة كمؤسسة والدولة، أو الفصل بين الكنيسة ومؤسسات البحث والتعليم، أو وضع العلم خارج الكنيسة (المعرفة الوضعية). كذلك هناك فرق بين العلمانية واللائكية على رغم الاستعمال المتداخل للكلمتين، وهنا تعني العامة أو الشعب وكأنها تعين حق الجميع في الوصول إلى المقدس ولاتعني غير المقدس أو المدنس. وكان للمصطلح استعمالات عدة متباينة. فقد كان استعمال الفرنسي لونكوفيل خلال المحادثات التي أدت إلى معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ يهدف إلى البحث عن مصطلح لجعل المناطق الاكليروسية التي أضيفت على براندبيرغ غير دينية لما يمكن من الاعتراف بأحقيتها أو من إنكار ذلك. وفي بريطانيا ارتبط برنامج هوليويك عام ١٨٤٦ والذي يطالب بسياسة تحرر الدنيوي من ارتباطه بقيود الكنيسة. أما في الولايات المتحدة فظهر خلال هذا القرن الحاد عملي وليس فكرياً، بمعنى السلوك.

وعلى ضوء هذه النسبية(مثل نسبة التردد على الكنيسة وأداء الصلوات)في فهم العلمانية ونشأتها وتطورها، يصعب القول بوجود علمانية في المجتمعات العربية على مستوى الدولة أو الافراد. لذلك تسمى خطأ الدعوة إلى الديموقراطية وحق المواطنة المدني بالعلمانية.

كذلك تمر المجتمعات العربية بعمليات تحديث وليس حداثة بالمعنى الفكري والعلمي

والسلوكي. والمقصود بذلك إدخال وسائل وأدوات المجتمعات الحديثة إلى المجتمعات العربية مع استبعاد الأسس الفكرية والعلمية والعقلية والأخلاقية التي قامت عليها هذه المنتجات المادية النفعية. يشترك في التعرض لتاثير هذه العملية الشاملة أغلب الناس في المجتمعات العربية، والاسلاميون ليسوا استثناءً. لذلك يفضل الإسلاميون مفهوم العلمانية لتصنيف شركائهم المخالفين لآرائهم، فالجميع شركاء أو موضوعات لعملية التحديث الراهنة. وقد استبدل الإسلاميون تسمية التحديث بالعلمانية بقصد نقل المحمولات القدحية لهذه الكلمة بالذات إلى العامة والجمهور العادي، وفي الوقت نفسه تغطية «علمانية» الإسلاميين لو كانت مرتبطة بالدين والإيمان. فهناك كلمات أكثر تعبيراً مثل: كافر، ملحد، منافق، منكر، متشكك أو شاك. وبالفعل يكتب الشيخ أحمد عبد الرحمن عن المنافقين بينما يسميهم العلمانيين، إذ يقول: «حين يتبع الكاتب منهج التحايل والخداع او منهج التلبيس، الذي أشار إليه القرآن الكريم، والذي مارسه اليهود المنافقون في صدر الدعوة الإسلامية.. حينئذ يفتح المسلم قلبه وعقله للكاتب العلماني المدعو «عبد الرحمن» أو «محيي الدين» أو غير ذلك من الأسماء الإسلامية ويتجرع الوجبة العلمانية السامة دون حذر أو تدقيق». (كتاب أساطير المعاصرين ص٨٠). ويكشف هذا الحديث عن عدم وجود علمانيين يعلنون عن علمانيتهم، لو فرضنا أنها تعني الالحاد، لذلك يلجأ من يسمى علمانياً إلى التقية أو «النفاق». هذا دليل مباشر على ان هذا السجال كله هو حديث عن علمانية دون علمانيين، لأن المطلوب مناقشة الإنتاج الفكري لهؤلاء العلمانيين الوهميين والذي يعبرون فيه بوضوح عن الافكار التي ينسبها إليهم الاسلاميون السياسيون مثل الدعوة إلى الإلحاد. لايوجد مفكر أو كاتب عربي تجرأ على كتابة حرف واحد يدعو إلى الإلحاد أو يناقش أصول وأسس الدين. حتى الكتّاب والكتب الثلاثة التي أثارت الضجيج في تاريخ الفكر العربي الحديث،وأعني طه حسين وكتابه وعلي عبد الرزاق وكتابه وصادق جلال العظم وكتابه؛ فهذه الكتب عالجت الشعر والسياسة والفكر أو التفكير في المجتمع الإسلامي ولم تقترب ابداً من أي مناقشة للعقيدة والإيمان. وعالجت مايُختلف حوله في التديُّن وليس في الدين. والفرق كبير لمن يريد أن يرى الفرق. أما الأسماء التي تحشد ضمن العلمانيين؛مثل زكي نجيب محمود وفؤاد زكريا ومحمود أمين العالم ولويس عوض وأدونيس وغيرهم؛فهم لم يذكروا الدين في كتاباتهم التي اقتصرت على الدعوة إلى الحداثة أو حتى التغريب، ولكنها لم تقرب العقيدة مطلقاً. فهم ليسوا مثل الموسوعيين أو التنويريين في فرنسا ماقبل الثورة. وكان الصوت النشاز طوال التاريخ العربي الحديث هو إسماعيل ادهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) الذي كتب في مجلة «الإمام» عام ١٩٣٧ مقالاً بعنوان: «لماذا انا ملحد؟».وكان في الحقيقة موضوعاً في الرياضيات وقانون الاحتمالات أكثر منه مناقشة فلسفية عميقة للفكر الالحادي.

أردت الوصول إلى أن العلمانية كتيار فكري لاوجود لها في الواقع إلا إذا كان المقصود الدعوة إلى حق المواطنة بمعنى المساواة بين المواطنين دون أي اعتبار للفروق غير الزمنية، بالإضافة إلى ضرورة الدولة الوطنية حيث يكون الولاء للوطن. ومن هنا تم النظر إلى شعار

«الدين لله والوطن للجميع»، الذي قد يكون علمانية سياسية فقط، بوصفه دعوة ضد الدين على رغم الموقف الواضح في احترام الدين وعدم الزج به في الصراعات السياسية والقومية. كذلك لم تتعد فكرة العلمانية عند الكثيرين حدود تمجيد إعمال العقل والاحتفاء بالشجاعة الفكرية لدى بعض الشخصيات التاريخية، وصولاً إلى اعتبار العقل والعلم مقياس التقدم.

وأرجو أن يأتيني أي قارىء أو باحث بنص أو فكرة صريحة تدعو إلى العلمانية بمعنى الإلحاد أو تمس بأسس الدين. حتى فرج فودة الذي حظي أكثر من غيره بصفة «العلماني» لاتخلو كتابته ذات الطابع السجالي من مراجع ومصادر دينية أصيلة، ما يؤكد أنه كان يناقش الافكار المتداولة الآن في الساحة السياسية. وهذا يعني أن النقاش كان مع اسلاميين معاصريين وليس مع الإسلام كدين. ففودة لم يقترب من الخط الاحمر بل كان يردد أن ماتفعله الجماعات الدينية هو ضد الإسلام الصحيح. لقد كان هذا «العلماني» مدافعاً عن الدين كما يفهمه وحسب أصول يرى أن لها الأولوية، أي السلوك والأخلاق قبل السياسة والحكم.

أما فيما يخص علمانية الدولة فقد درج الباحثون والكتاب على اعتبار الدولة الوطنية العربية الحديثة علمانية لأنها خالفت الدولة العثمانية، كما أنها تبنت النموذج الغربي حسب قولهم. كذلك فتوجهها القومي يناقض التوجه الإسلامي للخلافة في الماضي. ومثل هذا الفهم للدولة العربية الحديثة «العلمانية» يختزل مفهوم العلمانية إلى وجود نظام بيروقراطي جديد في الإدارة مع نظام تعليمي مدني مقابل المؤسسات التقليدية السابقة مثل المعاهد الدينية والكتاتيب، بالإضافة إلى ظهور إقتصاد قائم على تصدير المواد الأولوية واستيراد السلع الاستهلاكية والمصنعة من الخارج. وقد تشهد بعض هذه المجتمعات قدراً من مشاركة النساء في الحياة العامة.

وحسب هذا الفهم تختلط مصطلحات مثل التحديث والتغريب والنمو بمفهوم العلمنة والعلمانية الشامل والذي يحاول في مجال السياسة أن يعين حدود الدين والدولة في المجتمع. وهناك من يتحدث عن علمنة الدولة التي بدأت مع محمد علي. ويقصد بعلمنة مؤسسات الدولة الموقف من نظم التعليم والصناعات الغربية وإرسال البعثات العلمية إلى اوروبا والاهتمام بمكونات الدولة الحديثة من جيش وأسطول وزراعة وتجارة. وهذه تحولات جديدة لكنها ليست بداية للعلمانية على رغم انها أثارت إشكالية العلاقة بين الدين والدولة، وذلك أن بلدان المشرق العربي حتى عام ١٧٩٨ كانت تعتبر كيانات إسلامية من حيث النظم والشرائع والتقاليد. وقد أدخلت الحملة الفرنسية وماتبعها من استعمار غربي نماذج جديدة للتفكير والسلوك والنظم الغربية، ولكن هذه الوضعية لايمكن أن نطلق عليها بأي حال من الأحوال صفة العلمانية حسب المعنى العلمي الدقيق لاالمعنى الايديولوجي السياسي.

ظلت الدولة العربية انتقالية، وفي حالة تكَون، ولذلك تعايشت فيها التناقضات. وأي صراع فيها كان يرتدي أقنعة كثيرة متغيرة ومتداخلة.فقد يتمظهر الصراع الطبقي مثلاً في شكل صراع أو تناقض عرقي أو أثني،وقد يروّج للصراعات السياسية بأنها دينية أو طائفية.

واستطاعت الحركات الدينية السياسية ان تسوّق فكرة العلمانية لكي يبدو صراعها السياسي وكأنه معركة بين الكفر والإيمان، أو الإلحاد والدين. وإطلاق صفة العلمانية على الدولة العربية الحديثة فيه كثير من التعسف وعدم الدقة والتعميم المتسرع، كذلك لايخلو من سوء النية والغرض، لأنه من الصعب أن تلصق هذه الصفة على هذه الدولة العربية التي ينقصها التاريخ المشتمل الموحد، مثل الدولة الاوربية الحديثة، وكذلك عصر التنوير والاصلاح الديني والثورة الصناعية والعلمية والكشوف الجغرافية والتوسع الاستعماري والبورجوازية الصاعدة والمستقلة، والثورات السياسية مثل الانكليزية والفرنسية وحروب التوحيد. فالعلمانية ليست سلعة تستورد أو سكة حديد تبنى. والدولة العربية «الحديثة» هي في جوهرها امتداد للماضي لأنها ورثت الكثير من الخلافة الإسلامية وماقبلها واستمرت معها المؤسسات والقيم التقليدية، لكنها دمجت سطحياً في مؤسسات حديثة. فعلى سبيل المثال تم تقسيم الوزارات والمصالح الحكومية بشكل جديد، لكن أجهزة الدولة لم تتميز بالعقلانية والحداثة واستمر وجود ثنائية متعارضة تحاول التوازن والتوفيق.

لقد بدأ اتهام الدولة العربية الحديثة بالعلمانية (وقد تُقرأ: الجاهلية) مع صراع الدولة الناصرية والاخوان المسلمين للمرة الثانية في منتصف الستينات. ويصر البعض، بمن فيهم الإسلاميون المعتدلون، على وصف الناصرية بالعلمانية على رغم محاولات نفي ذلك وهي كثيرة. ويقول عبد الله النفيسي: «ورغم كل تحفظات قيادة الدولة في مصر وحذرها مما أسمته استيراد الافكار وحرصها وحرص دعاتها على الترويج لما سمي بالنظم المنبثقة عن واقع المجتمع وتاريخه، رغم ذلك فقد غلب الطابع العلماني في صياغة مجمل الأفكار والمؤسسات والنظم ورؤى المستقبل واكتسب المثال الغربي قدراً كبيراً من السيادة في القيم السياسية وفي العادات واساليب العيش». ثم امتد هجوم حركات الاسلام السياسي ليشمل، الى جانب الناصرية، التجارب البعثية في سورية والعراق والبورقيبية في تونس وجبهة التحرير الوطني في الجزائر بالإضافة إلى اليمن الجنوبي قبل الوحدة وليبيا القذافي. وهذه التجارب على رغم اختلاف منطلقاتها الفكرية وأشكالها التنظيمية تلتقي في كونها محاولات بحث عن دور جديد وفعال للدولة وأحياناً الحزب الواحد أو للاثنين معاً، طارحة شعارات التنمية والوحدة والتحرير القومي. ومن هنا دخلت هذه الدول في معارك مع التيارات الدينية ـ السياسية التي عارضت المشروع القومي في ظل اتهامات عديدة اهمها الابتعاد عن الدين وعدم تطبيق الشريعة الإسلامية. ودرجت الحركة الإسلامية السياسية على دمغ النظم القومية بصفة الطاغوت واعتبار الفكر القومي مؤامرة يقوم بها المسيحيون العرب والمستغربون وأخيراً ربطت الفكر القومي بالعلمانية.

سنركز على التجربة الناصرية التي وُجّه إليها أكثر الاتهامات ودخلت في صراع دموي مع الإسلاميين، لإثبات أن صفة العلمانية لاتنطبق عليها بأي حال من الأحوال. ويمكن أن يعمم هذا على بقية الدول العربية. نجد في دراسة عن الناصرية مايلي: «لقد كانت المسألة الدينية من

أولى القضايا التي حدد عبد الناصر موقفه منها منذ بداية الثورة. ولم تتعرض كغيرها للتطور والتغير من الناحية النظرية والمنهجية، وإن كانت وسائل تطبيقها قد تغيرت وتبدلت وفقاً لاتجاهات التطور الإجتماعي والسياسي في مصر في الفترة مابين عامي ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ (رباب الحسيني)،وحاولت الناصرية أن تستغل/ توظف الدين في التعبئة السياسية وإعطاء شرعية للنظام وإحتواء الصراع الإجتماعي والوطني من خلال دعوة إشتراكية الإسلام أو الاشتراكية المسلمة مقابل الاشتراكية المادية أو الملحدة، وفي الوقت نفسه كمحاولة مضادة لتجاوز مشروع الإخوان المسلمين من جهة أخرى. ويرى محمد عمارة: «أن المشروع القومي الناصري خطوة هامة من الناحية الموضوعية نحو اسلمة الحياة والنهضة في عالم الإسلام... ومن هنا جاءت مواجهة الغرب لهذا المشروع على نفس المستوى الذي واجه به المشاريع النهضوية التي سبقته» (العلمانية ونهضتنا الحديثة، ص١٩٢).

لو تحلت حركة الإسلام السياسي بقدر من الموضوعية والانصاف لوجدت أن سجل عبد الناصر على مستوى الانجاز والانتشار الديني يمكن أن يضاهي سجل اي سلطة دينية لو قدرلها ان تصل إلى الحكم. فقد قام عبد الناصر بتطوير وتنظيم الأزهر حسب القانون ٦٠٣ لعام ١٩٦١ . وتم تأسيس المؤتمر الإسلامي عام ١٩٥٤ والمجلس الاعلى للشؤون الإسلامية عام ١٩٦٠ ، وتم تجميع الطرق الصوفية التي بلغت آنذاك ٦٠ طريقة ضمت ثلاثة ملايين مواطناً عام ١٩٦٣ . وصدرت مجلة «منبر الإسلام» باللغات العربية والانكليزية والفرنسية والاسبانية. كذلك صدرت مجلة: «الاسلام والتصوف» بالإضافة إلى سلسلة شهرية للكتب الإسلامية. وافتتحت محطة خاصة بالقرآن الكريم تبث ١٤ ساعة يومياً. وفي حزيران (يونيو) ١٩٦٠ تم توزيع أربعة ملايين نسخة من المطبوعات على العالم الإسلامي. وفي ميدان التعليم زاد الاهتمام بالتعليم الديني داخل المدارس المدنية كما تم إنشاء معاهد دينية جديدة وإلغاء قيود وظائف الوعاظ والمراقبين والمدرسين وزيادة ميزانية الأزهر. ومن الجدير بالذكر أن رواية: «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ منعت خلال هذه العهد «العلماني» بضغط من المؤسسة الدينية.

وأخيراً، كثيراً مايطالب الإسلاميون بالموضوعية والعلمية والدقة وعدم ظلم الآخرين، فهل نبدأ بتحديد العلمانية وغيرها من المصطلحات ـ المفاهيم؟ أعتقد أن هذه بداية حوار بعيد عن التراشق اللفظي والتنابز بالالقاب وصيحات الحرب واللغة الملونة. ويمكن أن يبدأ المثقفون من التيارات كلها حواراً هادئاً وعميقاً يتجاوز هذا الزبد الذي يملأ الساحة الفكرية والسياسية.



درس ابن رشد

الزواوي بغورة

«ومن العدل ان يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي لنفسه، اعني ان يجهد نفسه في طلب الحجج لخصومه كما يجهد نفسه في طلب الحجج لمذهبه، وان يقبل لهم من الحجج النوع الذي يقبله لنفسه» ابن رشد: تهافت التهافت.

أولاً ـ عن غياب العقل

اعتقد ان أي متأمل في التاريخ الجزائري، قديمه وحديثه، إلا ويكون قد طرح على نفسه هذا السؤال ـ ولو بشكل ابتدائي ـ وهو لماذا يظهر التاريخ الجزائري وكأنه تاريخاً لغياب الفكر والمفكرين؟ ذلك لان النظرة البسيطة تؤكد الغياب، فلا نجد مثلاً، اسماء لامعة أو اعمالاً اساسية، طبعت الفكر البشري، واغنت التاريخ العالمي، مثلما نجد ذلك في تاريخ المجتمعات البشرية.

ولكن ما ان يتجاوز المرء هذه النظرة البسيطة والاولية، حتى يبدأ في الكشف عن لعبة التغييب وآلياته، ويصطدم بحجم الجهل والتجهيل الذي مورس عليه. ان حجم هذا التجهيل ليدعو الى الدهشة. والملامح الاولية لا تكفي لرصده. فمثلاً التاريخ الوطني كله يختزل في التاريخ الاسلامي والتاريخ الاسلامي ذاته يختزل في تاريخ المقاومة الوطنية،

وتـاريخ المقاومة الوطنية يتوقف على تاريخ الثورة التحريرية، وتاريخ الثورة التحريرية يختصر في لوائح وتوجيهات حزب الثورة التحريرية.

ان هذا النهج، نهج التغييب، لا يتوقف على تغييب التاريخ والذاكرة، ولا على التغييب الفكري، بل وعلى تضبيع الذات واستلابها. وعليه فان السؤال عن غياب العقل هو جزء من سؤالٍ يتناول الكيان الوجودي للذات الجزائرية. والجهل بالاسماء والاعمال في التاريخ هو مجرد ظاهرة، تخفي واقعاً اساسياً، هو ما سميناه بتغييب العقل، أي تغييب ليس فقط الشواهد، الاثر، بل الآليات التي تتحكم في التاريخ. إذ كيف نفسر مثلاً قيام دولة تسمي نفسها «دولة اشتراكية على الطريقة الجزائرية» بدون فكر اشتراكي؟ وبدون فكر علمي؟ وكيف نفسـر قيام دولـة وطنية، بدون مشروع وطني للثقافة الوطنية؟ كيف نفسر يسـارية حكم في ظل غياب فكـر يسـاري؟ بل وكيف نفسر هذه المفارقة: نظام يدعي الاشتـراكية، ويؤسس لنقيضـه فكـرياً وعملياً. فهل مجلة كمجلة «الاصالة» وملتقيات، كملتقيات «الفكر الاسلامي» تؤسس الفكر العلمي، أو تساهم في عقلنة التاريخ وادراك آلياته؟ ولو فرضنا ـ جدلاً ـ ان مثل هذه الخطوات، أساسية في استرجاع الهوية الوطنية، فهل هي كافية وقادرة ان تحل محل المجلة النظرية، والملتقيات الفكرية الحرة والعلمية؟ وطبعاً، دون ان نشير الى المنظومة التربوية ووضعية العلوم الانسانية، ووضعية الفلسفة، وهي وضعية هامشية، ومهمشـة،فلو اشـرنا مثلاً، الى الفلسفة، باعتبارها ـ علم العقل ـ للاحظنا انها تأسست في أواخر الستينات، بعد تعريبها ثم جزأرتها، وادلجتها بشكل سافر، ادلجة مشحونة بنزعة اسلاموية تخطيطية، وتبسيطية، افقدت النزعة السلفية، ذاتها، كل ابعـادهـا التـاريخية والمعـرفية. فتحولت بذلك، أي الفلسفة، الى مجال للامتيازات، والمناصب، والتوظيف الايديولوجي السافر. هذه الادلجة انعكست في شكل عجز كلي للانتاج الفكري الرصين.

فالانتاج الفكري ـ ان صح نعته بهذا الاسم ـ لهذه المرحلة، لا يتعدي مجموعة من الاعمـال قدمت اساساً لنيل شهادات جامعية. فحتى جريدة (النصر) في احد اعدادها اشـارت الى هذه الـوضعية ـ الكارثة، وكتبت ان الانتاج الفلسفي في الجزائر، من سنة ١٩٦٧ الى غاية سنة ١٩٨٧ لم يتجاوز سبعة عشر كتاباً كلها رسائل جامعية أو دراسات تاريخية. فهـل بعد هذه الملامح الاولية، والبسيطة جداً، يمكن الكلام عن العقل في الجزائر، وعن الانتاج العقلي؟ أم بالاحرى، نتكلم عن غياب العقل وتغييب للعقلانية؟.

ان طرح مثـل هذا السؤال لا يعني ابـداً الرغبة في النظر من أجل النظر، وانما نطرحه، لما نجد اليوم من نظرة ظلامية لا عقلانية، ومن نزعة اختزالية لتاريخنا، ومن جهل مطبق بالمعـرفـة التـاريخية، ومن غياب شبه كامل للوعي التاريخي ومن انكار لتراثنا،

بالمعنى الواسع لتراثنا، أو تضييقه وتأطيره وما يتناسب، وكل داع لدعوته.

ثانياً ـ ميتافيزيقا الاصول

ان غياب العقل، والرؤية اللاعقلانية للتاريخ واقع، ومن نتائجه ما نشاهده اليوم من نظرة قاصـرة الى تراثنـا واصولنا. هذه النظرة بجميع اشكالها ومضامينها اللغوية والدينية والثقافية هي ما اسميه بميتافيزيقا الاصول، أو الادراك اللاعقلاني للتراث، وتاريخ الافكار والمعتقدات.

بحيث نجد ان كل تيار يؤسس نظريته على اصل من الاصول، دين، لغة، تاريخ معين، وبعد ان يجرده من مضامينه التاريخية، يرفعه الى قوة مطلقة، ليجعل منه اداته، التي يحرك بها مصالحه ويلهب به حماس مريديه.

وللاصل، بهذا المعنى، قوة مزدوجة، قوة الشرعية وقوة المعرفة، وقوة الشرعية هي التي تؤسس لقوة المعرفة، فذكر الاصل هو من اجل التأصيل والتمكين، أو تأسيس شرعية الحاضر بناء على شرعية الماضي.

وان الاصل من الناحية العقلانية، هو اصل تاريخي، وكل اصل تاريخي هو نتاج التاريخ، ومهما تفرد هذا الاصل يبقى معطى تاريخياً، يخضع للتطوير والتغيير والنسبية التـاريخية. وعليه فليس هنـاك اسهـل من ادراكه عقلياً أي علمياً، ولكن صعوبة هذا الاصل، عندما يتحول الى قوة شرعية، أو بتعبير دقيق الى قوة سياسية، لا يمكن حسمه إلا عن طريق الصـراع السياسي، الـذي تحـدده القـوى الاجتمـاعية ضمن جدلية الصراع الاجتمـاعية، والذي يعكس، بالدرجة الاولى، صراع المصالح. وان ما نقدمه في هذه المحـاولة، لينـدرج في اطار الفهم الاول للاصول، أي الفهم العقلاني، للاصول وفي شكل من أشكاله، هو الشكل الفكري في تراثنا العربي ـ الاسلامي.

ثالثاً ـ الفيلسوف ودرسه

١ ـ الاشكالية النظرية

ان الاشكالية النظرية للمرحلة الاسلامية تتحدد في اطار العلاقة التي تربط بين الخطاب الديني والخطاب الفلسفي، بين خطاب سائد ومسيطر سياسياً وايديولوجيا، هو الخـطاب الـديني الاسلامي،وبين خطاب دخيل يخترق الجسم الثقافي الاسلامي، هو الخطاب الفلسفي. ومنذ الترجمة، اواخر العهد الاموي، حتى المأمون، بدأت تظهر تلك

الاشكالية النظرية. وهي اشكالية التوفيق بين الشريعة والحكومة، بين العقل والنقل، بين الفلسفة والدين، وهذا في اطار المسألة المعرفية الاولى للمجتمع الاسلامي، وهي مسألة التوحيد، سواء تعلق الامر بالتوحيد على صعيد الحقيقة الدينية أو الحقيقة السياسية. وكل التفسيرات والتأويلات، التي قدمت من طرف علماء الكلام، والفقهاء، والفلاسفة، والمتصوفة، كل هذه المحاولات، تندرج في اطار هذه الاشكالية، اشكالية التوحيد.

ان هذه المسألة تعود لتظهر عند الحركات الاسلامية المعاصرة، خاصة بعد موجة ما يسمى بـ «الصحوة الاسلامية» وبعد ان تشكلت هذه الحركات السياسية، نجد ان خطابها يعيد بعث هذه الاشكالية دينياً وسياسياً، وحتى معرفياً (مثلاً اسلمة العلوم الانسانية، العلم في القرآن... الخ)، مع انعدام كلي لادراك حركية التاريخ، والتطور الذي حدث على صعيد المعرفة والخبرة البشرية.

هذه المسألة التي تتبناها الحركات الاسلامية اليوم، هي كما قلنا، المسألة الاولى، في العصر الاسلامي، فكيف نظر اليها ابن رشد؟ وما هي وجهة نظره؟

٢ ـ الخطاب الفلسفي

كان ابن رشد فيلسوفاً وعالماً وفقيهاً قرأ ارسطو وشرحه، كتب في الفلسفة فجدد في مباحثها. «فصل المقال» و«تهافت التهافت» و«مناهج الادلة في عقائد الملّة» كلها كتب فاصلة في تاريخ التفكير الفلسفي. وكان عالماً طبيباً، اشتهر بكتاب «الكلّيات» وفقيهاً قاضياً، شغل منصب قاضي القضاة، وله العديد من الرسائل والكتب الفقهية اهمها «بداية المجتهد ونهاية المقتصر». لقد جمع علوم زمانه، العلوم العقلية والعلوم الشرعية. وبهذا الجمع يقارب الاشكالية النظرية لزمانه، وبهذه المقاربة يجيب عن تلك الاسئلة؟ فما هو جوابه؟

لا يمكن فهم محاولة ابن رشد بعيداً عن تلك الدعوة الجديدة التي حملها الموحّدون، وداعيتهم ابن تومرت، تلك الدعوة القاضية بترك التقليد والعودة الى الاصول ونبذ قياس الشاهد على الغائب. كما لا يمكن فهم محاولة ابن رشد بعيداً عن مشروع الدولة الموحّدة. فالمؤرخون يوكدون على ان الخلفة الموحدي (عبد المؤمن) دعا ابن رشد، وهو لايزال دون الثلاثين من عمره، لترتيب المدارس في مراكش، كما عهد اليه السلطان ابو يعقوب يوسف بن عبدالله (٨٨٠ ـ ٨٩٥) ترجمة وشرح ارسطو، بعد ان اشتكى هذا الخليفة من غموض عبارة ارسطو.

من هذه الدعوة. تأسست اولى مميزات الخطاب الفلسفي الرشدي، وهي ميزة العودة الى الينابيع الفلسفية، عودة الى ارسطو والى نصوصه. وانه لسؤال جدير بالبحث هو كيف قرأ ابن رشد ارسطو؟ ولماذا العودة الى ارسطو، وليس الى الفارابي أو ابن سينا مثلاً؟

الواقع، وكما يذهب الى ذلك الجابري، ان هذه العودة تتماثل مع تلك العودة التي نادى بها ابن تومرت، دعوة ترك التقليد والعودة الى الاصول. ويبرر ابن رشد هذه العودة تبريراً عقلياً وعلمياً وانسانياً. فهو لا يرى غضاضة في العودة الى علوم الاوائل حتى وان اختلفوا في الملّة. المسألة ليست مسألة ملّة أو عقيدة، وانما هي مسألة الآلة والاداة التي نفكر بها. يقول في «فصل المقال»: «وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أم غير مشارك في الملّة، فان الآلة التي تصح بها التزكية، ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملّة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة، واعني بغير المشاركة من نظر هذه الاشياء من القدماء قبل ملّة الاسلام». هذه ميزة اولى للخطاب الرشدي، أما الميزة الثانية فهي النقد، اذ اننا لا نستطيع ان نتعرف على أي عمل من أعمال ابن رشد، دون النقد الذي يقوم به تجاه مختلف الفقهاء والفلاسفة، والفرق الكلامية، والصوفية وخاصة الاشعرية والمعتزلة، وكذلك نقده لابن سينا وابي حامد الغزالي. ويعتبر كل من «تهافت التهافت» و«مناهج الادلة» من الكتب النقدية السجالية، في تاريخنا الفكري.

ونقد ابن رشد لهذه الاتجاهات يرتكز اساساً على نقد المنطق الذي يتبعونه، لذا فهو يصنف كل ادلتهم في مرتبة الجدل، والخطابة. وهم بهذا في نظره بعيدون عن العلم الذي يقوم على البرهان. «ان طرائقهم التي سلكوها في اثبات تأويلاتهم ليسوا فيها مع الجمهور ولا مع الخواص، لكونها اذا تؤملت وجدت ناقصة عن شرائط البرهان...)»[7].

أما الميزة الثالثة للخطاب الفلسفي الرشدي فهي ميزة الطريقة التي يقترحها لتأويل الخطاب الديني حيث يعتبر في هذا السياق كتابه «فصل المقالة» كتاباً منهجياً في تحديد العلاقة بين الدين والفلسفة. فهو يرى انه من الخطأ الدمج بين عالم الشهادة والاعتماد على منهج قياس الشاهد على الغائب اذ يجب التمييز بين العالمين، فعالم الغيب هو العالم المطلق أما عالم الشهادة فهو عالم التغير والتحول. وفي حالة تعارض بين العالمين يجب ان نعمد الى التأويل وذلك بمراعاة الشروط التالية:

- ان الخطاب الديني عام يستعمل الخطابة والجدل وكذلك البرهان.

- ان القرآن كنص يفسر بعضه بعضاً واذا صادف وحدث تعارض أو تناقض فيجب القيام بالتأويل الذي يجب ان يراعي بعض القواعد منها ان هناك ما لا يؤول كالاقرار بالالوهية والنبوة واليوم الآخر، وثانياً احترام اللغة العربية واحترام الوحدة الداخلية للخطاب الديني واحترام مستويات توجه الخطاب اما الى العامة أو الى الخاصة.

وبهذا يتم اخضاع النقد الى العقل، والجدل والخطابة الى البرهان، مع الفصل بين المجالين: مجال الدين ومجال الفلسفة، وذلك بالاستناد على مبدأ منهجي اقره العلم الحديث وهو انه لما كانت لكل صناعة مبادىء وجب على الناظر في تلك الصناعة ان يسلّم

بمبادئها ولا يتعرض لها لا بالاثبات ولا بالابطال، وقاعدة ذلك هو البرهان كمعيار للصحة واليقين.

ـ من أجل استئناف البدء

والآن وبعد هذه النظرة الموجزة في درس ابن رشد ماذا تبقى لنا لنستأنف البدء؟

ـ ليس المطلوب في نظري اعادة شرح ابن رشد من جديد فقد أجاب عن اسئلة زمانه ونحن يجب ان نجيب عن اسئلة زماننا.

ان العودة والاستئناف يجب ان يرتكزان على الجوانب النقدية والعقلية والبرهانية وكذلك الانسانية التي يقوم عليها عمل ابن رشد.

ان العودة والاستئناف تعني في استئناف المنهج البرهاني، الذي هو منهج زماننا، وذلك في مواجهة الخطابة والجدل، الذي يسيطر على جوانب واسعة من ثقافتنا.

ان الاستئناء، هو اخيراً، استئناف لطريق النضال، الذي رسمه ابن رشد، نضال من أجل تأسيس العقلانية، والتمهيد لعصر الانوار وانه بسبب نضاله وأفكاره، خضع للمحاكمة والتفتيش، والابعاد ان هذا التاريخ النضالي، هو ما نحتاج اليه، لنستأنف البدء بتأسيس عصر تسوده العقلانية والديمقراطية.

الهوامش

(١) النصوص مأخوذة من كتاب «فصل المقال» المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة ١٩٦٨، ص (٥)، (٣٣).

(٢) كما يمكن مراجعة اعمال (الندوة العالمية) حول ابن رشد وكذلك اعمال العديد من الباحثين حول ابن رشد مثل:

ـ الجابري: في نحن والتراث.

ـ عاطف العراقي: المنهج العقلي عند ابن رشد.

ـ ارنست رينان: ابن رشد والرشدية.

حقوق الانسان في العراق بين التشريع والممارسة

في العددين السابقين نشرنا القسمين الأول والثاني من الجزء الخاص بالعراق في تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان لعام ١٩٩١ ، وفيما يلي القسم الأخير:

الحق في الحرية والامان الشخصي:

ظلت التقارير والشكاوى التي تتلقاها المنظمة العربية لحقوق الانسان تعكس قلقاً متزايداً ازاء شيوع وتصاعد الممارسات المتعلقة بالاعتقال والاحتجاز التعسفي، حيث توسعت اجهزة الامن والقوات الحكومية في اعتقال آلاف الاشخاص دون احاطتهم بالتهم الموجهة اليهم ودون تمكينهم من الاتصال بمحام أو بذويهم، وقد شملت هذه الاجراءات النساء والاطفال والشيوخ وبخاصة في ظل الاضطرابات واسعة النطاق التي شهدها العراق. وفيما ظل الغموض يكتنف مصير آلاف الاشخاص الذين اختفوا منذ سنوات طويلة فقدْ تمخض العام المنصرم عن اتساع حالات الاختفاء في ظل الاجراءات التي اتخذتها الحكومة لمواجهة الاضطرابات. ورغم سلسلة متتالية من قرارات العفو عن المعتقلين فقد ظلت الشكاوى والتقارير ترصد استمرار اعتقال مئات من الاشخاص وعائلات بأكملها، وبعضهم امضى داخل السجون سنوات طويلة دون ان يقدم الى المحاكمة. كما اتهمت بعض التقارير السلطات باستغلال قرارات العفو لتطويق بعض المعارضين واعتقالهم بعد عودتهم من الاماكن التي فروا اليها داخل أو خارج العراق للاستفادة من هذه القرارات.

ووفقاً لما اعلنته السلطات العراقية فان عدد الذين اعتقلوا من المشاركين في الاضطرابات التي شهدتها البلاد منذ مارس /آذار وابريل /نيسان قد بلغ ١٥١٠٥ ، وانه قد اطلق سراح ١٤٠٠٥ منهم بموجب قرارات العفو التي اصدرتها، والتي استثنت من العفو الاشخاص الذين يثبت تورطهم في جرائم للقتل العمد وهتك الاعراض والسرقة خلال هذه الاضطرابات، وقد قدرتهم السلطات بـ ١١٠٠ شخص تم استكمال الاجراءات التحقيقية معهم تمهيداً لاحالتهم للمحاكمة. وقد

احاطت الحكومة العراقية فيما بعد المقرر الخاص بالعراق بان ٧٥١ منهم قد اطلق سراحهم فيما صدرت احكام باعدام ١١ شخصاً واحكام أخرى بالسجن على ٢٧٧ منهم كما اشارت الى ان هناك ٦١ شخصاً مازالت حالاتهم رهن المرافعة ولم تصدر احكام بحقهم.

وكان مجلس قيادة الثورة العراقية قد اصدر في ١٩٩١/٤/١٠ القرار رقم ١٠٣ القاضي بالعفو العام والشامل عن الاكراد العراقيين في منطقة الحكم الذاتي من أية ملاحقة عن أي عمل يعاقب عليه القانون خلال الاضطرابات، واستثنى من ذلك الجرائم المشار اليها من قبل. ثم اصدر المجلس القرار ١٠٩ بتاريخ ٩١/٤/٢٠ الذي تضمن النص على شمول قرار العفو السابق على كل العراقيين في شمال أو جنوب أو وسط العراق. كما اصدر المجلس القرار رقم ١٣٦ في ٩١/٥/٨ ويقضي بالعفو العام والشامل عن كل العراقيين الهاربين حيثما كانوا من كل اثر وملاحقة قانونية عن أي عمل يعاقب عليه القانون خلال الاضطرابات. وكان المجلس قد اصدر القرار رقم ٥٣ في ١٩٩١/٣/٤ المتضمن العفو عن الهاربين والغائبين والمتخلفين من جريمة الهروب أو التخلف عن الخدمة العسكرية.

وتثير بعض الدوائر المعارضة شكوكاً حول شمول العفو العام للسياسيين بموجب قرارات مجلس الثورة، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣ في يوليو /تموز باعتبارها تنحصر في العفو العام عن المحكومين والموقوفين السياسيين الذين صدرت بحقهم الاحكام من محكمة الثورة أو المحاكم الجزائية الأخرى. وترى هذه الدوائر ان هذه القرارات لا تشمل آلاف الموقوفين السياسيين الذين مازالت قضاياهم قيد التحقيق، ولم تصدر احكام قانونية بحقهم من قبل المحاكم المختصة أو لم يتم إحالة قضاياهم للمحاكم، وكذلك المحتجزين السياسيين والذين لم تتضمن القرارات أية اشارة اليهم، وتضيف لذلك المتهمين الهاربين الذين يمكن للسلطات ان تفتح التحقيق بشأنهم طالما لم تلغ اوامر القبض عليهم. هذا فضلاً عما اثارته هذه الدوائر من ان قانون العقوبات يعامل العديد من الجرائم التي ترتكب لبواعث سياسية باعتبارها جرائم عادية، ويدخل في هذا النطاق، الجرائم التي ترتكب بباعث اناني ـ وهو مفهوم يمكن التوسع فيه واضفاؤه على كافة الافعال السياسية، وجرائم القتل العمد أو الشروع فيه، والجرائم الماسة بأمن الدولة الخارجي وجريمة الاعتداء على حياة رئيس الدولة، والجرائم الارهابية والجرائم المخلة بالشرف.

وفيما افاد وفد الحكومة العراقية امام اللجنة المعنية بحقوق الانسان بان عدد المستفيدين من القرارات الصادرة في يوليو /تموز ١٨٧ شخصاً، فان المنظمة قد تلقت تقارير تشير الى ان هناك نحو ٤٥٠ سجيناً سياسياً لم يطلق سراحهم، وأرفق قائمة بأسماء ١٥٣ سجيناً منهم.

وقد تابعت المنظمة العربية لحقوق الانسان بقلق بالغ الادعاءات التي اوردتها بعض التقارير من ان اشخاصاً عديدين اغتنموا فرصة اعلانات العفو ـ وخاصة من الاكراد في اربيل ـ قد احتجزوا فور عودتهم ونقلوا الى استاد المدينة وتعرضوا لعقوبات أو اعدموا أو اختفوا بعد ذلك. وقد نفت السلطات العراقية فيما بعد هذه الادعاءات في ردها على مذكرة المقرر الخاص، مشيرة لأن هذه المزاعم تستهدف التشكيك بمصداقية قرارات العفو ومنع المشمولين بها من العودة.

كما تلقت المنظمة شكوى بشأن استمرار اعتقال سماحة آية الله السيد محمد صادق القزويني (٩١ عاماً) منذ القاء القبض عليه قبل أحد عشر عاماً في ١٩٨٠/٤/٨، واستمرار تعرضه للتعذيب وسوء المعاملة برغم تقدمه في السن. وقد اضافت الشكوى ان سماحته قد حرم من تلقي زيارات من ذويه حيث يقبع داخل السجن مع عشرات آخرين من العلماء.

وقد خاطبت المنظمة السلطات العراقية المختصة معربة عن قلقها البالغ إزاء استمرار اعتقاله طوال هذه السنوات. واستفسرت المنظمة في خطابها عن أسباب اعتقاله والاعتبارات التي حالت دون تقديمه للمحاكمة، كما تساءلت عن طبيعة وضعه القانوني وماهية التهم المنسوبة اليه، وناشدت المنظمة في خطابها السلطات المختصة بسرعة الافراج عنه والنظر بعين الاعتبار لتقدمه في السن، الامر الذي ينظر اليه باعتباره أكبر سجين سياسي في العالم.

والمعروف ان القوانين العراقية لا تجيز القبض على أي شخص أو توقيفه إلا بمقتضى امر صادر من قاض أو محكمة أو في الاحوال التي تجيز فيها ذلك، وينبغي ان يخطر المحتجز بالتهم الموجهة اليه ويمثل امام قاضي التحقيق خلال ٢٤ ساعة. ووفقاً لما اوضحته الحكومة العراقية في ردها على مذكرة المقرر الخاص فان الاستثناء القانوني من الاحتجاز إلا بأمر قضائي اقتصر على صلاحية احتجاز الاشخاص المشتبه في سلوكهم الاجرامي، وانه بموجب هذا الاستثناء احتجز خلال العام ١٩٩٠ (١٦١٠) أشخاص لدواعي المساس بالنظام العام والآداب العامة للمجتمع. وقد عقب المقرر الخاص على رد الحكومة في هذا الصدد بمطالبتها بايضاح الاحوال التي يجيز فيها القانون احتجاز الاشخاص دون امر قضائي والتي يبدو ان جانباً كبيراً من حالات الاعتقال تندرج ضمن نظام الاستثناءات المسموح بها من الاحكام العامة.

وقد استعرضت المنظمة العربية لحقوق الانسان ـ من خلال البعثة المشتركة مع المنظمة المصرية لحقوق الانسان ـ مع المسؤولين العراقيين ما لديها من تقارير حول وجود اعداد غفيرة من المحتجزين العراقيين أو من جنسيات اخرى في مراكز الاحتجاز، وقدمت للسلطات العراقية خمس قوائم تتضمن اسماء المعتقلين وبعض المعلومات المتوفرة عنهم، وطلبت من السلطات ايضاح طبيعة الاتهامات الموجهة اليهم، وما اذا كانت قد تمت محاكمتهم أم لا، وناشدتها سرعة محاكمتهم أو اطلاق سراحهم. وقد ضمت هذه القوائم:

أ ـ قائمة تضم ١٢٥ مواطناً عراقياً يعود اعتقال عدد منهم إلى عام ١٩٨٠.

ب ـ قائمة بأسماء ٦٣ مواطنة عراقية وردت انباء للمنظمة باستمرار اعتقالهن لسنوات طويلة يرجع بعضها للعام ١٩٧٩.

جـ ـ قائمة بأسماء ١٦٦ شخصاً عراقياً ينتمون لـ ٢٩ عائلة كردية من محافظات نينوى ودهوك اعتقلوا إثر العفو الذي اعلنته السلطات في ١٩٨٨/٩/٦.

د ـ قائمة تضم ٤٤ إسماً لمواطنين عراقيين من علماء الدين وطلبة الحوزة العلمية اعتقلوا بمدينة النجف الاشرف خلال الفترة من ٢٠ ـ ٢٣ مارس /آذار ١٩٩١.

هـ ـ قائمة تضم ٦٢ شخصاً ينتمون الى جنسيات مختلفة من لبنان والبحرين والهند

وافغانستان وايران وباكستان من علماء الدين وطلبة الحوزة العلمية وقد اعتقلوا ايضاً بمدينة النجف الاشرف خلال الفترة من ٢٠ ـ ٢٣ مارس /آذار ١٩٩١.

وقد وعد المسؤولون العراقيون بتحري هذه القوائم والتعقيب في وقت لاحق.

وكانت التقارير التي تلقتها المنظمة فيما يتصل بالقائمتين الاخيرتين قد اشارت الى ان الاعتقالات التي وقعت بالنجف الاشرف في ذلك الوقت قد شملت سماحة آية الله الامام ابو القاسم الخوئي ـ الذي يعد المرجع الاعلى للمسلمين الشيعة ـ وعدداً من افراد اسرته وتلاميذه وانهم قد نقلوا الى بغداد، وانقطعت أخبارهم فيما سمح بعد ذلك بعودة الامام الخوئي الى منزله، حيث اشارت بعض التقارير الى وضعه تحت الاقامة الجبرية. وقد سمحت السلطات في يوليو /تموز الماضي للمندوب التنفيذي للامم المتحدة صدر الدين اغاخان بزيارة سماحته للاطمئنان على صحته والتأكد من وضعه العام.

وقد ناشدت المنظمة السلطات العراقية اتاحة الفرصة لايفاد أطباء اخصائيين، على نحو عاجل، لعلاج الامام الخوئي الذي يناهز التسعين من عمره وذلك بعد ان تلقت في ديسمبر /كانون الاول تقارير تتعلق بتردي حالته الصحية نتيجة اصابته بمرض خطير يتطلب اطباء متخصصين من الخارج، واعربت المنظمة عن استعدادها لتوفير مثل هذه البعثة الطبية من التخصصات التي يشير بها طبيبه المعالج. على ان السلطات في ردها على مناشدة المنظمة بهذا الشأن قد اكدت ان سماحة الامام الخوئي يلقى رعاية طبية كاملة من قبل الاجهزة الطبية العراقية وكوادرها المتخصصة وان هذه الرعاية تحظى بمتابعة خاصة من قبل اعلى المستويات في الدولة.

وكانت الحكومة العراقية قد نفت في ردها على الادعاءات التي تضمنتها مذكرة المقرر الخاص المعني بدراسة انتهاكات حقوق الانسان في العراق ما تردد بشأن اعتقال الامام الخوئي، كما اكدت عدم وجود أية قيود على حريته الشخصية وانه يقوم باستقبال زائريه من العرب والاجانب ويمارس مهامه الدينية بشكل طبيعي.

ويثير قلق المنظمة ما اورده رد الحكومة على مذكرة المقرر الخاص بشأن ٧٨ شخصاً اختفوا في جنوب العراق في مارس /آذار ١٩٩١ و٦٢ آخرين اعتقلوا بالنجف الاشرف في نفس الفترة وبينهم عدد كبير ممن وردوا بالقائمتين اللتين سلمتها البعثة للسلطات العراقية، حيث أوضح رد الحكومة انه فيما يتعلق بالمختفين فقد اكدت التحريات انهم غير موجودين حالياً، ومن المحتمل ان يكونوا قد قتلوا خلال الاضطرابات. أو فروا الى خارج البلاد. أما بالنسبة للمعتقلين (٦٢ شخصاً) بالنجف فقد اوضح الرد ان اربعة منهم يتمتعون بحرية كاملة، ولا تتوفر لدى الجهات المختصة أية معلومات عن الاسماء الاخرى ونوهت الى ان ثمانية منهم مدرجون بقائمة المختفين.

وقد عقب المقرر الخاص على رد الحكومة في هذا الصدد بانه من الصعب تصديق ان من قدموا هذه الادعاءات لا يعلمون بوفاة أو هروب الاشخاص المعنيين الى بلد آخر، كما اعرب عن قلقه البالغ من تقرير الحكومة بانه ليست لديها أية معلومات عن الاشخاص الذين اشير الى اعتقالهم إلا بشأن اربعة منهم مشيراً الى ان معلومات الحكومة تؤكد ان هناك ثمانية على الاقل ان لم يكن جميع

الآخرين إما قتلوا في الاضطرابات أو فروا من البلاد، وذكر في ذلك ان معظم هؤلاء من كبار السن ومن غير المتوقع ان يكونوا قد شاركوا في القتال، أو أن حالتهم الصحية تسمح لهم بالهروب بضع مئات الاميال الى الحدود.

وفضلاً عن ذلك فإن جواب السلطات العراقية على تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان والذي سلمته لبعثتها في نوفمبر /تشرين الاول قد اشار فيما يتعلق بحالات الاختفاء التي رصدها التقرير والتي ضمت آلاف الاشخاص، الى الصعوبات التي تواجهها الجهات المعنية في الكشف عن مصيرهم بالنظر لوقوعها بالاساس في فترة الحرب العراقية الايرانية وفي مناطق حدودية ذات طبيعة جغرافية قاسية كانت مسرحاً لعمليات عسكرية رافقها نزوح واسع للسكان المقيمين فيها. ورجح جواب الحكومة ان قسماً كبيراً ممن اعتبروا في عداد المختفين قد هرب الى الدول المجاورة. وفيما يتعلق بحالات الاختفاء لاكثر من ٢٢٠٠ من افراد عشيرة البرزاني الكردية فقد اوضح جواب الحكومة على تقرير المنظمة ان المناطق التي تقطنها هذه العشيرة قد شهدت عدداً من العمليات العسكرية خلال الحرب العراقية الايرانية، وان افراد العشيرة قد تعاونوا مع القوات الايرانية الغازية وسهلوا دخولها لهذه المناطق وشاركوا فعلياً في المعارك ضد القوات العراقية مما اسفر عن مقتل العديد منهم، وانه بعد استعادة القوات العراقية سيطرتها على هذه المناطق فقد فرت اعداد اخرى من العشيرة البرزانية الى ايران. وفي ضوء ذلك فان الحكومة العراقية تجد صعوبة في التحقيق فيما اورده تقرير المنظمة بشأن الاشخاص المزعوم اختفاؤهم. ومع الاقرار بالصعوبات التي اوضحتها السلطات لكشف مصير المختفين فان المنظمة تعتقد ان السلطات مدعوة الى اتخاذ خطوات حثيثة على الاقل للتحقيق في مصير افراد العشيرة البرزانية، والتي كانت التقارير قد اشارت الى انهم قد شوهدوا آخر مرة في مخيمات الحكومة العراقية بقوش تبه وديانا في اربيل في ٣٠ يوليو /تموز ١٩٨٣.

وقد كشف التقرير الذي قدمه المقرر الخاص بالعراق الى لجنة حقوق الانسان عن ابعاد اكثر خطورة بشأن ظاهرة الاختفاء وموقف الحكومة تجاهها، حيث اشار الى الجهود المبذولة من قبل الفريق العامل المعني بالاختفاء القسري بالامم المتحدة الذي احال الى الحكومة العراقية ٣٨٧٤ حالة مفصلة ارتأت الحكومة الرد فقط على ٣٠٦ منها موضحة ٧٠ حالة فقط. واوضح المقرر الخاص ان معدل الرد لا يبعث على التفاؤل خاصة انه قد تجمع لديه ١٧٠٠٠ اسم لاشخاص مختفين بينهم ١٣٠٠٠ حالة تتوفر بشأنهم تفاصيل كافية لمناقشتها، واضاف الى ذلك انه قد تلقى فيضاً مضطرداً من الحالات التي مازالت في طور الترجمة والتحليل ورجح في ضوء ذلك ان تكون التقديرات الكردية بوجود ١٨٣٠٠٠ حالة اختفاء هي تقديرات واقعية.

الحق في محاكمة عادلة:

تمثلت ابرز التطورات في هذا الصدد في القرار الصادر من مجلس قيادة الثورة في ١٩ مايو /أيار بالغاء محكمة الثورة التي كانت تتمتع بصلاحيات استثنائية ولا تخضع قراراتها للاستئناف امام

محكمة اعلى ، وقد كانت ولاية محكمة الثورة مثار قلق بالغ للهيئات المعنيه بحقوق الانسان بالنظر لأن احكامها ـ غير القابلة للطعن ـ قد افضت الى سجن أو اعدام آلاف الاشخاص لسنوات طويلة مضت، وخاصة في ظل اتساع قائمة الجرائم التي يقضي التشريع العراقي فيها بعقوبة الاعدام أو السجن لامد طويل.

غير ان هذا التطور لم يفلح في تبديد المخاوف المستمرة من انتهاك هذا الحق بالنظر لأن الجانب الاكبر من اقامة العدالة الجنائية يتطلب بالدرجة الاولى احترام سيادة القانون، وهو الامر الذي تهدره النظم والاوامر الموازية الخارجة عن نطاق رقابة القضاء وعن سلطات القانون.

وقد لاحظ المقرر الخاص بالعراق في هذا الصدد في تقريره المقدم الى لجنة حقوق الانسان وجود نظامين قانونيين على الاقل معمول بهما في العراق: «نظام عادي» للقوانين العادية التي تتناول الشؤون المعتادة للحياة اليومية، ونظام «موازٍ» لمراسيم مجلس قيادة الثورة والمراسيم الرئاسية يتناول اساساً جميع المسائل المتعلقة بالامن الداخلي والخارجي. ويشير لأن السلطة تكمن اساساً في النظام الثاني الذي يمكن ان يسمى «الشرعية خارج نطاق القضاء» او ما يعرف باسم الشرعية الثورية. ويضيف الى ذلك انه يوجد الى جانب هذين النظامين المنصوص عليهما في الدستور، نظام آخر للحكم يمكن اعتباره «خارج نطاق القانون» حيث لم يرد به أي نص في القانون العراقي، وينبع من نزوات ورغبات عدد قليل من الافراد الذين يشغلون مناصب في الدائرة الضيقة المحيطة برئيس الجمهورية، فبصرف النظر عن سلطتهم القانونية فانهم يملكون سلطة فعلية لاصدار التعليمات اللازمة لموظفي الدولة وأجهزتها.

ووفقاً لما اعلنه ممثلو الحكومة العراقية امام اللجنة المعنية بحقوق الانسان التابعة للامم المتحدة، فان احكام الاعدام قد تناقصت بصورة ملحوظة منذ انتهاء الحرب العراقية الايرانية، وان عدد احكام الاعدام التي صدرت في الفترة من ١٩٨٧ ـ ١٩٩١ قد بلغ ١٧١٤ حكماً، نفذ منها ١٢٢٣ حكماً وخفض ٣٣٠ حكماً الى السجن المؤبد، كما اعفي ١٦١ من العقوبة. كما اشاروا كذلك الى ان عدد المحكومين بالسجن لمدد تتراوح بين ٥ ـ ١٥ سنة قد بلغ ٧٧٩٠ شخصاً خلال نفس الفترة.

وفيما نفت الحكومة العراقية في ردها على مذكرة المقرر الخاص احالة أي شخص للمحاكمة بموجب قرار مجلس الثورة رقم ٤٦١ في مارس /آذار ١٩٨٠، والذي يطبق بأثر رجعي عقوبة الاعدام على الاشخاص الذين كانوا اعضاء في حزب الدعوة الاصولي الشيعي، فقد تلقت المنظمة في اكتوبر /تشرين الثاني اسماء ٣٢ شخصاً زعم اعدامهم باعتبارهم من عناصر حزب الدعوة وذلك في قصبة تازة وقصبة داقوق، وكان من بينهم تحسين احمد علي، محمد سلمان، حسين علي مردان، ومهدي حميد خورشيد. كما تضمن تقرير المقرر الخاص بالعراق الى لجنة حقوق الانسان ما يفيد ان اكثر من خمسين شخصاً قد اعدموا لكونهم اعضاء في هذا الحزب.

وقد ناقشت المنظمة العربية لحقوق الانسان من خلال البعثة المشتركة مع المنظمة المصرية لحقوق الانسان ـ التي زارت العراق ـ رئيس الادعاء العام العراقي حول استقلال القضاء وضماناته،

واشارت في هذا الى تدخل وزير العدل وهو عضو بالسلطة التنفيذية في عمل القضاة وفي التفتيش عليهم، حيث ينص قانون التنظيم القضائي على انه هو الذي ينبه القضاة الى الاخطاء القانونية والادارية ويعطي الاذن باقامة الدعاوى الانضباطية على القاضي، فضلاً عن ان محاكمة القاضي تجري في حضور ممثل وزير العدل. كما اشارت البعثة الى انه وفقاً لقانون وزارة العدل فان مجلس العدل الذي يضم عناصر من غير القضاة هو الذي يتولى الاشراف ادارياً على القضاة. كما اثارت البعثة ما ينص عليه قانون الاجراءات الجنائية حول حق الرئيس الاعلى في ايقاف اجراءات الملاحقة القضائية ضد مرؤوسيه في أي وقت.

وفي هذا الصدد اوضح رئيس الادعاء العام العراقي ان مؤتمراً قانونياً موسعاً سوف ينعقد، وانه سيدرس ضمن مقترحاته الغاء مجلس العدل وانشاء مجلس تخطيطي الى جانب مجلس من القضاة للنظر في شؤونهم، وانه حتى في ظل تشكيل مجلس العدل الحالي فان اعضائه من غير القضاة ينسحبون من جلساته عند بحث أي امور تتعلق بالقضاة.

وأضاف رئيس الادعاء العام بان من حق نواب المدعي العام ومساعديه وقضاة التحقيق التفتيش على كافة مراكز الاحتجاز، اضافة الى ان هناك لجنة مشتركة من رئيس التفتيش العالي ومستشار وزير العدل ورئيس الادعاء العام لزيارة كل مراكز الاحتجاز والتعرف على اوضاع الموقوفين. وفيما يتعلق بحق الرئيس الاعلى في وقف اجراءات الملاحقة القضائية ضد مرؤوسيه، فقد اشار المدعي العام العراقي الى ان هذا الحق يخول للوزراء وحدهم وانه لا يعد مساساً باستقلال القضاء ولكن تقديراً لبعض الامور التي يرى انه ليس من المهم ملاحقة الجاني عليها قضائياً مثل جريمة فقد جواز السفر.

وقد تلقت المنظمة تعقيباً يتضمن رؤية وزارة العدل العراقية بشأن ما اثارته المنظّمة من خلال البعثة فيما يتعلق باستقلال القضاء وضمانات القضاة. واشار في هذا الصدد الى ان المادة ٥٧ من قانون التنظيم القضائي التي تخول وزير العدل تنبيه القاضي الى اخطائه القانونية والادارية لا تعد تدخلاً في القضاء لأن مداخلة وزير العدل تتعلق هنا بالجانب الاداري لعمل القاضي وموافقته لاحكام القانون، وان تنبيه الوزير للقاضي وفق هذه المادة لا يتضمن أي مفهوم عقابي انضباطي، وان هذا التنبيه يكون نتيجة تفتيش يجريه قاضي منتدب في هيئة الاشراف العدلي.

كما اضاف التعقيب ان المادة ٦٠ من القانون المذكور لا تعبر عن تدخل لوزير العدل في شؤون القضاء بقدر ما تمثل واحدة من ضمانات حماية القاضي مما قد يثار ضده من دعاوى كيدية فلا تقام الدعوى الانضباطية على القاضي ما لم تكن الوقائع والادلة كافية بحيث يقتنع بها وزير العدل.

واشار التعقيب الى ان حضور ممثل وزير العدل اثناء محاكمة القاضي المحال على لجنة شؤون القضاة اضافة الى حضور ممثل رئيس الادعاء العام اجراء له ما يبرره قانوناً لأن ممثل رئيس الادعاء العام هو بمثابة ممثل الهيئة الاجتماعية، أما ممثل وزير العدل فهو يمثل الشخص المسؤول عن حسن سلامة مجريات الجانب الاداري لادارة العدالة.

واضاف ان مجلس العدل وان كان يضم بعض رؤساء الاجهزة العدلية من غير القضاة إلا ان هؤلاء لا يشتركون في نظر أي شأن من الشؤون القضائية التي ينفرد بها القضاة فقط من بين اعضاء مجلس العدل، مشيراً لأن تأسيس هذا المجلس وتكوينه على الوجه المذكور كان مقتضاه ان وزارة العدل تضم تشكيلات وأجهزة متنوعة ومنها غير قضائي كالتسجيل العقاري ودائرة رعاية القاصرين والمديريات العامة في مركز الوزارة مما يستوجب ان يجمعها مجلس واحد بغية التخطيط العام المتكامل لسياسة الوزارة.

من ناحية اخرى فقد اثار خبراء اللجنة المعنية بحقوق الانسان خلال مناقشتهم للتقرير الدوري الذي تقدمت به الحكومة العراقية، انتقادات شديدة ازاء ما تضمنته المادة ٣٨ من الدستور التي منحت السلطة لمجلس قيادة الثورة في توجيه الاتهام والحكم وتحديد العقوبات بالنسبة لاعضائه. كما اشاروا الى ان المادة ٤٠ من الدستور قد اضفت حصانة كاملة على اعضاء مجلس قيادة الثورة بحيث لا يمكن اتخاذ أي اجراء ضد أي عضو بالمجلس دون موافقة المجلس نفسه. وتساءلوا عن كيفية الحديث عن المحاكمة العادلة في الوقت الذي يقضي فيه الدستور بان اجتماعات مجلس الثورة يجب ان تكون سرية، وان أي تسرب للمعلومات يؤدي الى تقديم المسؤول عن ذلك امام محكمة خاصة بمجلس قيادة الثورة.

- **معاملة السجناء وغيرهم من المحتجزين:**

تحظر المادة ١/٢٢ من الدستور العراقي التعذيب، ويفرض قانون العقوبات في مادتيه ٢٣٢، ٢٣٣ عقوبات على ممارسة التعذيب، كما تعتبر المادة ١٢٧ من قانون الاجراءات الجنائية اعتراف المتهم تحت تأثير الاكراه البدني أو المعنوي لا قيمة له من الناحية القانونية. وبموجب التعليمات رقم ٤ لسنة ١٩٨٨ فان من اهم اختصاصات الادعاء العام مراقبة اجراءات التحقيق واوضاع السجون للتأكد من احترام القانون وعدم وقوع تجاوزات بحق الاشخاص الموقوفين.

ومع ذلك فقد تواصلت التقارير التي تشير الى توسع اجهزة الامن في ممارسة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة السيئة على نطاق واسع، وان هذه الممارسة تشكل اسلوباً روتينياً لانتزاع الاعترافات من الاشخاص المحتجزين. وقد عززت شهادات العديد من المحتجزين الذين اطلق سراحهم أو حرروا خلال الاضطرابات ما سبق ان رصدته تقارير المنظمة والهيئات الدولية المعنية بحقوق الانسان بشأن آليات التعذيب التي تشمل الضرب والحرق ونزع الاظافر والاعتداء الجنسي والصدمات الكهربية والحمامات الحامضية والحرمان من الغذاء أو الماء أو النوم.

وخلال مناقشة اللجنة المعنية بحقوق الانسان بالامم المتحدة لتقرير الحكومة العراقية، اعرب خبراء اللجنة عن قلقهم البالغ لاتساع ممارسات التعذيب والمعاملة اللاانسانية للمحتجزين. وتضمن رد ممثل الحكومة العراقية على ذلك اقراراً ضمنياً بوقوع هذه الممارسات، حيث اشار الى حالات جرى فيها توقيع العقوبة على المتورطين في التعذيب، وطلب من اعضاء اللجنة ان يسألوا انفسهم فيما اذا كان ما حدث من تعذيب في العراق لم يحدث مثله في الدول المتقدمة والنامية

على حد سواء.

كما تضمن جواب الحكومة على تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان ـ والذي سلمته لبعثتها ـ انها لا تنفي بشكل مطلق وقوع بعض ممارسات التعذيب. لكنها اكدت ان السلطات المختصة تقوم عند العلم بوقوع هذه الممارسات بمعاقبة المخالفين طبقاً للقانون، وارفقت بردها عدداً من قرارات المحاكم التي احيل اليها عدد من القائمين بممارسة التعذيب في قضايا غير سياسية.

وبالنظر الى خطورة الادعاءات التي تحفل بها التقارير بشأن انتهاك حقوق السجناء والمحتجزين، واقرار السلطات بوقوع بعض الانتهاكات فان المنظمة تعتقد ان السلطات مطالبة باتخاذ اجراءات اكثر حزماً لوقف هذه الانتهاكات، واتخاذ التدابير التي تكفل لضحايا التعذيب التقدم بشكواهم الى السلطات المختصة للتحقيق فيها بصورة جدية.

وفي هذا الصدد فان المنظمة يساورها القلق بشأن ما كشفت عنه الاضطرابات التي شهدها العراق من العديد من مراكز الاعتقال والاحتجاز السرية التي لا تخضع لأي اشراف قانوني أو قضائي عليها، ومن بين هذه المعتقلات: معتقل سري تحت جسر الائمة من الجانب الايمن لنهر دجلة (الكاظمية ـ بغداد). معتقل سري يقع ضمن مباني رئاسة المخابرات العامة، وترجح التقارير استخدامه في احتجاز عناصر المخابرات التي يشك في ولائها للسلطة. معتقل سري يقع في منطقة كرادة مريم ويرجح استخدامه ضد المواطنين العرب المشكوك في ولائهم للسلطة. معتقل سري يقع في شارع ابو نواس تحت احد المطاعم وهو عبارة عن سرداب تحت الارض. معتقل سري يقع تحت مبنى شركة المخازن التجارية العراقية بشارع الرشيد. معتقل سري تابع لمديرية الامن العامة يقع في منطقة البتاويين وهو خاص بالمعتقلين من عناصر الامن الذين يشك في ولائهم للسلطة.

كما اشارت التقارير ايضاً الى عشرات من البيوت والمراكز السرية المخصصة لسجن واعتقال مسؤولي الدولة وقياداتها التنظيمية وتقع في المنطقة المحصورة بين مبنى المجلس الوطني والقصر الجمهوري في منطقة كرادة مريم ببغداد، كما اشارت كذلك الى عشرات من البيوت والمراكز السرية في محافظات ومناطق متفرقة.

وقد أورد المقرر الخاص بالعراق وفقاً للمعلومات التي تلقاها ان هناك اكثر من مائة مكان للاحتجاز في العراق وان هذه المعلومات تخالف مزاعم الحكومة بوجود اربعة سجون عاملة فقط في الوقت الحاضر.

ووفقاً لما رواه شهود عيان شاركوا خلال الاضطرابات في اقتحام إحدى البنايات بالبصرة للتفتيش عن سجن سري بداخلها فقد وجدوا دهليزاً مظلماً على عمق ١٥ متراً يقود الى زنزانات تضم حوالي مائة سجين. واشار احدهم الى ان المشهد كان رهيباً عندما فتحوا احدى الزنزانات ووجدوا بها عشرين شخصاً باشكال مخيفة حيث طالت شعورهم واظافرهم وكانت أجسامهم عبارة عن هياكل عظمية وجلودهم صفراء باهتة، وكانوا يتحركون بصعوبة. وقد عرف انهم معتقلون منذ عهد الرئيس السابق احمد حسن البكر، ولا يعرفون تطورات الاحداث منذ ذلك التاريخ. كما لا يعرفون

المدة التي قضوها داخل السجن لعدم تمييزهم الليل والنهار، وعدم اتصال احد بهم حيث كان يلقى اليهم بالخبز من فتحات في ابواب الزنزانات.

وفي السليمانية اشار شهود عيان شاركوا في تحرير السجناء، بمديرية الامن الى ان عدد السجناء بالمديرية كان مائة وخمسين شخصاً وانهم عندما فتحوا السجن وجدوا بداخله اربع نساء عاريات معلقات، كما اضافوا ان رجال الامن قاموا قبل اقتحام السجن بقتل سبعة من السجناء وارتدوا ملابسهم للتمويه على العناصر التي قامت بالاقتحام.

كما اشارت تقارير اخرى الى ان اقتحام سجن الحلة اسفر عن اطلاق اعداد كبيرة من الاسرى الكويتيين وبضع مئات من الاكراد. وحسبما اشار شهود العيان فقد لاحظوا آثار التعذيب على كثير منهم. وقد رصدت بعض التقارير ان وقائع الاعدام الفوري التي ارتكبت بحق العديد من المحتجزين خلال ألاضطرابات كانت تجري على مرأى من باقي المحتجزين. ووفقاً لما رواه احد المحتجزين بعد اطلاق سراحه من مركز للاعتقال بالقرب من البصرة، فانه شاهد بنفسه اعدام نحو مائة من المحتجزين معه. وانه خلال ٢٦ يوماً من احتجازه قد تعرض للضرب والصعق الكهربائي. كما اكد على ان الاحوال المعيشية كانت سيئة للغاية نظراً لاكتظاظ المكان بالآلاف من المحتجزين واشار الى انه قد حظر عليهم الطعام والماء.

حرية الاقامة والتنقل:

تمخضت حرب الخليج من جانب، وقمع السلطات العراقية للاضطرابات المدنية من جانب آخر عن اوسع واسرع نزوح للاجئين عرفه العالم في العصور الحديثة. ووفقاً للتقرير الصادر عن المفوضية السامية لشؤون اللاجئين بالامم المتحدة، فقد اسفرت هذه التطورات عن نزوح ما لا يقل عن ١,٥ مليون مواطن عراقي.

وقد قدرت التقارير التي تلقتها المنظمة ان نحو ١,٢ مليون من الاكراد العراقيين قد اضطروا الى الفرار صوب الحدود التركية والايرانية والسورية. وقد واجه النازحون مخاطر الموت الجماعي الذي اشارت التقارير الى تعرضهم له سواء من خلال اعمال القصف التي قامت بها الطائرات العراقية عبر الطرق التي سلكها النازحون، أو نتيجة لعمليات القصف التي قامت بها الطائرات التركية لبعض مواقع تجمعهم في سياق ادعاءاتها بملاحقة حزب العمال الكردي الانفصالي، فضلاً عن المحنة التي واجهها النازحون بسبب نقص الغذاء وانتشار الاوبئة وما فرضته الاعمال العسكرية من تعطيل لجهود الاغاثة الدولية.

وقد اصدر مجلس الامن قراراً في ١٩٩١/٤/٦ ادان فيه قمع السكان المدنيين، ودعا العراق الى السماح للوكالات الانسانية الدولية بالوصول الى المدنيين وتوفير كل الامكانات الضرورية لها. وتشير بعض المصادر الطبية الى ان نحو ٦٧٠٠ من الاكراد العراقيين الذين فروا الى الحدود التركية قد قتلوا خلال شهري ابريل / ايار، وان ٦٣٪ من الضحايا كانوا من الاطفال. وقد فسرت الحكومة العراقية هذا النزوح الواسع بان المشاركين في الاضطرابات قد اكرهوا مجموعات من السكان على

النزوح الى الدول المجاورة وذلك بايهامهم بمزاعم غير صحيحة عن الاجراءات التي يمكن ان تتخذها السلطات ضد هؤلاء السكان.

واوضحت الحكومة انها قد اتخذت اجراءات متوازية داخلية ودولية لاعادة النازحين الى مساكنهم، فعلى المستوى الدولي وقع العراق مذكرة تفاهم في ٩١/٤/١٨ مع الامير صدر الدين اغاخان،المندوب التنفيذي للامين العام للامم المتحدة، عبر فيها العراق عن ترحيبه بجهود الامم المتحدة لاعادة النازحين وفيما يتعلق بالاجراءات الداخلية فقد تمثلت ابرز هذه الاجراءات في قرارات العفو السابق الاشارة اليها. وقد اسفرت هذه الاجراءات عن عودة اكثر من نصف مليون شخص حتى اغسطس /آب ١٩٩١.

وفيما اكد تقرير المفوضية السامية لشؤون اللاجئين عودة نصف مليون من النازحين العراقيين، فانه اشار الى انهم لم يستقروا بعد في مناطق سكنهم الاصلية، وان كانوا موجودين داخل العراق. وعلى ما يبدو فان السلطات قد حالت في بعض الاحيان بين العائدين أو المحتجزين الذين اطلقت سراحهم والالتحاق بأسرهم في مناطق اقامتهم الاصلية، حيث اشارت بعض التقارير الى ان اعداداً كبيرة من المحتجزين بسجن الرمادي قد اخطروا بانه من المحظور عليهم الالتحاق بعائلاتهم في كركوك وخيروا بين الاقامة في اربيل أو السليمانية.

وقد اكد تقرير المقرر الخاص انه لايزال هناك حوالي ٨٣٠٠٠ عراقي بمخيمات اللاجئين بايران، و٣٣٠٠٠ آخرين بالمملكة العربية السعودية.

وحول ما اثاره تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان للعام ١٩٩٠ بشأن ظاهرة التهجير القسري للاكراد بهدف تغيير الوضع الديموجرافي للمناطق الكردية، فقد افاد جواب الحكومة العراقية على هذا التقرير بانها قد اتخذت اجراءات تستهدف ابعاد المدنيين عن مناطق العمليات العسكرية خلال الحرب العراقية ـ الايرانية والحيلولة دون استخدام الاراضي الحدودية لاعمال التسلل، وفي هذا السياق، فقد اقامت منطقة حدودية خالية من السكان داخل الحدود العراقية وعلى طول الحدود المشتركة مع ايران وتركيا، وان ذلك لم يكن مقصوراً على منطقة كردستان، بل شمل كذلك المحافظات الوسطى والجنوبية. وبموجب هذا الاجراء فقد نقل سكان هذه المناطق الى مجمعات سكنية حديثة وتم تعويض العائلات ليتمكنوا من تشييد منازل جديدة لهم. واضاف رد الحكومة انه قد صدرت تعليمات في ١٩٩١/١/١٤ تضمنت تقليص محرمات الشريط الحدودي الى اقل حد ممكن، واعادة النظر بها بصورة دورية.

اما فيما يتعلق بما اثاره التقرير بشأن اتساع حالات الابعاد للمواطنين بدعوى انهم من ذوي الاصول غير العراقية، فقد اوضح جواب الحكومة ان العراق كان موطناً لاقامة اعداد كبيرة من الايرانيين قبل الحرب العراقية ـ الايرانية، وانهم قد تعاونوا مع النظام الايراني بعد رحيل الشاه وقاموا بأعمال ارهابية، الامر الذي اصبح معه وجودهم يمثل تهديداً لامن العراق. واضاف الرد بأن ما قام به العراق تجاههم يدخل ضمن صلاحياته وينسجم مع قواعد القانون الدولي.

وقد تلقى المقرر الخاص رداً مماثلاً من الحكومة العراقية على الادعاءات التي اثارتها مذكرته

بشأن ابعاد اعداد كبيرة من العراقيين بسبب ارتباطاتهم الاثنية . وقد لفت المقرر الخاص في تعقيبه على رد الحكومة ان اجراءات الابعاد التي تقول الحكومة انها اتخذتها بحق مواطنين من اصول ايرانية بسبب تورطهم في اعمال تضر بأمن البلاد، لا يسمح بها إلا اذا كانت هناك ادلة اثبات في كل حالة على حدة ، وان مخالفة ذلك من شأنه ان يشكل حالة متطرفة من التجريم بالتبعية.

حرية الرأي والتعبير:

لاتزال حرية الرأي والتعبير بالعراق تخضع لقيود صارمة مشددة. ولا يخفف من هذه القيود التي اوردها تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان عن العام ١٩٩٠، ما اشار اليه جواب الحكومة على التقرير، من ان حركة النشر والتعبير قد اتسعت برغم ظروف الحرب العراقية ـ الايرانية، وانه قد تأسس العديد من المحافل الادبية والصحفية والفنية بهدف تنمية الحركة الفكرية والثقافية في مختلف الميادين، وان الاقليات القومية الموجودة بالعراق لها مطبوعاتها ونشراتها المختلفة وباللغات التي تتحدث بها.

فقد ظلت القوانين والتشريعات العراقية تفرض عقوبات مغلظة «للعيب في ذات الرئيس» أو في مختلف هيئات أو رموز السلطة، ويبرز في هذا الصدد احكام مرسوم مجلس قيادة الثورة رقم ٨٤٠ لعام ١٩٨٦ ، والذي يحدد عقوبات شديدة تصل الى الاعدام ازاء جملة امور من بينها توجيه افتراءات أو اهانات بحق رئيس مجلس قيادة الثورة أو من يمثله أو مجلس قيادة الثورة أو حزب البعث أو المجلس الوطني والحكومة، وبموجب ما اعلنته الحكومة العراقية فقد حوكم بموجب هذا القرار ٤٦٣ شخصاً وصدرت بحقهم عقوبات سالبة للحرية ، وانه قد اطلق سراحهم بعد شمولهم بقرارات العفو.

وفيما يتعلق بحرية ممارسة الشعائر الدينية فقد عكست التقارير اضطهاد اعداد من القادة الدينيين والعلماء والطلاب على نطاق واسع ، واغلاق مراكز للتعليم والعبادة وتدمير بعض المدارس والمساجد والمزارات. فقد اشارت التقارير الى ان السلطات قد فرضت قيوداً على زيارة الاماكن المقدسة بالنجف وكربلاء، وعلى صلاة الجماعة بهذه الاماكن، كما حظر على علماء الشيعة ارتداء زيهم التقليدي واداء واجباتهم الدينية. وقد اضافت التقارير لذلك ما يشير الى حظر ما يزيد على ١٠٠٠ كتاب من الكتب الدينية، وان المخطوطات والكتب الدينية في عدة مكتبات قد حرقت أو دمرت عمداً ، ويبرز في هذا الاطار ايضاً سلب ضريح الامام علي بالنجف واستيلاء الجيش العراقي على جميع التحف والمجوهرات والمخطوطات بداخله ، وضرب ضريح الامام الحسين في كربلاء بالقنابل واصابته بأضرار بالغة، وتدمير مدرسة الشيعة الوحيدة في سامراء ثالث المدن الشيعية المقدسة واختفاؤها من الوجود.

ووفقاً لما ذكرته الحكومة العراقية في معرض ردها على مذكرة المقرر الخاص فقد اشارت الى ان الدولة تشمل برعايتها علماء الدين والطلاب والمدارس والمساجد والمراقد المقدسة. واتهمت الحكومة عناصر ايرانية وأخرى مدربة في ايران بالتسلل للعراق خلال الاضطرابات واشاعة

التخريب والفوضى حتى في الاماكن المقدسة، وألقت بالمسؤولية على هذه العناصر في تخريب هذه المرافق ونهب محتوياتها واحراق بعضها، كما اشارت الى ان مدرسة دار الحكمة التابعة للسيد الخوئي وحسينية الخوئي في كربلاء، ومدرسة القزويني التي يشرف عليها الخوئي قد دمرت خلال المواجهة المسلحة بين ما وصفتهم بالمخربين وقوات الجيش العراقي.

وفي تعقيبه على رد الحكومة اكد المقرر الخاص انه من الصعب عليه ان يقتنع بأن الشيعة المحليين يرتكبون بمساعدة الشيعة الايرانيين تلك الافعال التي نسبتها اليهم الحكومة من تدمير وتخريب لاقدس اماكنهم المقدسة.

وقد اوضح تقرير المقرر الخاص بالعراق ان السلطات عمدت على مدى سنوات طويلة الى ملاحقة رجال الدين الشيعة، وقد ادى هذا الى انخفاض عددهم في النجف من ثمانية أو تسعة آلاف منذ عشرين عاماً الى ٨٠٠ فقط قبل وقوع أحداث مارس /آذار ١٩٩١، ويُدّعى انهم اصبحوا جميعاً في الوقت الراهن إما رهن الاعتقال أو مختفين، ويرجح ان آلاف العراقيين الآخرين في الجنوب قد لاقوا نفس مصير رجال الدين، حيث قدر عدد المعتقلين في جنوب العراق بمائة وخمسين ألف شخص منهم ١٥ ألف في النجف وحدها.

اوضاع الجالية المصرية بالعراق:

ظلت التقارير والشكاوى التي تتلقاها المنظمة العربية لحقوق الانسان وفرعها بمصر ترصد تعرض المصريين العاملين والمقيمين بالعراق الى مشكلات عديدة، بدا بعضها استمراراً للمشكلات النوعية التي تتعرض لها الجالية المصرية خلال السنتين الاخيرتين، وان ازدادت تفاقماً في ظل اندلاع أزمة الخليج في اغسطس /آب ١٩٩٠ والخلافات السياسية بين الحكومتين المصرية والعراقية بسبب هذه الازمة، والافتقاد الى وجود بعثة لرعاية مصالح الجالية المصرية بعد قطع العلاقات بين البلدين واغلاق السفارة المصرية قبيل نشوب الحرب.

وقد كانت مشكلات الجالية المصرية ـ التي تقدر الحكومة العراقية اعدادها بنحو ٩٩ ألف مواطن ـ واحدة من القضايا الهامة التي طرحتها بعثة المنظمتين العربية والمصرية لحقوق الانسان خلال زيارتها للعراق في ديسمبر /كانون الاول ١٩٩١. وقد التقت البعثة بهذا الخصوص بالمسؤولين العراقيين ذوي الاختصاص بوزارات الخارجية والداخلية والسفارة الهندية بالعراق التي يفترض ان ترعى مصالح جمهورية مصر العربية هنالك. كما التقت والعديد من أبناء الجالية المصرية من فئات اجتماعية مختلفة، ومسؤولي مكتب الصليب الاحمر في بغداد الذين تولوا لبعض الوقت نقل جوازات سفر العاملين والمقيمين المصريين في العراق الى الاردن لتجديدها بمعرفة القنصلية المصرية بعمان.

وقد عرضت البعثة على المسؤولين العراقيين ما توافر لديها من معلومات حول عمليات الترحيل الفوري للمصريين وعدم اتاحة مهلة كافية لهم لتمكينهم من تسوية أوضاعهم المالية والعائلية، والاجراءات التي تصاحب الترحيل عادة، وتشمل احتجازهم في سجون التسفيرات وما

ينطوي عليه ذلك من تعريضهم للايذاء البدني أو المعنوي، اضافة الى احتجاز اعداد منهم بالسجون العراقية المختلفة، وما تردد من ان اعداداً من العاملين المصريين قد ألقي القبض عليهم لتواجدهم في مواقع الاضطرابات بالجنوب، وما اشيع عن تعريض بعضهم للتعذيب ووقوع حالات للوفاة من جراء ذلك فضلاً عن ان اعداداً منهم لاتزال رهن الاعتقال دون محاكمة. كما اثارت البعثة لدى السلطات العراقية ان آلافاً من المصريين العاملين بالعراق قد انقطعت كافة اتصالاتهم بأسرهم في مصر وأصبح مصيرهم مجهولاً. وقدمت البعثة بهذا الصدد قائمة تتضمن معلومات عن اكثر من ثمانين من هذه الحالات انقطعت صلات معظمهم بذويهم منذ بدء ازمة الخليج. كما طلبت البعثة من السلطات العراقية قائمة بأسماء المسجونين والمحتجزين المصريين داخل السجون ومراكز الاحتجاز العراقية. وناقشت المسؤولين العراقيين في ظاهرة تعدد الوفيات غير الطبيعية بين المصريين، وطلبت من السلطات قائمة بأسماء المتوفين في العراق وبيان ظروف وفاتهم وتقارير الطب الشرعي بالنسبة لحالات الوفاة غير الطبيعية، وبيان ما تم من اجراءات قانونية بالنسبة للقتلى منهم.

وقد نفى المسؤولون العراقيون تعريض الجالية المصرية لأية معاملة سيئة وتلوا على مسامع البعثة نص توجيه رسمي للرئيس العراقي موجه للاجهزة العراقية يدعو لحسن معاملة المصريين ويفصل بين الخلافات السياسية بين حكومتي البلدين ومعاملة المواطنين المصريين. واكد المسؤولون ان المصريين يتمتعون بمعاملة مساوية لمعاملة العراقيين حتى في نظام توزيع الحصص التموينية، كما وعدوا بتزويد البعثة بقائمة المصريين المسجونين أو المحتجزين داخل سجون العراق وأسباب اعتقالهم. كما وعدت السلطات بأن تزود البعثة بأية معلومات قد تتوصل اليها حول من انقطعت اخبارهم، غير ان البعثة لم تتلق رداً على طلبها الخاص بزيارة سجن التسفيرات ببغداد.

وقد تأكدت البعثة من خلال الاتصالات التي اجرتها من ان ابرز المشكلات التي يعاني منها المصريون حالياً تتمثل في:

أ ـ غياب الخدمات القنصلية وما يترتب عليها من مشكلات قانونية وخاصة بالنسبة للمصريين الذين انتهت صلاحية جوازات سفرهم، ومن ثم بطاقات هوياتهم العراقية، الامر الذي يدفع باتجاه ترحيلهم وتعريضهم للايذاء البدني والمعنوي داخل سجون التسفيرات. وقد اكد المسؤولون العراقيون في هذا الصدد الحاجة الملحة لوجود بعثة رسمية لرعاية مصالح المصريين، كما اكدوا انهم قد عرضوا العديد من الحلول مع الحكومة المصرية لحل هذه المشكلة، كما ذكر سفير الهند بالعراق ان سفارته لم تتلق أية اتفاقيات رسمية تتعلق برعاية المصالح المصرية في العراق. وانهم تعرضوا لمشكلات نتيجة تدفق المواطنين المصريين على السفارة لحل مشكلاتهم القنصلية، ولم يتمكنوا من تقديم المساعدة في هذا الشأن لعدم توفر اتفاق رسمي وموظفين مصريين لاداء المهام المطلوبة في اطار مثل هذا الاتفاق. كما اوضح مسؤولو مكتب الصليب الاحمر الدولي في العراق انهم تولوا في فترة من الفترات نقل جوازات سفر المواطنين المصريين الى عمان لانجاز المعاملات

الخاصة بها خروجاً على نطاق مهمتهم نظراً للاعتبارات الانسانية المتعلقة بهذا الموضوع، غير انهم توقفوا عن ذلك في اطار تنبيه مخالفة هذه المهمة لحدود دورهم.

وقد ناشدت البعثة في هذا الصدد السلطات العراقية في تمديد هوية الاقامة للمواطنين المصريين ـ بغض النظر عن تاريخ صلاحية جوازات سفرهم ـ وذلك لحين الانتهاء من الاتفاقات المتعلقة برعاية المصالح مع الحكومة المصرية. وتلقت المنظمة بالارتياح ـ بعد عودة البعثة ـ قراراً صادراً عن مجلس قيادة الثورة العراقي يقضي بتمديد اقامة المصريين بالعراق دون التقيد بانتهاء جوازات سفرهم، وذلك لمدة شهر كبادرة للمساعدة في تذليل المشكلة لحين الوصول الى اتفاق مع الحكومة المصرية.

ب ـ ان مشكلات التحويلات المالية للعاملين المصريين لاتزال قائمة وخاصة مع وقف التحويلات كلياً نتيجة للحصار الاقتصادي. وقد ترتب على ذلك تورط بعض ابناء الجالية المصرية في تحويلات غير قانونية، وهو ما استتبع مصادرة هذه التحويلات وتعريض المتورطين فيها للعقوبة، كما ان محاولات بعض المصريين في الخروج بمدخراتهم في صورة سلع اسفر بدوره عن مصادرة هذه السلع على المنافذ الحدودية.

ج ـ افاد المصريون العاملون بالعراق بان مشكلة الاتصال بالوطن من المشكلات الملحة، ويتردد بينهم ان العراق قد اعاد الاتصال بمصر وان الاخيرة هي التي ترفض استقبال هذه الاتصالات.

أما فيما يتعلق بتزايد حالات الوفاة غير الطبيعية بين المصريين بالعراق والتي كانت مثار قلق عميق لدى المنظمة العربية لحقوق الانسان في السنوات الاخيرة، فقد حرص المسؤولون العراقيون على التأكيد بان هناك مبالغات بشأن اعداد المصريين الذين يلقون حتفهم في العراق، وانهم كانوا يقدمون كافة المعلومات المتوافرة لديهم عن حالات الوفاة غير الطبيعية والتي وقعت نتيجة حوادث مختلفة الى الحكومة المصرية اولاً بأول حتى يناير /كانون الثاني ١٩٩١. وزودوا البعثة بقوائم عن حالات الوفاة التي حدثت بين المصريين خلال العام ١٩٩٠ وتتضمن ٤٥١ حالة وفاة بالمقارنة بـ ١١٣٦ حالة في العام ١٩٨٩. وقد لوحظ في هذا الصدد وجود تضارب في هذه البيانات مع جواب السلطات العراقية على تقرير المنظمة الصادر في العام الماضي والذي حدد وفيات المصريين في عام ١٩٩٠ بـ ٢٣٢ حالة. كما تكشف دراسة هذه القوائم ان اغلب الوفيات لم تكن أسباب وفاتهم طبيعية، وتتضمن حالات للقتل أو الغرق أو الاعدام أو الصعق الكهربائي أو في حوادث تصادم أو حوادث اثناء العمل. كما كان مثيراً لقلق البعثة ما تلاه السيد مستشار وزير الداخلية العراقي عن آخر تقرير اعدته السلطات العراقية بشأن وفيات المصريين في يناير /كانون الثاني ١٩٩١، حيث اورد التقرير ١٥ حالة للوفاة، من بينها ١١ حالة وفاة غير طبيعية. وقد فسر المسؤولون تزايد هذه الحالات في اطار ما اوردوه من ان المصريين يقبلون على العمل في قطاعات معينة يزعمون خبرة سابقة فيها فيترتب عليها حوادث عديدة مثل الصعق الكهربائي والسقوط من أماكن مرتفعة.

وفي الوقت الذي ابدت فيه السلطات العراقية نوعاً من التجاوب مع طلبات البعثة، وهو ما تمثل في تمديد اقامة المصريين الذين انتهت جوازات سفرهم، وفي مد المنظمة ـ بعد عودة البعثة ـ بقائمة السجناء من المصريين بموجب احكام قضائية والتي شملت ١٥٤ شخصاً، وتقديم المعلومات التي تحصلت عليها بشأن عشرين حالة ممن انقطعت اخبارهم عن ذويهم والوعد بموافاة المنظمة بنتائج التحريات التي تقوم بها الجهات المختصة بشأن الباقين. فان المنظمة لاتزال تتطلع لتلقي مزيد من الايضاحات بشأن المحاكمات التي جرت للمواطنين المصريين ومدى توافر الضمانات القانونية فيها، وبشأن المحتجزين من المصريين بموجب قرارات ادارية. كما يثير قلقها انها لم تتلق بعد شهادات الطب الشرعي الخاصة بالوفيات غير الطبيعية بين المصريين، أو أية ايضاحات من السلطات بشأن الاجراءات التي اتخذتها للتحقيق في هذه الحالات، وخاصة ما يتعلق منها بالقتل العمد ومحاكمة المتورطين فيه.

وقد قامت المنظمة بمخاطبة السلطات المصرية ووضعت تحت نظرها مذكرة تفصيلية بالمشكلات الاساسية للجالية المصرية بالعراق، وأكدت فيها على ان غياب الخدمات القنصلية يعد قضية محورية في كثير من هذه المشكلات التي تتطلب اجراء عاجلاً لمواجهتها. واعربت المنظمة عن استعدادها للتعاون مع السلطات من أجل تذليل هذه المشكلات.

---

(١) تتضمن الوثيقة رقم A/46/647 بتاريخ ١٩٩١/١١/١٣ والصادرة عن الجمعية العامة للامم المتحدة التقرير المؤقت الذي اعده المقرر الخاص بالعراق وضمنه نص المذكرة التي تقدم بها للحكومة العراقية ورد الحكومة عليها.

عزيزنا القارىء

نحييك، أجمل تحية، في مطلع العام الجديد، ومعك نجدد الأمل بخلاص شعبنا من المحن المتفاقمة، فتنتهي غربة المهجرين والمهاجرين اضطراراً.

ان مطبوعاتنا بحاجة متزايدة الى دعمك المالي، كي تواصل دورها في العمل من أجل عراق ديمقراطي. فهي تباع في الوطن بحوالى خمس كلفتها الحالية. ومهما ضاعفنا سعرها على القارىء، المرهق بالضائقة المعيشية، فانه لا يعوض الكلفة المتصاعدة.

لقد ساعدنا مردود التوزيع في بعض بلدان المهجر على تلافي جزء من الخسائر. لكن اجرة البريد على المطبوعات قفزت مؤخراً الى حوالى خمسة أمثالها.

ان حجم الخسائر بات يفوق طاقات حزبنا المالية في الوقت الحاضر. فاضطررنا الى اصدار المجلة كل شهرين ورفع سعر بيع المطبوعات الى أضعاف ما كان عليه. وإذ نأسف لذلك، ندعو القراء الى حملة جديدة من التبرعات، لاسيما في ديار الغربة، كي تصل مطبوعاتنا، بخسارة أهون، الى القراء في الوطن.

أواخر كانون الأول ١٩٩٢

اعلام الحزب الشيوعي

ملاحظة: يمكن تسليم التبرعات والاشتراكات الى منظمات حزبنا أو تحويلها الى حساب مجلة (الثقافة الجديدة) كما يلي:

AL - THAKAFA AL - JADIDA
a/c 466184 /12
Banque Libano - Francaise
Bar - Elias, Lebanon

بدل الاشتراك السنوي	دولار أو ما يعادله
مجلة الثقافة الجديدة	٤٠
جريدة طريق الشعب	٢٠
جريدة ريكاي كردستان	٢٠
نشرة المتابعة	١٠


أدب وفن

من اجل الابداع والحرية

هذا نداء وجهه شاعرنا الكبير سعدي يوسف أثناء زيارته الى كردستان، ارتأينا أن يكون مفتتحا لـ (أدب وفن).. مفتتحا يتوقع الجديد الطيب في العام الجديد:

إلى مبدعي وطني ومبدعاته
إلى شعرائه، وكتابه، ومسرحييه
إلى فنانيه
مغنيه وموسيقييه
إلى مهندسي بيوته وبُناة قناطر الناس ودروبهم
إلى علمائه وباحثيه
إلى رياضييه، احتفاء الجسد..
إليكن جميعاً، يابنات وطني
وإليكم جميعاً، ياأبناء وطني..
هذا النداء، ندائي:

إني أتابع، عن قرب حميم، وأناة تعرفونها، نضالكم، الناطق حيناً، الصامت العميق أحياناً.. أتابعه، ياإخوتي في الإبداع ونشدان الحرية، وأشدُّ على أيديكم، وأنتم

تقاومون بوسائل شتى، هذا الهول الذي أراد أن يقتل كل ماهو حر ونبيل ومبدع فيكم، هذا الهول الذي اتخذ إهانتكم وإذلالكم، أنتم بالذات، طريقاً أول لإهانة الشعب كله وإذلاله.

لكن ربع القرن الدامي، الذي كنتم أول ضحاياه، يشهد ساعاته الأخيرة. إنه يتداعى، لحظة إثرَ لحظة، وليس بعيداً، البتة، ذلك الفجر.. حين ينهار الهول وصانعوه الأراذل، مثل هشيم تذروه الرياح.

أنتم ياإخوتي في الإبداع والحرية، المؤهّلون لتشييد وطن أبهى، حيث المواطن أجمل.

ولكُنّ، ياصديقاتي في الفن والانعتاق، حبٌّ من يعرف ماذا تفعلن هذه الأيام..

أنتم، ياإخوتي في النضال، صامتاً ناطقاً، المؤهلون لتضميد جراح الروح..

قاوموا الهول، إذن..

قوموا في وجهه، وجه الموت المتعفن.

أعلنوا أن الثقافة الوطنية لن تكون إلا ديمقراطية..

لن تكون إلا الساحة الوسيعة حيث تتراقص الأضواء، والألوان.. الساحة الوسيعة حيث سنلتقي..

سعدي يوسف

السليمانية ١١/ ١٠/ ١٩٩٢

وثيقة

تقرير عن بغداد قبل مئة سنة!

اختيار وتقديم : عامر بدر حسون

كيف كانت بغداد قبل مئة سنة؟
كم كان عدد سكانها وبيوتها ومدارسها ومقاهيها؟
ما هي صادراتها ووارداتها، وما هي زراعتها وصناعتها؟
كيف كان إيقاع الحياة فيها قبل مئة سنة؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما تجيب عليه الوثيقة التالية، وهي عبارة عن تقرير كتبه مراسل مجلة الهلال المصرية في بغداد، قبل مئة عام. وقد نشر في المجلة على حلقتين في العددين ١١ و١٢ من السنة الأولى (في شهري تموز وآب ١٨٩٣).

هل هذه الوثيقة مهمة؟

نترك تقدير الأمر للقراء، فالباحث قد يجد فيها مادة وثائقية تغني بحثه ودراسته، والقارىء المنشغل بجوع بغداد، والعراق، هذه الأيام، قد يجد بعض السلوى والمواساة في استرجاع أسماء محاصيلها الزراعية الوفيرة يومذاك. وفي كل الأحوال فإن أية إطلالة على الماضي القريب أو البعيد للبلاد، والتأمل في الحالة التي آلت إليها على يد صدام حسين، ستجعل من المقارنة بين الحالين عملاً مؤلماً، خصوصاً وأن المئة سنة الماضية كانت شاهداً على انتقال البشرية من استخدام الحجر إلى استخدام القمر.

ومن المفارقات المؤلمة أن بغداد وقد تحررت من العثمانيين والإنكليز لايمكن أن يخرج منها اليوم تقرير يلخص حالتها ويقدّم معلومات وافية عنها كما فعل تقرير محمد أفندي درويش قبل مئة سنة من اليوم، فكل معلومة صارت في نظر السلطة الحالية سراً

عسكرياً،بدءاً من الدخل القومي وانتهاء بالنشرة الجوية، كما حصل في السنوات العشر الأخيرة (المفارقة الأخرى أن هذه المعلومات مازالت محرّمة حتى في زمن تسليم سلطة صدام حسين أسرارها العسكرية لقوات التحالف!).

«إذا التفتت إليها الحكومة أيدها الله وحفرت جداولها وعمّرت خرابها وعلّمت سكانها وكفّت أيدي الجائرين عنها زادت عظمتها حتى يعود إليها جمالها الأصلي». .

بهذه الكلمات ختم محمد أفندي درويش تقريره في الهلال عن حال بغداد قبل مئة سنة، والمؤلم المؤلم هنا أن مهمة قديمة كهذه مازالت ماثلة، كمهمة عاجلة، أمام أي حكومة تتولى إعمار ماخرّبه صدام حسين!

فيما يلي نص التقرير كما ورد في الهلال، وقد رأينا الإبقاء على لغته وأسلوبه وحتى أخطائه النحوية والإملائية، كما وردت في النص الأصلي، مع المقدمة التي كتبها جرجي زيدان صاحب الهلال:

«ورد علينا من جناب وكيلنا الفاضل (رفعتلو محمد أفندي درويش معاون محاسبة نظارة الديون العمومية في بغداد) مقالة مسهبة في تاريخ تلك المدينة مع شرح حالها الحاضرة إجابة لالتماسنا في الهلال السابع وقد كنا نود أن نتحف القراء بدرج تلك المقالة النفيسة برمّتها لما جمعت من الفوائد الثمينة ولكننا نظراً لأننا ذكرنا ملخّص تاريخ تلك المدينة في ذلك الهلال اكتفينا بدرج ماجاء به حضرته من وصف حالها الحاضرة. . ويظهر للمطالع أن حضرة الكاتب قد أحاط بالموضوع من جميع جهاته وأجاد في التبويب والوصف والتدقيق فنقدم لحضرته خالص الثناء ونشكره على هذه الخدمة النفيسة. قال:

بغداد وحالتها الحاضرة

«بغداد الحاضرة على ضفتي دجلة في عرض شمالي ٣٣ درجة و١٩ دقيقة و٥٥ ثانية وطول شرقي ٤٢ درجة ودقيقتين و١٥ ثانية فيقسمها إلى شطرين ويسمى الجانب الشرقي منها بالرصافة ويحدّه شمالاً سهلٌ واسع وجنوباً نهر دجلة وشرقاً أرض كرادة ونهر ديالة وغرباً قصبة الأعظمية (وفيها مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه). ويسمى الجانب الغربي بالكَرْخ ويحده شمالاً نهر دجلة وجنوباً نهر المسعودي ونهر الخرّ وشرقاً ملتقى نهر الخرّ ودجلة وغرباً قضاء الكاظمية (وفيها مرقد الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه) وبالكرخ كان قصر المنصور وبالرصافة مقر الرشيد ومن وليهُ وكان له

بها قصر عظيم. وهو الذي وضع لها هذا الاسم. وأهل بغداد يعبرون النهر على جسر طوله ٢٥٠ متراً مركب من زوارق مربوط بعضها ببعض وهم يمرون عليه ليلاً ونهاراً وفيه يقول الشاعر:

أيا حبذا جسر على متن دجلة	بإتقان تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهة	وسلوة مَن أضناه فرط التشوّق
تراه إذا ماجئته متأملاً	كسطر عبير خط في وسط مهرق
أو العاج فيه الآبنوس مرقشٌ	مثال فيول تحتها أرض زيبق

وهي الآن من أشهر مدن العراق وأعظمها ذات أبنية جميلة وعمارات فاخرة ولاسيما الجوامع منها والمساجد والمدارس والكنائس والمكاتب والأبنية الأميرية بأجمعها وبيوت الأغنياء وبيوت بعض الأجانب فإنها مما تسر القلوب وتشرح الصدور. وهي ولاية قائمة باسمها. وألويتها وقضاآتها التابعة لها ١٦ وهي الحلة وكربلاء وبعقوبة وخانقين ومندلي وكوت الإمارة وكاظمية وسامراء ودليم وعانات ونجف ومسيّب وهندية وديوانية وسماوه وشامية.

وبناء بغداد من الآجر والجص والرماد الأسود والنورة والطين وفيها الزجاج بأنواعه. ويأتيها المرمر والخشب من الهند والموصل. وتُرى عن بعد من أجمل المدن وألطفها منظراً وقد رُكّب داخلها على النهر أنابيب حديدية تحت الأرض تجري منها المياه إلى بعض الدور وتصبُّ في برك لتسقي الجنائن والحدائق وغير حديدية تجري إلى حماماتها وتسقي بساتينها وفي بعض البساتين نواعير لطيفة..

وكان القسم الشرقي من هذه المدينة محاطاً بسور حصين مسافته سبعة آلاف متر وأمامه خندق وعليه عدة أبراج وكان يبلغ ارتفاعه ماينيف على مئة قدم وقد هدمه مدحت باشا واليها الأسبق وذلك في سنة ١٢٨٥ هجرية.. وهذا السور بناه الخليفة أحمد الناصر لدين الله العباسي سنة ٦١٨ للهجرة كما يتضح من الكتابة الموجودة على موضع منهُ بديع الشكل غريب الوضع محكم البنيان يسمي (الطّلسم) وهو أحد أبواب المدينة سابقاً وهو موجود إلى الآن وقد اتخذته الحكومة محلاً مخصوصاً لحفظ البارود وأقامت حوليه قضيبي الصاعقة. وهذه هي الكتابة:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. وإذْ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. هذا ما أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين ولا زالت دعوته الهادية على بقاع الحق مناراً والخلائق لها أتباعاً وأنصاراً وطاعته المفترضة للمؤمنين إسماعاً

وإبصاراً. وافق الفراغ في سنة ثمان عشرة وستمئة وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين﴾.

وهواء بغداد جاف سليم ولكن يحدث في بعض السنين أضرار مهلكة وذلك بسبب فيضان دجلة وكثرة المياه التي تكتنفها. فمعدل الحر فيها ٤٦ درجة فوق الصفر ومعدّل البرد درجتين تحت الصفر بميزان سنتكراد. وأهلها يسكنون صيفاً سراديب لطيفة تحت الأرض لشدة الحر نهاراً ويرقدون فوق السطوح ليلاً.. ويشربون من ماء دجلة العذب ويجعلونه في آنية من الخزف اللطيفة فيبرد فيها.. ويبلغ عدد سكانها الآن ١٤٩٩٤١ نفساً منهم ١٢٤٤٥٩ مسلماً و١٢١٨٢ يهودياً و٢٧٧ رومياً و٤٠٨ أرمنياً و٩٢٢ كاثوليكياً و٢٥ بروتستانتياً و٥٤٨ لاتينياً وهم لفيف من أجناس مختلفة كالعرب والعجم والأتراك والهنود والأكراد والإفرنج وغيرهم.. ولم تزل أرجل الضيوف والزوار تطأها أفواجاً أفواجاً من كل ملة وقبيلة ولا سيما العجم الذين يمرون فيها في زياراتهم إلى الإمام موسى الكاظم والإمام محمد الجواد رضي الله عنهما ومنهما إلى كربلاء ونجف وسامراء لزيارة الإمام الحسين وأبيه الإمام علي بن أبي طالب والأئمة الاثني عشر رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأهلها على جانب عظيم من رقة الخاطر ومحبة الغرباء. والنصارى فيها خاصة متخلقون أخلاقاً افرنجية في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم وزياراتهم رجالاً ونساء.

﴿تجارتها﴾ أما تجارة بغداد فتتصل بإيران وتركستان وجزيرة العرب والهند وأوروبا. وصارت السلع بعد فتح نزعة السويس تأتيها غالباً عن طريق البصرة بواسطة الوابورات والسفن الشراعية وتأتيها الذخائر والأخشا والمرمر وغير ذلك من الموصل بأطواف (كلاك) مؤلف الواحد منها من ٦٠٠ إلى ١٢٠٠ زق. وكما أن رأس تجارتها كان محصوراً في الصوف والعفص والكتان والدمقس والكثيراء والشالات والبسط والسجادات وغير ذلك صار منحصراً في هذه الأيام عند بعض التجار ومحبي الاحتكار في الحنطة والشعير والدخن والأرز والسمسم والذرة والهرطمان والعدس والماش والحمص والفول والسمن وغيره..

﴿صناعتها﴾ وأما صناعتها فقائمة في الأكثر على حياكة أزر الابريسم المحلاة بالسرمة منسوجة مع الابريسم والأعبية (مفردها عباءة. والعامة تقول عباية) الصوفية والإبريسمية بأنواعها. وعلى دبغ السختيان وصبغه أحمر وأصفر وأسود وعمل النصول والسروج والهميانات اللطيفة التي ليس لها مثيل. وعلى الصباغة والصياغة والسكافة والخياطة والحدادة والنجارة وعمل الخزف والآجر.. في بغداد تعمل الأجرار والأباريق الفاخرة والبراميل اللطيفة من الخزف الأبيض والأخضر والأصفر. ويعمل فيها الزجاج والقناديل والشيش وغير ذلك.

﴿زراعتها﴾ وأما زراعتها ومحصول أرضها والأرض المحيطة بها فالتبغ (ومنه نوع

يقال له شاوَرْ فإنه ذو قيمة وليس له نظير) والتنباك والحنطة والشعير والذرة والدخن والأرز والسمسم والهرطمان والعدس والماش والحمص والفول واللوبياء والقطن والعفص والبلوط والطماطم (بندورة) والقرع والباميا والباذنجان والفجل والخس والجبس والبطيخ والخيار والقثاء والبصل والثوم والبقدنوس والكراث والريحان والكرفس والخردل والرشاد والنعناع والحلبة والسلجم والشمندور والجزر والحمقاء وغيرهما. وفي بساتينها التمر بجميع أنواعه والليمون الحامض والحلو والبرتقان بأنواعه والتاريخ والاترنج والتوت الشامي والعراقي والمشمش والخوخ والسفرجل والعنب الأبيض والأسود والتفاح والأجاص والكمثري والتين والزيتون والرمان بأنواعه وغير ذلك.. وتربة أراضيها جيدة تصلح لأكثر المزروعات ومناخها طيب وماؤها عذب وهواؤها لذيذ رقيق ويكثف أحياناً في الصيف والربيع والخريف.. ومع هذا فإن جزءاً عظيماً من أراضيها قد أقفر لعدم الاعتناء بفلاحته مع أن أهل أكثر ضواحيها فلاحون (البقية تأتي). محمد درويش.

* * *

باب المراسلات

﴿بغداد وحالتها الحاضرة﴾

﴿تابع لما قبله﴾

﴿صادراتها وواردتها﴾ وأما صادرات وواردات المدينة. فصادراتها إلى الهند وبلاد العرب بواسطة البواخر وحلب ودمشق وغيرها بواسطة القوافل وأول وارداتها منسوجات القطن والكتان والجوخ والتيبل والنحاس والسكر والحرير والغزل والسجادات والتنباك والأفيون والصابون والزبيب والبن والشاي والصمغ والكثيراء والعقاقير بأنواعها والفحم الحجري وغير ذلك.

وبلغ رسم الكمرك في سنة ١٢٠٧ المالية الموافقة سنة ١٨٩١ ميلادية، ١٤٤٩٧* ليرة عثمانية منها ١١٦٥٧٨ ليرة رسم الواردات و ١١٤٨١ ليرة رسم الصادرات و ١٤٦٢٦ ليرة رسم الصرفيات الداخلية (أي الأموال التي صرفت داخل الممالك العثمانية) و ٢٢٨٥ ليرة رسم الأرضية، وبلغت واردات الولاية للسنة المذكورة (ماعدا واردات الكمرك والديون العمومية والرزي والتنباك والبوسته والتلغراف والعُمّان) ٢٢٩٤١٧ ليرة عثمانية.

* من الواضح ان في هذا الرقم خطأً كبيراً ـ ث ج

﴿معاملها ومطابعها﴾ في بغداد ثلاث مطابع عمومية إحداها (مطبعة الولاية) وهي أميرية تحت نظارة الولاية الجليلة أنشأها مدحت باشا سنة ١٢٨٥ هجرية وتصدر منها جريدة (الزوراء) الرسمية في الأسبوع مرة واحدة بعد أن كانت مرتين. وفي هذه المطبعة تسع آلات. واحدة منها تحرّك بالبخار واثنتان باليد لطبع الحروف وأربع آلات ليثوغرافيا تطبع على الحجر وآلة واحدة لتحسين الأقمشة وأخرى لعمل ظروف المكاتيب. وتصدر من هذه المطبعة أيضاً (سالنامة والولاية باللغة التركية وعليها كان اعتمادنا في بعض ماحررناه في هذه النبذة. والمطبعة الثانية (الحميدية) أنشئت سنة ١٢٩٩ هجرية وفيها آلة واحدة ليثوغرافيا فقط. وطبع فيها بعض الكتب. والثالثة مطبعة (دار السلام) أنشئت سنة ١٢٠٩ هجرية وفيها آلتان ليثوغرافيا وآلة واحدة للحروف وهي الآن آخذة بجلب ماكينة أخرى كبيرة للحروف وطلب رخصة لإصدار جريدة تدعوها (الدجلة) وهذه المطبعة مستعدة لطبع كل مايطلب منها باللغة التركية والعربية والافرنسية. وتوجد مطبعتان خصوصيتان إحداهما لليهود وأخرى للأرمن القديم يطبع فيهما بالحروف مايتعلق بمصالح جماعتهما. وفي بغداد معملان لتصليح المراكب (الوابورات) ومعمل واحد للبارود وآخر لتصفية ملحه ومعمل واحد واسع جداً يعرف بالإعمالات العسكرية ويقال له أيضاً (عباخانه) يصنع فيه الجوخ والخام والشياق وتنسج فيه الملبوسات من الصوف والقطن بأنواعها اللازمة للعسكرية. وفي هذا المعمل آلات كثيرة لندف القطن والرصوف وغزله وصبغه وغسله وتيبيسه وحياكته وآلة لعمل الفانيلا وأخرى لتنظيف الأرز ومطحنة للدقيق ونخله. كل ذلك بآلات نارية. وتعمل فيه الأحذية والقوندرات والفوتينات وغير ذلك. . ومعمل كبير أيضاً ذو حياض واسعة لدبغ الجلود والسختيان ويسمى (الدباغخانة) وتوجد مطحنة ثانية للدقيق وطلمبة لإخراج الماء من الدجلة وتوزيعه إلى بيوت المدينة. . وماكينة لعمل الثلج في أيام الصيف. ومعمل في جانب الكرخ لإصلاح البنادق والوابورات وغيرها يقال له (الدميرخانة) وفي الرصافة سبع ماكينات لحزم بالات الصوف. واثنتان لكي الثياب والأنسجة وغير ذلك. .

﴿محتوياتها﴾ وفي بغداد ١٨٠١٧ بيتاً و١١٨ خاناً و٢٢٤٤ دكاناً و٢٥ حماماً و٤٩ جامعاً و٦٧ مسجداً و٢٧ مدرسة و٦ رباطات (تكية) و١٧ سنبيلخانة وموقت خانة واحدة و٦ معابد للنصارى و٢٥ معبداً لليهود و١٨٤ قهوة و١١ مغازة و١٢٤ علوة (محل واسع مخصوص لبيع الذخائر) و١١ اجزاخانة (صيدلية) و٦٨ مصبغة و٢ شكرخانة و٢٤ مكتباً للأطفال و٤لوقندات وبنكان الأول بنك (الشهنشاهي) افتتح في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢٠٧ هجرية ١٦ تموز سنة ١٨٩٠ ميلادية والثاني بنك (العثماني) افتتح ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢١٠ هجرية ١ كانون الأول سنة ١٨٩٢ ميلادية. وسكة حديدية طولها ثلثا

ساعة تمتد من القسم الغربي من بغداد إلى قضاء الكاظمية وعليا ١٢ عربة تجرها الخيل. والآن أخذت الغيرة بعض أولي الهمة لإنشاء سكة حديدية أخرى مسافتها نصف ساعة تمتد من الجانب الشرقي إلى قصبة الأعظمية وقدموا معرضاً بذلك إلى الباب العالي وسيباشر بعملها قريباً إن شاء الله تعالى. وأما الآن فتصل بغداد بالقصبة المذكورة عدة عربات تجرها الخيل على الأرض بدون سكة حديدية.

﴿الأبنية الأميرية﴾ في بغداد أبنية أميرية فاخرة وهي التي أنشأتها الحكومة أعزها الله تعالى على نفقتها وهي الآن ذات شأن وممتازة على سائر أبنية المدينة من جهة الإتقان وحسن الانتظام ومناسبة الوضع. وأما بيانها فكما يأتي:

عدد		عدد	
١	سراي الحكومة	١٨	ماقبله
١	قشله العسكرية البيادة	١	المكتب الاعتيادي الملكي
١	قشلة العسكرية الطوبحية	١	مكتب الرشدية العسكرية
١	قشلة العسكرية البحرية	٢	مكتب الرشدية الملكية ومكتب الصنائع
٢	دائرة السوارية	١	مطبعة الولاية
٢	دائرة الرديف	٢	انبار الذخائر الأميرية
٢	مستشفى العسكرية ومستشفى الغرباء	٢	اتمكخانة
١	عباخانة	١٤	قره غول خانة
١	دباغ خانة	١	طلمبة الماء
١	بارود خانة	١	ماكينة الثلج
٢	انبار الرديف	١	ماكينة الدقيق
١	دائرة البلدية الأولى	١	ملت باغجه سي، وتُعرف بالنجيبية
١	دائرة الكمرك	٤	كوبري (جسر)
١	المكتب الإعدادي العسكري	٤٩	

﴿مدارسها ومكاتبها﴾ قد زادت المدارس والمعلمون في بغداد عما كانت عليه قبل ٢٠ سنة بأضعاف لاتقدر وبالحريّ أن يقال أن أكثر (إن لم يقال كل) ما نراه الآن من

المدارس العالية والتي سيأتي بيانها من المكاتب حدثت في الثلاثين سنة الأخيرة، وهذا جدول بيان مدارس بغداد لكل الطوائف.

﴿مدارس للمسلمين﴾

	أسماء المدارس	المعلمون	التلاميذ
١	المكتب الإعدادي العسكري	١٧	١٢٢
٢	المكتب الرشدية العسكرية	١٥	٥٢٢
٢	المكتب الإعداد الملكي	٧	٢٠
٤	المكتب الرشدية الملكية	٥	١٢٠
٥	المكتب الصنائع	٥	٥٨
٦	المكتب الحميدية	٢	١٢٠
٧	المكتب جديد حسن باشا الابتدائي	٢	٩٤
٨	المكتب العثماني الابتدائي	١	٥٥
٩	المكتب محلة الفضل الابتدائي	٢	١١٢
١٠	المكتب الكرخ الابتدائي	١	٧٦
١١	المكتب الأعظمية	١	٢٠

ملاحظات

هذه المكاتب كلها قانونية تحت إدارة الحكومة ودروسها قانونية أيضاً كما في سائر ممالك الدولة العلية العثمانية أيدها الله تعالى. وتوجد نحو ٣٤ مدرسة في البيوت والجوامع لتعليم الأطفال قراءة القرآن العظيم والكتابة العربية معدل تلامذتها ٢٥ ونحو ٢٧ مدرسة تدرس فيها العلوم العالية كالتفسير والحديث والفقه والفرائض والمعاني والبديع والبيان وما يشبه ومعدل طلبتها ١٥ ولهذه المدارس أوقاف جسيمة وعقارات محبسة.

	﴿مدارس للاتين﴾	المعلمون	المعلمات	التلاميذ	التلميذات
١	مكتب نهاري	٥	٠٠	٢٠٠	٠٠
٢	مكتب نهاري	٠٠	٢	٢٠٠	٢٠٠
٢	مكتب ليلي	٠٠	٥	٠٠	٢٠ نهاري ١٠ ليلي
٤	مكتب ليلي	٠٠	١	٠٠	٢٠٠
٥	مكتب ليلي	٠٠	١	٠٠	١٠

﴿مدارس الاتفاق الكاثوليكي﴾

١	مكتب نهاري ٦	٠٠	٧٥	٠٠

﴿مدارس للأرمن القديم﴾

١	مكتب نهاري ٤	٠٠	٧٠	٠٠
٢	مكتب نهاري ٠٠	٢	٠٠	٤٥
٢	مدرسة الاتفاق الإسرائيلي ٥	٠٠	١٥٠	٠٠

ويوجد نحو٢٠ مدرسة لليهود في المعابد والبيوت يعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة العبرانية فقط ومعدّل تلامذتها ٢٠

﴿بلدياتهـا وإطباؤها وزي أهاليها وغير ذلك﴾ تُقسم بغداد إلى ثلاث دوائر بلدية الأولى والثانية في الجانب الشرقي (الرصافة) والثالثة في الجانب الغربي (الكرخ) وتضاء المدينة ليلاً بزيت الغاز ويحافظها نحو ٢٥٠ رجلاً موظفاً من الدوائر المذكورة. وطرقاتها غير مبلطة إلا أنها نظيفة. ويكثر فيها الوحل والطين في أيام الشتاء إذا اشتد المطر وبقي أياماً كما أن الغبار يكثر فيها في أيام الصيف. وفيها الآن (الحي) لشاه العجم.. وقنصل لدولة انكلترا وآخر لدولة فرانسا وثالث لدولة روسيا ورابع لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا. وفي بغداد عدة مقابر للمسلمين. ومقبرة للنصارى الكاثوليك وواحدة للأرمن الغير كاثوليك ومقبرتان لليهود. والأطباء في بغداد كثيرون ملكية وعسكرية وأجانب وأهلية من أجناس مختلفة كالعرب والعجم والترك والفرنساويين والإنكليزيين والنمساويين والروميين وغيرهم.. وزيّ أهاليها في الملبوس العمامة والجبة وهذا خاص بالعلماء والفضلاء والقضاة وقليل من أبنائها. والطربوش والسترة والبنطلون بمأموري الحكومة ومن تبعهم والعقال (حبل يشد به الرجل رأسه) والكوفية واللثام بعامتها وأسافلها وغربائها. والنساء الوطنيات يتزرن بالأزر الحريرية الدمقسية والملونة بالألوان اللطيفة والمقصبة بالسرمة والفقيرات والدخيلات بالأعبية. ونساء الشيعة بالأزر السود القطنية أو الحريرية، ونساء اليهود بالأزر السود القطنية يتخللها بياض ونساء النصارى أخذن الزي الافرنجي ولاسيما البنات منهن.

﴿الآثار القديمة﴾ الآثار القديمة في بغداد وضواحيها كثيرة جداً. منها «المدائن» أرض كسرى انوشيروان تبعد عنها ٦ ساعات شرقاً على ضفة الدجلة. وفي المدائن «الإيوان» الذي بناه سابور ذو الأكتاف وقيل كسرى انوشيروان وقيل ابرويز كسرى وقيل تعاون على بنائه عدة ملوك. قيل ولما أراد بانيه بناءه أمر بشراء ماحوله من مساكن وترغيبهم

بالثمن الوافر وإدخاله في الإيوان وكان في جواره عجوز لها دويرة فأبت بيعها وقالت لاأبيع جوار الملك بالدنيا فاستحسن الملك منها ذلك وتركها وبنى الإيوان وأبقى بيتها في موضعه. قيل أن هذا الإيوان كان من أعظم أبنية العالم وهو الذي قصد هدمه المنصور العباسي لما شرع في بناء بغداد. وقد تهدم هذا الإيوان ولم يبق منه الآن إلا «الطاق» وهو مبني بالآجر طوله ٨٠ وعرضه ٦٠ وارتفاعه ١٢٠ متراً.. وقد انشق هذا الطاق يوم ولادة النبي صلى الله عليه وسلم. والشق باق فيه إلى الآن. وهنا مرقد سلمان الفارسي وعبد الله الأنصاري وحذيفة اليماني وهم من الصحافة الكرام رضي الله تعالى عليهم أجمعين. ومنها «اكركوف» آثار قديمة واقعة على مسافة ثلاث ساعات من بغداد إلى الشمال الغربي على ميمنة ترعة السقلاوية وعلى ثلاث ساعات من دجلة غرباً. وهي على شكل هرم من الآجر والقصب تبلغ استدارتها عند أصلها ٤٠٠ قدم وارتفاعها عن سطح الأرض ١٢٥ قدماً. وتعرف عند أهل بغداد بقصر نمرودا وبرج بابل. قال بعضهم أن هذه الآثار إنما هي آثار حصن لمدينة أكّد القديمة من مدن نمرود. وقال آخرون إنها موقع ستّاكي القديمة التي ذكرها زينوفون اليوناني ومنهم من قال أنها اثر قلعة أو هرم من بناء البابليين أو مدفن أحد ملوكهم والله أعلم. ومنها «الأنبار» وهي فيروز سابور القديمة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ وهي إلى غربيها على الفرات قرب مخرج نهر عيسى (المسعودي) قيل سميت بذلك لأنه كان يجمع فيها أنابير الحنطة والشعير والتبن. وكانت الأنبار منزلاً لأبي العباس والسفاح أول الخلفاء العباسيين انتقل إليها من الحيرة سنة ١٢٤ هجرية وبنى بها القصور وحسنها وتوفي بها ولما ولي المنصور الخلافة انتقل منها إلى الهاشمية ومنها إلى بغداد.

ومجمل الكلام أن بغداد من أحسن البقاع هواء وأهلها من أذكى الناس أفهاماً وأكرمهم طباعاً وأطيبهم أخلاقاً وأفصحهم لساناً. ولذلك قال القائل:

فدًى لكِ يابغداد كل قبيلة ... من الأرض حتى خطتي و دياريا
فقد طفتُ في شرق البلاد وغربها ... وسيّرت رحلي بينها وركابيا
فلم أرَ فيها مثل بغداد منزلاً ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلا ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان ودك صادقاً ... لبغداد لم ترحل فكان جوابيا
يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم ... وترمي النوى بالمقترين المراميا

وإذا التفتت إليها الحكومة أيدها الله وحفرت جداولها وعمرت خرابها وعلمت سكانها وكفت أيدي الجائرين عنها زادت عظمتها حتى يعود جمالها الأصلي والله حسبنا ونعم الوكيل.

«محمد درويش» معاون محاسبة نظارة الديون العمومية في بغداد

شهادة

أوراق لا منتمي

هاتف الجنابي

(يارِبّ يالهي عليكَ توكّلتُ. خلّصني من كلّ الذين يُطاردونني ونجّني، لئلا يفترسَ أحدٌ كأسدٍ نفسي هاشما إياها ولا منقذ).

المزمور السابع

أقف أمامكم وأنا ألملم أطراف حكمةٍ عربية قديمة: (لاتكن يابساً فتكسر، ولا ليّناً فتُعصر) ومنذ عشرات السنين وأنا أبحث عن الخيط الفاصل بين الكسر والعصر، لئلا أنكسرَ أو انهصر. لا لخوف أو أنانية، وإنما أيها الأفاضل، بدافع العيش الكريم كأيّ حيوان ناطق في زاوية ما تُطلّ على براري البشرية الوسيعة.

كان أبي يسعى لكي أكون رجلاً شهماً متّزناً لأن الواقع لايرحم، ولأن تقاليد العائلة تتطلب الحفاظ على أكبر قدر من المروءة والحكمة. وذات يومٍ رأى في مكتبتي كتاباً لرجل مُلتحٍ يمكن أن يكون ابن سينا أو أي رجل ترونه أنتم مشابهاً في ثقافتكم التي أصبحت جزءاً من ثقافتنا باعتزاز. ترك الأمر ليعود إليه بعد أيام بطريقة ملتوية لاتخلو من الدفاع عن تقاليد العائلة، قال لي: يا ابني أنتَ تمارس الشعر وتقرأ ماكتبه (أبو لحية)، وعليك أن تستعد لمستقبل معقد مضطرب، وأقل ماأقوله لك: إنك ستبقى حافياً طوال حياتك! ما

جرى توزيع هذا النص باللغتين الإنجليزية والفرنسية على المشاركين في بيناله ـ مهرجان الشعر العالمي المنعقد في بلجيكا تحت شعار «الشعر والحرية» في الفترة مابين ٣ ـ ٧ أيلول سبتمبر ١٩٩٢.

الذي حدث فيما بعد؟ كان هذا الكلام في ١٩٦٨ في بغداد (وهي نفس السنة التي بدأتُ فيها كتابة الشعر)، وكان على مَنْ له شوارب طويلة أو لحية أن يروح إلى ألف داهية، لأن الأولى تُوحي بشوارب ستالين، والثانية قد توحي بالأصولية الإسلامية. ومن حسن الحظ لم تكن عند عائلتي-أو عندي لا لحية ولا شوارب!

ماذا على المرء أن يختار؟ الخيار المتبقي إما الانتماء إلى الحزب الحاكم، وإما أن تكون لامنتمياً (Outsider) بصعوبة، وإما أن تهاجر. ويوماً بعد آخر أخذ يتقلص حيِّز الاختيار وتتضاءل الحرية، الضئيلة أصلاً. تحوّلت المطاردات والملاحقات السياسية (خصوصاً) والفكرية إلى ذئاب تعوي في طول البلاد وعرضها؛ تحوّلت منذ أواخر السبعينات إلى حيوانات جائعة متعطشة للتصفية، لكل ما هو مختلف، ساعدَتها في ذلك قوى خارجية لأهداف خاصة.

لقد حدثت الفاجعة بشقّيها المحلي والإقليمي. ففي أواخر السبعينات جرى سفك دماء دعاة الديمقراطية والحرية ومعهم سُفكت دماء ذوي اللحى من المتدينين والشيوعيين، ولا فرق هنا بين مواطن وآخر إلا بولائه المطلق للديكتاتورية. بعد حمام الدم في ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ قامت الحرب الخرقاء بين العراق وإيران، والكل يعرف تفاصيلها المعلنة. الغريب أن الشوارب قُلِّمت بطريقة تشبه شوارب الحاكم المطلق. ومن المفارقات الغريبة أن هذا الطراز من الشوارب المُستحدثة (الحزبية ـ السلطوية) لايختلف كثيراً عن الشوارب الستالينية! التقى الديكتاتوران، ويا طالما تلتقي الأنظمة المستبدة ببعضها.. بينها أواصرُ قُربى وشَبَهٌ وإعجاب وغزَل ولربما علاقات جنسية سرية مشتركة!!

تحولت المنابر الثقافية في بلد عريق هو العراق إلى بوق أسطوري أجوف ديماغوجي لا يرحم ولا ينفك عن مهاجمة الفكر الآخر، واتّهم هذا (الآخر) باللاوطنية والعَمالة للأجنبي، ووُضع زملائي (الآخرون) على القائمة السوداء. وهذا لايعني مقاطعتهم فقط وإنما استباحة دمائهم.. لقد نجا بعضنا بأعجوبة، واعتُقل البعض الآخر حيث تُركوا للسجون أن تُمزّق أوصالهم وضمائرهم. لقد تحول مهرجان هام مثل «المربد» ـ أحد أقدم مهرجانات الشعر في العالم (ويكفي في تحديد عمره الشاعران جرير والفرزدق وهما أبرز ممثليه منذ حوالي ١٣٠٠ سنة) إلى منبر لثقافة السلطة المطلقة ومرتزقيها.

وصار أحد أهم أهدافه مباركة وتكريس ممارسات وتطلعات الديكتاتورية، وقيمها اليبابية، فتراجعت القصيدة شكلاً ومضموناً على أيدي الشعراء المرتزقة، وصار الشاعر رقماً في جوقة الشعر الرسمية. كان الغربُ والشرقُ ينظران مُتفرّجين إزاء امتهان كرامة الإنسان العراقي الذي نزلت في لحمه وأمسكَتْ بعظامه مخالب وأنياب الرعب والإغراء على السواء.

كان صوتنا إلى فترة جد قريبة (ولربما حتى هذه اللحظة) مجرد عواء مظلومين في صحراء العالم. صارت الحرية للكثيرين من زملائي فنانين شعراء وكتاباً، سراباً، والكتابة مجرّد الكتابة كابوساً أو عملية ثقيلة متعبة قاربت اللامعقول. أخذ واحدنا يظن أنه سيزيف القرن العشرين. انتهت حرب الثماني سنوات، وصارت الكتابة بحثاً عن عالم مسالم مفقود، عن حرية سائبة ضائعة. انتهت الحرب لتبدأ بعد سنتين من جديد. حيث اقتيد الناس الأبرياء إلى مسلخة كبرى عصرية تماماً، قادتْها أحدث العقول الالكترونية. حدث الدمار الشامل. ولم يجرِ التفريق هذه المرة، ربما عن قصد، بين الجلاد وضحيته، بين مَنْ نَصّب المقصلة والرؤوس الحليقة الجاهزة للقطع.

ماذا على الشاعر أن يفعل هذه المرة؟

هل يَبكي على الأطلال مثل الشاعر الجاهلي، هل يبكي أخاه القتيل، المفقود، أم يبكي الأحياء من مثل أمه ـ ممزقة الثياب وهي تندب أبناءها المفقودين، القتلى، الجرحى. هل يبكي الشاعر وطناً ممرّغاً في دمائه مطعوناً في كبريائه، أم أنه يتحدث عن حرية هو أساساً لم يعرفها؟

صارت القصيدة عالماً مغلقاً ومفتوحاً لكل احتمال، عالماً هارمونياً غير منسجم مضطرباً قلقاً متوتراً، عنيفاً ومُهادناً. . . على الشاعر أن يبدأ من التفاصيل باتجاه تشكيلها من جديد. . إنها البحث عن حرية، عن وجه مشرق للطفولة، ولعالم ضائع في تفاصيل تقود الجميع إلى الكارثة. كان علينا ترتيب الذاكرة بمواجهة واقع يتداعى أمام صمت مهول لعالم أناني يوجهه الإعلام كيفما يشاء، مركّزاً على الحديد والآلات والبنايات، تاركاً الناس مثلما قطيع هائم يتدافع نحو الحدود طمعاً في خلاص مؤقت أو أبدي، فترده فرق الجود وتصده السفارات، سفارات المشاركين والمتفرجين على السواء!

أيها الشاعر اضرب برأسك صخرة الصمت، تتعلم حينئذ كيف تصرخ، ولينطلق صراخك عالياً من أجل الحرية! في عالم يضيق يوماً بعد آخر تصير الحرية هاجس الجميع، ودليلاً أكيداً على إنسانيتهم. حينما يشعر المرء أن حرية الإنسان الآخر لاتعنيه فذلك يعني أنه على وهم فادح. . الحرية لاتتجزأ والإنسان كذلك. إن وهم التمترس حول النفس في مدينة ما، بلد ما، أو قارة ما سيُلحق الضرر بالمُنادين به بقدر مايُلحق الضرر بالآخرين (البعيدين إلى حد ما). «يعتبر كائناً بشرياً ذلك الذي يريد أن يكون حراً» نيكوس كازا نتزاكيس. أرجوكم أن تُفرقوا بين مواطنين مسالمين متسامحين تاريخياً أبرياء وبين جلاد سفاح يقبض على رقابهم بيدين جهنّميتين.

والآن فلنتحدث
إنساناً مع إنسان
هذا ليس حقيقياً ما تُعلنه الملصقاتُ
نحملِ الحقيقة في أفواهٍ مكتومة
قاسيةٌ هي وصعبة للغاية
إذن نحملها وحيدين
لسنا سُعداء
وكم كنا نُفضّل البقاء
ها هنا . . .
(زبيغنيف هربرت)

أبيلوج :
للهزيمة عينان ،
وللخيبة ثلاث عيون . .
وللأمل العيون كلها .

مطلع آب ـ ١٩٩٢

كوبنهاغن ترحب بكم!

حيدر أبو حيدر

- ١ -

كم تمنيت أن تبقى الطائرة تدور وتدور. . . ولا تهبط. فالفضاء، يمنحني التأمل والاتزان. . الارتفاع يمنحني الرؤية، فمن خلاله أحصر كل الأشياء بدائرة. . وأختار. . لكن الهبوط يعني بداية حزني وحيرتي. . أسئلة بانتظاري، تلعثم في النطق، ضياع في المدن. . الناس. . الازدحام المصابيح. . سيارات التكسي المخيفة. .

كم تمنيت أن تضلّ الطائرة مسارها وتتيه فوق فضاءات المدن، مرة. . شاهدت فيلماً في سينما غرناطة عن طائرة ضلت طريقها في ضباب كثيف ثم. . .

بدأ الخوف ينقر فيّ برفق، على ركبتيّ وعلى نهايات أصابعي كلما اقتربت الطائرة من المدرج. . ديوان الشعر الذي بين يديّ يبحث عن أصابعي، اهتديت إليه، قلّبته ساعة ملامسة الطائرة أرض المطار:

«هذا مأواك

لاتنقل عينيك. .

ولا تبحث عن مأوى في الأرض سواك»[1]. . .

. . . .

(١) من قصيدة للشاعر رشدي العامل من ديوان (موت المغني).

- ٢ -

من كهوف سقوفها مزاريب للمطر، إلى بلاطات مرمرية بلون النساء. من كردستان الجبل حيث لاعلم لنا بما يجري في هذا الكون، إلى بوابات تفتحها أيادي الشيطان ما إن تقترب منها، ودون أن يلمسها بشر!

ـ كوبنهاغن ترحب بكم!

استعدت أنفاسي بعد قراءة هذه العبارة.. إنهم يرحبون بنا.. يرحبون بي أنا القادم المدمى.. حيث تركت التاج الكردي على الروبار(٢) يلوذ بنفسه:

«وخطاة نحن من طاحونة الموت
خرجنا أبرياء»(٣)

اقتربت من الحاجز الأول.. استبقني الشرطي ذو البدلة السوداء ومد لي يده الجميلة بلون الطحين.. يالروعة هذا الاستقبال.. لكن.. سرعان ماخيب ظني، ظننته يريد مصافحتي، لكنه قال لي دون أن ينظر ناحيتي:

ـ جوازك!؟

ماذا لو أعطيه ديوان الشعر الذي معي وأقول له هذا جوازي، ففي كل قصائده يستطيع أن يرى وطني مذبوحاً من الوريد إلى الوريد. وفي كل صفحاته فيز للانتماء وعناوين للمدن المفجوعة، وقرى مقلوبة بين فكي الرحى.

ـ هل من شيء؟ وثائق؟

ـ كلا ياسيدي.

ثم حاولت أن أبدأ بألمانية ركيكة وانكليزية فيها مفردات كردية، أن أوضح له كيف صادرت النار وثائقي يوم كان السيانيد يأتي على الأشجار والعصافير والبشر. بداية أعددتها في الطائرة، لكن لحظة الهبوط أفسدتها.

ـ ليس الآن.. ليس الآن.. أوكي تفضل.

قادني إلى مكان آخر.. بالحقيقة ليس مكاناً يشبه المكانات، بل عبارة عن كرسي وأجلسني والحائط وجهاً لوجه.

ـ زاد فضلك..

قلتها بالعربية.

---

(٢) الروبار ـ نهير جبلي (باللغة الكردية).

(٣) عن قصيدة لنفس الشاعر ونفس الديوان.

صورة رشدي العامل على الغلاف، استدارت نصف
استدارة نحوي. . عيناه تثقب في صدري سرداباً بلون
الوشم:
«فكيف ستنقل خطواتك العاثره
ونقاط العبور تلاقت على القوس
وانسدت الدائره»[4]

. . . .

- ٣ -

قادني الشرطي إلى مكان الحقائب. . حيث استقرت حقيبتي وحيدة على الحزام الدوار. تدور على مرأى مني ثم تبتعد ثانية وتدخل وراء ستارة، وربما دهليز أو حجرات تصوير. . لاأعلم. . ثم تعود من جديد والشرطي يسألني:
- حقيبتك هذه؟!
- نعم. .
- لماذا، لاترفعها؟ لقد مرت أمامك مرتين.

تبعته بخطوات مصمغة إلى حيث بوابة تؤدي إلى مدرج الطائرات من جديد. . هناك حيث الطائرات تعبى كانت في انتظاري سيارة مرسيدس سوداء ذات زجاج معتم. . بدأت جمجمتي تحرك شخوص أجاثا كريستي البوليسية. . حيث هناك في استقبال [رئيس العصابة] مجموعة ترتدي المعاطف السوداء. .
- لقد ضعتُ ورب الكعبة!

كل زوار كوبنهاغن توارو من خلال بوابات عادية جداً. . إلا أنا. . رؤساء الجمهوريات حينما يأتون بزيارات غير رسمية يخرجون بهم من تلك البوابات، لاأدري من أين سمعت ذلك. .
- هه. . شتان مابين الاثنين. . الشرطي الدنيماركي يطلب مني جوازي. . ها ها ها. . . من يجرؤ أن يطلب من رئيس الجمهورية جوازه. . حينها تقوم القيامة ويطرد هذا السفير أو ذاك بحجة عدم الرغبة فيه.

ثم ماذا عني، أنا المسحوب بحبل القانون من باب الرؤساء، حيث بانتظاري

(٤) المصدر السابق نفسه.

التحقيق وطبع الأصابع والصور الجانبية . .
ـ كوبنهاغن ترحب بكم . . . .
منْ نحن حتى ترحب بنا؟ منفيون حتى في أوطاننا .
مدريد لم ترحب بفرانكو حين تولى السلطة .
جعفر نميري لم يرحب به أحد .
شاهْ إيران ، رحبت به القاهرة فقط .
علي ناصر رحبت به اليمن يوم كانت شمالي .
لينينغراد لن ترحب ولن تفتح أبوابها للنازيين ،
دول الخليج + صدام حسين رحبوا بالأساطيل الأجنبية في الخليج إبان الحرب العراقية . الإيرانية .
صدام حسين لايرحب بالأساطيل الـ (. . .) .
عجيب!
. . . .

ـ ٤ ـ

رأى المترجم العربي فرصته لتقديم تضامنه معي بعد أن راح المحقق يرد على الهاتف :
ـ يا أخي . . صدام حسين هذا غبي ، وإلا كيف يحتل الكويت؟
ـ صحيح . . وحتى لو لم يكن غبياً فإنه يحتلها أيضاً . . القضية ليست غباء فحسب بل تهور ورعونة ونزعة عدوانية عرفها (ولد الگريه قبل ولد بوش) . . وقبلها حرب . . ثماني سنوات خرج منها (بلا حمص) . .
ـ حمص . . هل كان يريد حمص؟!
نظرتَ إليه بتوسل أن يغلق الموضوع . . أحسست أنه لايفهم شيئاً سوى الترجمة . بادرني المحقق بعد أن أغلق السماعة :
ـ من غير المعقول أن نمنحك الحرية وأنت لاتملك ورقة واحدة تثبت اسمك وهويتك ، من يدري ربما تكون هندي أو سري لانكي .
حينها تذكرت غاندي ونهرو وشامي كابور وحتى السنبوسة في سوق العشار . ورحت أبحث في جيوبي لعل بقدرة قادر عليم أن أعثر على ورقة بالخطأ عليها طابع ومختومة بختم الجمهورية العراقية . . . لاشيء . . إذن سوف أحسب على الاخوة السريلانكيين . .

الديمقراطية لسيري لانكا والحكم الذاتي للتاميل..

في البداية زاغت عيناي، وامتدت بموازاة جانبي وجهي.. حتى صار كالقناع. وتخشبت يداي (وطق) العِرْق الجنوبي في رأسي، لأعرف سر هذه العصبية الدخيلة عليَّ.. ربما.. أسبابها.. سني الجبل وصعوبة أيامه.. أو.. الشهداء أيام كنا نودعهم غير مصدقين.. معذرة سري لانكا.. فأنا لاأرتضي وطناً غير العراق ولا اسماً غير اسمي..

ـ حسناً حسناً.. هدّىء من روعك.. تقول أنك كنت في كردستان ـ هل لك أن تحددها لي على الخارطة؟!!

لم أهدأ بل لم أصدق أذنيّ..

ـ أنا أعرف أنها مسحت من الخارطة يوم جاءت لها الأرتال الكاكية وقلبت البيوت على الزرائب والنار على المزارع والتراب على الحجر.. واستشاطت البغال على القطوع يوم كان گاره[٥] يحتضن البشر.

ـ منْ گاره هذا؟

ـ جبلٌ ولا كل الجبال.. يعيش في شعابه السحايا والأنصار، مضيء في ظلمته، حنونٌ في عشرته.. تسلقه المسلحون والآمنون وأشعلوا فيه مشاعل الدفء والرؤيا وغنى له أبو طالب، وأبو رعد أجمل أغاني الخشابه[٦]..

«گاره لنا شاهد لو تسأله.. بعلوه هتف أبد ميموت الشهيد»..

قال المترجم:

ـ في بدهينان؟

ـ نعم في بهدينان. وأصلحتها له مقاطعاً كي لايفسد عليّ ذاك الحلم الجميل.

هذه فرصتك تكلم.. حدثهم بلا انقطاع.. حتى لو قاطعوك.. أخ العرب هذا يعيش هنا منذ سنوات ولا يعرف ماذا حل بأهل الكوفة.. حدثهم كي لاتضيع عراقيتك:

ـ في كل صباح تظهر من كتف گاره الأيسر شمسٌ بلون الحريق، لترسم على سنابل الحنطة مساحات من الألوان. وذات غروب اخترقت طائرات السيخوي حاجز الصمت وحرقت الوجوه والفئران وعرّت الشجر وختمت العيون بالكونكريت والدخان.

---

(٥) كاره ـ جبل شامخ في محافظة دهوك.

(٦) الخشابه ـ مجموعة إيقاعات موسيقية اشتهرت بها محافظة البصرة.

ذات غروب. . . ازدحمت (مراني)[7] بعشاق الحياة، واختاروا السفح ملاذاً وأماناً، و(مراني) ياسيدي قذفها كاره بعد مخاض عسير منذ مئات السنين، ولأنها خجلى وتخاف الريح عاشت في قعر الوادي، وشهدت أجمل المحاضرات عن علم الجمال وأماسي الشعر والقصة القصيرة والمسرح.

ـ صحيح؟! قالها المحقق باستغراب.

ـ (إيه وعلي صحيح!).

بدأ المحقق يجمع أوراقه من فوق الطاولة الزجاجية وهو يهز رأسه متعجباً. . قلت مع نفسي:

ـ فرجت!

لكنها قُلبَت حين استدار لي وقال:

ـ غداً سنكمل التحقيق.

تذكرت عبارة «كوبنهاغن ترحب بكم. .» فقلت له:

ـ مرحباً بكم. .

فأنا بحاجة إلى الكلام مادام عن العراق، ففي حضرته يتلاشى خوفي وحيرتي.

كوبنهاغن ٢/ ١١/ ١٩٩١

(٧) مراني ـ مقر لأنصار الحزب الشيوعي العراقي ملاصق لكاره.

في رياح الأسئلة

باسم المرعبي

ما سأملي. . .
ليسَ من يأسٍ ، ولكنْ
وحشةٌ تشبه نجماً
يمّحي في الريح ،
أو. . . حُزناً أكيداً

لي هواياتي التي لم أحترفْها
لي نوايا لاتُهدّدُ دولةً أو نملةً
: قهوة الصُبح ،
وفي شرفة أيامي ،
على سهل بلادي
عطلة يخلد فيها القلب للمرأة،

أو للبحر.. يختار نشيده
وردة تتعب من غُلمة قلبي
... ويدي تحت جبيني
تسند الفكرة والأرض البعيدة،

.....

فلماذا حُلُمي تغمره الريح
وخطوي
تحت عيني قاتل يربك فوضاي
ويحصي أبدي؟
ولماذا رمدٌ يومي
وأضغاث غدي؟

تشرين الثاني ١٩٩٢

هو الرماد الألف !

علي ناصر كنانة

قليلاً من التراب يستلزم الدفن . . ! ولو . . . !!
دثّري القتيل بعباءتك الوارفة الحزن،
فلم تسعف قوتي المزعومة
يديّ من الارتعاش .
مشدوهاً . . . متردداً . . . صامتاً
أناظرك حزناً جللاً
بحجم تلك الجثة الجليلة . .
على أيّ لوح عملاق سنشيّعها . . ؟
وأيّ فضاء سيلمُّ
صراخ الكائنات كلها
حين تخترق الجنازة الريح . . ؟
وهل سيهدر المغنون
بمآتم حسينية
تستلزم ألف عام آخر
من البكاء . . ؟

[أولى . . . وثانية . . . . وثالثة . . . .
وألفاً . . ينهض الميتون
وأنتَ لم تمتْ بعد . .
تحتدم الشرايين بك . .
وترتدي الحمامات نخيلها . . .
وينزع الليل دثاره . .
ويحمل الموج أجنّة الحلم . .
وما زال ندى يحضن جذر عشبة . .
وما زالت بنا ـ مما رضعنا ـ
قطرة تصارعُ المنافي . . .] . .
العويل يتيبّس في حنجرة الزمن
وأقدام المشيّعين
تثير غضباً يستفزُّ السماء . . .
كسيرة أعناق النخيل
وسنبلة . . نأى عن لهفتها الصيف . .
المحايدون كُثر . .
والمتفرجون كثُر . .
والشامتون كثر . . .
ونحن العاشقون المبعثرون
علينا أن نستكمل المراسيم . .
[ألفاً نهضتَ من قبلُ
لِمَ لا تنهض الآن . . ؟
ألِفتها
رائحةَ الدم، الرماد والبارود . .
وكم تمازج البارود والدماء والرماد
بغتةً . . ليقتلوك
وكم تصالح الرحمن والشيطان :
طعنةً . . . ليقتلوك

وكنت دائماً
تخرج من أنامل الأطفال . . (من سومر) .
من تويج زهرة . . (من أكد) .
من عنق سنبلة . . (من الوركاء) .
من زحمة الفسائل . . (من البصرة) .
من غضبة الرجال . . . (من أوروك) .
من شواطىء الناس . . . (من بابل) .
من الأحجار . . . (من نينوى) .
من زوارق الأهوار . .
من الأشياء كلها . .
من اللاشيء . .
أنت خالقٌ ومخلوقٌ بنا . . اصطفيناك !]
جرحاً حملناك على مشارف النفَس الأخير . .
لم نحايد . . ولم نفاضل لحظة!
كنا نهرب بفسائلنا
لكي لاتبقى يباباً . .
كثيراً ماكدنا نتلاشى
وكنتَ تبعث أنفاسَك في الرميم .
وكم تشهّاك الفاسدون رماداً
احتضناك . . شطوط الحلم التي لاتجف . . .
[لاعجب . .
هو الرماد الألف . .
ابتدىء . .
أولى . . وثانية . . وثالثة . . . وألفاً . .
هكذا ينتفض الموتى . .
وأنت لم تمت بعدُ . .
وما زال ـ يرنّ في الأرواح ـ
نبض عرقك العصيّ . . .

ابتدىء . . .

كم شيّعوك
تابوتاً من النخيل والأنهار
والجبال والصحراء
وكان عنقكَ المرهق
يشرئب شامتاً
بغفلة السلاطين
وهازئاً بجوقة العويل
ووحدنا . .
مختبئون في الجراح . .
لم تمت !
ألفاً ولم تمت !
من أجل من ماتوا . . . ابتدىء
من أجلنا ـ ونحن بعضُ نبضك ـ
ابتدىء .
يا أيها الذي نحبه
ألفاً من البكاء . . .
مشتبكاً بنا الحنين
وغامضاً غدا الحلم
ورعشـــةً
تعتصر العيون!

ستوكهولم
٣ يناير ١٩٩٢

الشاعر.. ابدا

بشير عاني

أبداً . . .
في فضاء الشاعر . . بين جدران شمسه الحنون . . .
يركض العطرُ نحو الوردة العاشقة . .
ترتمي البلاد بأحضان البلاد . .
أبداً . .
من حديقة الشاعر يقطف الشعب وُردة الحرية . . .
وعلى طبول كلماته . . يتقدم الخائفون . .
أبداً . .
على نجيّب أحلامه . . تتمايل الحياة .
ومن يديه . . يطلع خيط العافية . .

● ● ●

أبداً . .
على مجّمر الشاعر يشوي الآخرون كستناء البقاء . .
وفي غرف قلبه السرية . . .

يعقِد الدسّاسون مجالس الشورى . .
روحه . . التي أمسكت سجلات الغياب . . .
وحق له .
أن يفرك أذن غيمة تأخّرت . .
أو نخلة لم تعتذر عن موعد قديم . .
حقٌّ له . .
أن يعاقب البلاد الكسول . . .
قال لها . . اكتبي اسمك ألف صفحة . .
بدمٍ واضح . . . وحار . .

● ● ●

أبداً . . .
على أرصفة الشاعر . . .
يلتقي العشاق . .
ينعزل الحب . . .
«يتولَّدَنُ» الفرح . .
أبداً . .
في طرقات الشاعر . .
تتسكع الحياة . .
تُخرج لسانها للواقفين . .

دير الزور

للطفولة أيضا

فوّاز قادري

«إلى الأطفال الأثرياء
بالطفولة والرفض
والمشاكسة المبكرة
... وإلى طفلي مهيار»

عذراً لعينيك ترقبانني
ذاهباً وغارقاً
في غبار الطريق
عذراً لعينيك تصطبغان
لهفة على رجوعي..
أوقظ الحجر بشرودي..
أتناسم حتى أنني:
لا أجرح عصب التراب.
ويسكنني وطني
يعبر الحريق مطفأ
إلى دمي

يُلْجِئني الفراتَ المسجّى
الهلاهل والضحكات
الوليدة
تنكسر المشاوير الأليفة
على قنطرة الرغيف
يتكابر الخريف
المقيم ها هنا
تختنق زقزقة العصافير. . .
والهديل
تنام المدينة على جرحها
ولا تنام
يتحول الكلام
إلى دمل في الحنجرة
لا أرد السلام. .
على عابر في الطريق
عيناك تتبعني. . .
ويتعبني الرغيف. .
عيناك تسرقان مني التجهم
حتى نهاية النزيف
والأرق. .

* * * *

عذراً لعينيك ترقباتي. .
عائداً وغارقاً. .
في غبار الطريق. .
عذراً لعينيك. . . .
لا أملك مايكفي. . .
للابتسام. . .
تضمني. .

يتحول الكلام . .
إلى قُبل ولعاب . . .
أنفض عنك التراب
والفرح .
وأعتذر عن دين قديم للطفولة
قصيدة . . .
أو أغنية حنون
أعتذر . . .
عن الشجون والتعب
والقبل الضائعة . .
ولا أريد لعينيك أن تحزنا
وللقبل أن تنكسر
كعادتها
على جحر الشرود
للحنان أن ينتشر
خارج يديك
وللفرح أن يكون محطة عابرة
لاأملك ماتأتي به
الأراجيح
واللّعب . . .
لا أملك قصيدة الحلوى . .
ياوليدي
فحين أكتب طفلاً . .
يزدحم المكان بالجثث
أكتب عصفوراً
تتساقط . . .
أقفاص بلا نوافذ
أكتب نهر

تتحول عيناك

إلى زورقينِ غارقين

أكتب قنديلاً . .

يشج رأس الطرقات

حجرُ الظلام . .

أكتب شجراً . . .

تتراكض الفؤوس خلفي . .

أكتب وردة . . .

تحتج رائحة آسنة

أكتب حرية . .

ترتعش بلادي من الخوف

أكتب وطني وأبكي

تتشابه المقابر

والحدائق

تتشابه الأرجوحة . . .

والمشنقة . .

الزنازين والقمر العابر

إلى ظهيرتي

قلبي والفرات

الهزيل .

أكتب وطني . . . .

وأبكي . . .

حتى نهاية

الكلام . . .

أمل

سعدي المالح

تراقصت حزم من أضـواء ملونـة على نوافذ البيت، فبدا زجاجها من الخارج كأنه فسيفـاء كاتدرائية قديمة، بينما اندفعت دفقات من موسيقى صاخبة تلطم وجهه ـ حالما فتح الباب ـ معبقة برائحة العرق والدخان والخمر والساعات الأخيرة من العام المتراكض نحو نهايته.

الراقصون لم يأبهوا به. ظلوا يتمايلون ويهزون خصورهم وأكتافهم، وأحياناً أجزاء أخرى من أجسادهم، انضم زميله إليهم مباشرة، في حين توجه هو نحو بعض الجالسين بلا انتظام حول المائدة يصافحهم باضطراب ويحييهم بابتسامة يسعى جهده أن لاتكون مفتعلة، ويقول في نفسه رداً على نظراتهم المتسائلة: كان يجب أن لا أكون وحدي... كان لي أمل..

اختـار مقعـداً فارغاً وجلس، ففرشت أضواء مختلفة ألوانها على وجهه في لحظة سريعة: الأحمر ـ دماء، حروب، ثورات. الأبيض ـ براءة، سلام لم يتحقق. الأخضر ـ خير، رفـاه. الأصفـر ـ أنـانية، حب الـذات، غيرة.. وبـريق من ألوان ذهبية ساطعة ـ أمل.... ماأكثر ما حمل العام المنصرم من أحداث.. لكن حدثه الأهم كان أن يتحقق الأمل.. ذلك الأمل البعيد القريب..

(قالت:

ـ كان أملي أن أخوض تجربة جديدة كهذه، ولقد سعيت إليها بجد، لكن يبدو أنها تجربة صعبة.. لايهم، أنا اخترتها.

قال:

ـ كان أملي أن يولد لي أمل.. بيد أن الولادة هذه عسيرة جداً.. ولاأريدها أن تتم بعملية قيصرية.

قالت:

ـ اختيار الأمل صعب.

قال:

ـ لا خيار في الاختيار..

ارتأت تغيير مجرى الحديث:

ـ لقد حلت السنة الجديدة عندهم منذ ساعات.

التفت إلى ساعته وأضاف:

ـ لعلهم الآن سكارى ونيام.

قالت وهي تنظر إلى معصمها وتعد بأصابعها:

ـ ما زالوا سهرانين، أنا أعرف أكثر.. معلوماتك قديمة..

وهاجمته بسؤال مباغت:

ـ قل لي أين ستسهر الليلة؟).

قالت صاحبة البيت بإنكليزية ذات لكنة، مع أنها كانت تعرف أن ثمة لغة مشتركة بينهما وهي أسهل في التعامل:

ـ هل تشرب شيئاً؟ اختر أي مشروب يناسبك..

(قالت أمل:

ـ أفضل الشمبانيا في مثل هذه المناسبات.).

أجاب بابتسامة حذرة:

ـ كأساً من الأمل الكبير.

(فوجئت أمل:

ـ إياك يا أزعر!).

قالت صاحبة البيت:

ـ آسفة، هل هذا من أنواع النبيذ أو المسكرات القوية؟

رد بمزيد من الثقة هذه المرة:

ـ من المهدئات الأقوى، وأريده دون ماء أو ثلج: سادة!

(قالت أمل:

ـ لا أصدق.).

ضحكت السيدة صاحبة المنزل واعتبرت كلامه مزحة . . فقالت قبل أن تتركه .

ـ اختر ماتشاء، كل شيء أمامك . .

(قالت أمل :

ـ عندما وصلت إلى هنا، تركت كل القيود والسيئات والأمراض هناك. لكن بعد أسابيع تكشف لي أن الجميع جاؤوا بأمراضهم وسيئاتهم وقيودهم، ولما وصلوا إلى هنا اشتروا المزيد منها من أهل هذا البلد. تعجبت، وشعرت بنفسي غريبة، حتى كدت أرسل في طلب ماتركته هناك .

قال :

ـ لاتخافي، ستنتقل عدوى ذلك كله إليك قريباً، اللهم إلا إذا حصنت نفسك جيداً . . . على أية حال، هذه الأمراض خبيثة جداً وسريعة العدوى، ولا أنصحك بزيادة في المصاريف لاستيرادها من هناك .

قالت :

ـ وأنت، لماذا لم تصب بها .

قال :

ـ أنا أيضاً مصاب ببعضها، أو أتعرض للإصابة بها أحياناً، لكني، أتقيها بالرياضة الفكرية، والانسجام مع النفس .

قالت :

ـ عجيب أمرهم، الناس هنا مقيدون أكثر . .

قال :

ـ صحيح ، إذا كانوا هناك مقيدين من أرجلهم ، فهنا من أيديهم أيضاً. وإذا كانوا هناك يجلسون في بيوتهم وينهال عليهم المال الكثير عبر طرق مختلفة ، فهنا يركضون ليل نهار، بل ويلهثون في كل الطرقات، وراء دولار واحد يدخل جيوبهم. وإذا كانت هناك غشاوة على عيونهم، فهنا العيون معصوبة تماماً .

قالت :

ـ سبحان الله، إن في خلقه لشؤون .

قال :

ـ بينما يقول شاعر، إذا كان الإنسان قد تطلب آلافاً من القرون في مسيرة تحوله من قرد إلى إنسان، فإنه بلحظة واحدة يمكن أن يرجع إلى أصله فيتحول إلى قرد .

ضحكت ثم قالت بجدية :

ـ كنت أودّ أن أشرب نخباً لولا إحراجك .

قال:

- أقبل يدكِ على نخب كهذا، أنا أعتز بماضيي.).

قالت صاحبة البيت:

- الكلمة لضيفنا الجديد، هو الذي يرفع النخب.

قال:

- لكنني لاأعرف قول الأنخاب، ولهذا لاتزعلوا إذا أخطأت.

(قالت أمل:

- أنت تحب الكأس، بصحتك.).

تعالت صيحات وأصوات مطالبة برفع نخب جديد.

رفع كأسه عالياً، رفع الآخرون كؤوسهم، نظر في وجوه الحاضرين رآها مترقبة متوثبة، فقال بصوت جهوري:

- نخب الذين لم يغادروا أوطانهم!

(تساءلت أمل في نفسها:

- هل يتعمد إدانتي؟).

ران صمت رهيب للحظات، وراحت العيون تلتقي ببعضها مستفسرة، محبطة الأمل، لكن سرعان مابادرت صاحبة البيت تنقذ الموقف:

- لنشرب، أمي وأبي لم يغادرا وطنهم، إذن هذا نخبهما.

قال أحدهم:

- أنا لي هناك عشيرة كاملة، نخب عشيرتي.

صاح ثان:

- نخب أصدقائي الطيبين هناك.

قال ثالث:

- ربما هؤلاء أيضاً يشربون نخبنا الآن.

اعترض هو:

- مستحيل، الأشجار الخضراء لاتعتز بالمتيبسة، المقطوعة من جذورها، بل تبكي عليها، ترأف لحالها.

قالت فتاة:

- أنا أيضاً أرفض هذا النخب، لا أحترم أحداً بقي هناك.

(قالت أمل:

- أنا سائحة.).

قال آخر:

- لكل أسبابه، البعض يتصور أن الجنة هناك، والبعض الآخر يتصورها هنا.

وارتفع صوت المطرب من آلة التسجيل:

- جنة، جنة، جنة..

تسلم ياوطنا

ياوطن ياحبيب

يا بو التراب الطيب

حتى نارك جنة..

ركض الجميع إلى حلبة الرقص، لكن بعد انتهاء الأغنية ارتفع صوت المطرب نفسه في موال فتوقفوا عن الرقص.

- اللي مضيّع ذهب بسوق الذهب يلقاه

واللي مضيّع محب يمكن سنة ويلقاه

واللي مضيّع وطن وين الوطن يلقاه

ترقرقت الدموع في عينيه، فرفع كأساً مترعاً بالأمل الكبير وعبّه في جوفه وهو يقول في نفسه:

- نخب الوطن الذي يجب أن لا يضيع.

وغير أحدهم الشريط، فانبعثت من آلة التسجيل موسيقى غريبة صاخبة فنهض الحاضرين إلى الرقص من جديد..

(قالت أمل:

- هذا أول عيد أقضيه خارج البيت، أتذكرهم اليوم جميعاً..

قال في نفسه:

- للذكرى طعم مختلف من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى آخر بالنسبة للشخص الواحد.. وهذا الطعم فيه الكثير من الأهمية مهما كان تحوله من عذب إلى مستساغ إلى مقبول، فمر كالعلقم، لكن ما إن تفقد الذكرى طعمها، ولا يبقى لها في الفهم حلاوة أو مرارة، الإنسان يتعرض لأخطر مشكلة.. فقدان الذاكرة.

وقال لها:

- ذكرياتك لاتزال طرية، أتمنى أن تحافظي على طراوتها هذه..

قالت:

- وهل حافظت أنت على هذه الطراوة كل هذه السنين؟

قال في نفسه:

ـ بعض الشعوب قديماً كانت تعمل على محو ذاكرة أسراها بطرق غاية في القسرية، وبعض الشعوب حديثاً تعمل على محو ذاكرة ضيوفها بطرق غاية في الديمقراطية . .

وقال لها :

ـ عليك أن تحكمي . .

قالت :

ـ أنت أول شخص مختلف عن الآخرين أصادفه . .

قال في نفسه :

ـ عليك ان تبحثي جيداً . . من جَدّ وجَدَ . .

وقال لها :

ـ هناك كثيرون أمثالي، ولو أن أحد الأصدقاء يسميهم بالمنقرضين .).

دقائق ويحل العام الجديد، الجميع يرقص، الموسيقى صاخبة، الأضواء ساطعة وسط عتمة خفيفة، لكنها تبدو شاحبة، وعندما تفرش على الوجوه والأجساد تحولها إلى أشباح حقيقية ترقص رقصة العفاريت. . . يبدأ العد العكسي. العيون مسمرة. الأفكار جامدة، العقول مقيدة، إلا الحركات، هي التي تستمتع بقدر أكبر من الحرية والفتان. . . دقيقتان . . دقيقة . . نصف دقيقة . . . ساعتك خطأ . . ساعتي صحيحة . . الزمن لا يسير بالساعات . . انطفأت الأضواء كلياً، ثم أشعلت كاملة . . . عناق . . . تهنئة . . . قبلات . . . تمنيات . . . كل عام وأنتم بخير . . .

(قال بعد صمت في لحظة شعر أنه قوي جداً :

ـ ارجعي إذا قدر لك.

قالت بنشوة منتصر يخاف أن يتحول انتصاره إلى هزيمة :

ـ لكنك تحبني.

قال واثقاً من نفسه :

ـ سأحبك أكثر . ستكونين أقرب إلي . . وفي الأقل ستبقين خضراء يانعة .

قالت :

ـ أنت بقيت أخضر هنا .

قال :

ـ أنا مطعون ألف طعنة! ألا ترين؟

قالت :

ـ أراها دون أن تتعرى .).

توقفت الموسيقى . . توجه أحدهم نحو آلة التسجيل . .

صوت: أم كلثوم.. أم كلثوم ياشباب.. رقص شرقي..

صوت: أمل حياتي..

صوت: أي أمل.. لاأمل في حياتي..

صوت: الحياة كلها أمل...

صوت: أمل في العودة.

صوت: لاعودة ولا بطيخ.. أين نجد أحسن من هذي الحياة.

صوت: خرا على هذي الحياة.

صوت: الأمل زاد الرجال...

صوت: الأمل هو الدولار..

صوت: والدولار سيد الدنيا.

صوت: أستغفر الله.

صوت: أين يباع الأمل؟.

صوت: أين يشترى؟.

صوت: ضاع الأمل.

صوت: آه.. ياأمل..

أوتاوا ١/ ١/ ١٩٢

البهجة والقانون

جوزيف توماسي دي لامبدوزا — ترجمة: هلال حميد

حين صعد في الحافلة اقلق الجميع.

فالملف المكتظ بأوراق الغير، والعلبة الضخمة التي جعلته يقوّس ذراعه الايسر، والاضبارة المخملية الرصاصية، والمظلة الموشكة على الانغلاق، كل ذلك جعل من الصعب عليه ابراز بطاقة الاياب. اضطر لان يضع العلبة الضخمة فوق منضدة بائع التذاكر، فأحدث انهياراً في القطع النقدية الصغيرة والتي لا يمكن تقديرها، حاول ان يحني نفسه ليلتقطها، فأثار احتجاجات من قبل اولئك الذين كانوا خلفه على مماطلته التي افزعتهم حين امسك الباب الاوتوماتيكي بأذيال معاطفهم. فأفلح في ان يدس نفسه في صف الناس المتشبثين بأعمدة ممر الحافلة. كانت بُنيته هزيلة لكن حزمه وملفاته اضفت على هيئته شكلاً مكعباً شبيهاً براهبة منتفخة ارتدت سبعة ثياب داخلية. وفيما كانت الحافلة تتزحلق في الاوحال عبر فوضى المرور، كانت ضخامة حجمه غير الملائمة تبعث على مؤاخذات شملت الجميع من المؤخرة الى مقدمة الحافلة المزدحمة: داس على اقدام، ديس على قدميه، سبب مضايقات وحتى حين سمع ثلاث كلمات من ورائه كانت تلمحُ لاصاباته الزوجية المزعومة، امره الشرف بان يدير الرأس فأوهم نفسه انه استلم وعيداً في التعبير المنهك لتلك العيون.

في هذه الاثناء، كانوا يطوفون في ازقة كانت الواجهات الباروكية الفظة فيها تخفي المناطق الداخلية الوضيعة، والتي كانت تنط للعيان بين منعطف وآخر، وكانوا ينسلّون امام

الاضواء الشاحبة لتلك المتاجر التي تجاوز عمرها الثمانين.

بلغ منطقة الوقوف، ضغط زر الجرس، نزل، تعثر بالمظلة. اخيراً وجد نفسه منفرداً بمتره المربع من رصيف مفصول. تعجل ليتأكد من وجود المحفظة البلاستيكية، وكان طليقاً في تلذذ سعادته.

كانت المحفظة تحتوي على مبلغ ٣٦,٢٤٥ ألف ليرة، وهذا المبلغ هو «المرتب الثالث عشر لرأس السنة» الذي استلمه قبل ساعة، وهذا يعني التخلص من هموم وشويكات موخزة كثيرة: كصاحب البيت الحثيث الذي يتعين عليه ان يدفع له ايجار فصلين، والمحصل المضبوط في مواعيد استلام اقساط السترة المصنوعة من «جلد الارنب» التي اهداها للزوجة («احسن بكثير من المعطف الطويل، يا عزيزتي، لانها تجعلك رشيقة»)، والنظرات النكراء لبائع السمك ولبائع الخضروات. فالاوراق الاربع المالية من الفئة الكبيرة تلك ستبدد ايضاً المخاوف من دفع فاتورة الكهرباء المقبلة، وستريل النظرات الحزينة على احذية الاطفال، وستبعد الملاحظة القلقة على ارتعاش لهبة الطباخ الغازي، صحيح انها لا تمثل ثروة إلا انها على الاقل تمهل المرء فترة راحة من الكآبة، وهذه هي البهجة الحقيقية للفقراء. ويا حبذا لو كان زوج آخر من تلك الاوراق المالية من فئة الالف ليرة، لكانت قد بقيت على قيد الحياة للحظة ومن ثم لاستهلكت في بريق غذاء عيد الميلاد.

لكن «مرتبات» كهذه كان قد استلم منها كثيراً، اكثر من ان يسند لها المسرات الزائلة وان يعزي لها هذه البهجة التي يخمرها الآن، بهجة وردية. نعم، بلون الغلاف الخفيف الذي يحذر ذراعه الايسر. تلك البهجة كانت تطوف به بعيداً وكانت تنبت بالذات خارج الكيكة بوزنها الثقيل التي جلبها من مكتب عمله. فهو لا يجن لهذا الخليط المأمون والفاخر رغم مشهياته: طحين، زبدة، سكر، بيض، عنب يابس، بل، في حقيقة الامر، ما كانت تروق له. ولكن سبعة كيلوات من مواد فاخرة دفعة واحدة! لعلها شيء محدود، غير انها تمثل خيراً وفيراً قياساً لبيت كان القوت يدخل فيه بالغرامات وانصاف الالتار! وانها منتوج فاخر قياساً بأغذية من الدرجة الثالثة! يا لها من بهجة لماريا! يا لها من مفاجأة للاطفال الذين ينتظرون منذ اسبوعين شيئاً اسمه حلوى، ليأكلونه وقت العصر!

غير ان هذه البهجات هي للآخرين، بهجات مادية، مصنوعة من الوانيلية والورق الملون، الخلاصة. كيكة. في حين كانت سعادته الشخصية تختلف تماماً، انها سعادة روحية، ممزوجه بالزهو والحنان، نعم يا سادة، روحية.

قبل ان يوزع الكومندير مدير مكتبه المرتبات وتمنيات عيد الميلاد بطيبة متغطرسة كطيبة رجلٍ مراتبيٍّ مسنٍّ مثله، قال ايضاً، ان هذه الكيكة التي تزن سبعة كيلوات قد

ارسلها معمل الحلويات كهدية للمكتب، على ان تهدى لاكثر الموظفين كفاءة، وبالتالي يرجو من الموظفين الاعزاء ان يرشحوا بشكل ديمقراطي (بالضبط قال هكذا). . صاحب الحظ السعيد.

كانت الكيكة في هذه الاثناء مستقرة هناك، وسط منضدة الكتابة، ثقيلة، مبهمة، «حبلى بالتنبؤات» مثلما كان الكومندير يحبذ ترديد هذه الجملة قبل عشرين عاماً بجبته الصوفية. سرت بين الزملاء همهمات وابتسامات، من ثم، هتف الجميع باسمه، وكان اولهم المدير. فكان ذلك شعوراً بالرضا، وشيئاً يطمئن النفس باستمرار الوظيفة، بعبارة واحدة، كان انتصاراً عظيماً. ولا شيء كان بوسعه اقلاق تلك البهجة المعيدة للحياة، لا الثلاثمئة ليرة التي دفعها في «البار» حين قدم القهوة للاصدقاء في ذلك الغسق الاعصاري الشاحب، وتحت اضواء «النيون» الباهتة، ولا ثقل الغنيمة، ولا الكلمات البذيئة التي سمعها في الحافلة، لا شيء من كل هذا، حتى ولا الهاجس في اعماق وجدانه بان ذلك ما كان سوى مهانة ورأفة به نظراً لحاجته بين الموظفين. كان فقيراً حقاً، افقر من ان يسمح لعشبة الزهو ان تنبت حيث لا ينبغي عليها.

توجه الى بيته عبر طريق خرب متداع. كان القصف الجوي قبل خمسة عشر عاماً قد اكمل خرابه وأتم تداعيه. فوصل الى ساحة صغيرة شبحية الشكل تستقر في عمقها بناية منغلقة على نفسها شبحية هي الاخرى.

سلّم بحرارة على البواب كوزيمو الذي كان يستهين به، لانه كان يعرف ان كوزيمو يحصل على مرتب شهري ادنى منه. تسع درجات، ثلاث درجات، تسع درجات: الطابق الذي كان يسكن فيه الفارس تيتسو. يا للقرف! صحيح انه كان يملك سيارة فارهة، ولكن صحيح ايضاً ان له زوجة قبيحة، عجوز وقليلة الادب. تسع درجات، ثلاث درجات، فسحة، تسع درجات: وهنا مسكن الطبيب سمبرونيو: يا للتعاسة! ابنه عاطل عن العمل ولعبه الوحيد الدراجات النارية، وصالة انتظار مرضاه دائماً فارغة. تسع درجات، ثلاث درجات، تسع درجات: هنا مسكنه، وهو مسكن صغير لرجل محبوب، مخلص، محترم، مكافأ، لرجل محاسب متفوق على الآخرين. .

فتح الباب، توغل في المدخل الضيق المعبق برائحة البصل المحروق، وعلى صندوق خشبي كبير وضع العلبة الثقيلة والملف المكتظ بمصالح الغير والاضبارة الكبيرة.

هتف بصوت مجلجل:

«ماريا! تعالي بسرعة! تعالي وانظري هذا الجمال!».

خرجت الزوجة من المطبخ، بثوبها البيتي البنفسجي المتشرب برائحة ودهان القدور، عاقدة يديها الصغيرتين المحمرتين من الغسيل على بطنها المشوهة من الولادة.

تبعها الاطفال بأنوفهم المدبقة يصفرون ويتحلقون حول النصب الوردي دون التجرؤ على لمسه. «برافو! برافو عليك! والمرتب هل جلبته؟ فأنا ما عدت املك ولا ليرة، أبا..». «ها هو ذا، يا عزيزتي، اليك المرتب، سآخذ منه فقط العملات الصغيرة ٢٤٥ ليرة. ولكن انظري.. لنعمة الله هذه!».

قبل بضع سنوات كان لماريا وجه لطيف فطن، تضيئه عينان متقدتان. والآن خصامها مع اصحاب الدكاكين ابح صوتها، والغذاء السيء اتلف بشرتها، والبحث المستمر عن مستقبل محمل بالضباب والصخور أطفأ اللمعان من عينيها. ففي اعماقها كان لا يبقى على قيد الحياة غير روح مقدسة، اذن انها اعماق لا تلين خالية من الحنان، وطيبة لا تعرف التعبير عن نفسها إلا عن طريق التأنيبات والنواهي، وأنفة طبقية مكبوحة لكنها عنيدة، لانها كانت حفيدة لبائع قبعات مشهور في شارع الاستقلال، وكانت تستخف بالمنحدرات العائلية التي لا تماثل منحدر زوجها جيرولامو الذي كانت تحبه كما يحب المرء طفلاً احمق لكنه عزيز.

نظرت العلبة المذهبة دون اكتراث وقالت:

«حسن جداً. سنرسلها غداً للمحامي (رزما)، الذي ندين له كثيراً بالمعروف الذي صنعه لنا».

كان المحامي قد عهد له بعمل حسابي معقد قبل عامين، وعلاوة على دفعه مبلغاً له، دعا كلا الزوجين على مأدبة غذاء في بيته الثري، وفي ذلك اليوم كان المحاسب يشعر بألم شديد وكان يتأوه كالكلب بسبب الحذاء الذي اشتراه لهذه المناسبة. والآن لاجل هذا المحامي الذي لا يحتاج لشيء. كان يتوجب على الزوجة ماريا، والاطفال اندريا، سافيريو، جورجين، وهو نفسه، ان يتنازلوا عن هذه الغنيمة التي حصلوا عليها بعد جهد جهيد.

هرع للمطبخ، اخذ السكين وراح يقص الشرائط المذهبة الجميلة والعقدة الملفوفة بكل ذوق واناقة، واذا بيد محمّرة هوت بتعب على الكتف:

- «جيرولامو، لا تكن طفلاً، انت تعرف ان علينا التخلص من التزامنا مع المحامي».

تكلم القانون، القانون الصادر عن باعة القبعات المنزهين من الذنوب..

«ولكن، يا عزيزتي، هذه مكافأة، شهادة استحقاق، دليل اعتبار!».

«دع هذا. دعك من المشاعر الرقيقة لاولئك الناس زملائك! هذه صدقة، يا جيرو، لا شيء غير صدقة.» دعته باسمه القديم من جانب المودة، وابتسمت له بعينيها اللتين لا يعرف احداً سواه كيف يعثر فيهما على ذلك السحر القديم.

«غداً ستشتري كيكة صغيرة اخرى، وستكفينا، مع اربع شمعات حمراء من تلك

المعروضة في المخازن الكبيرة، وسينتهي الامر وسيكون عيداً بهيجاً».

في الغداة ذهب فعلاً واشترى كيكة عادية صغيرة، وبدلاً من اربع شمعات اشترى شمعتين من النوع الجيد، وعن طريق احد مكاتب التوزيع ارسل العلبة الكبيرة الى المحامي (رزما)، مما كلفه مئتي ليرة اخرى.

بعد عيد الميلاد، اضطر لشراء كيكة ثالثة، قسمها الى قطع صغيرة وقدمها لزملائه الذين كانوا يناكدونه، لانه لم يقدم لهم حتى ولا نتفة من تلك الغنيمة الفاخرة.

لكن ستاراً من الضباب هبط على مصير الكيكة البكر.

عاد ثانية الى مكتب «فولمنه» شاكياً اليهم ومستفسراً عن مصير الكيكة، فعرض عليه دفتر صغير للوصولات ومن بينها امضاء بالمقلوب لخادم المحامي. ولكن بعد فترة على عيد الغطاس وصلت بطاقة صغيرة «مع جزيل الشكر واطيب التمنيات».

وهكذا انقذ الشرف.

أربع لوحات لوجه مدينة أثرية

محمد عبد الرحمن يونس*

(إلى الروائي الأستاذ عبد الكريم ناصيف)

اللوحة الأولى

فاسد هواء المدينة، عفن أسود يغطي أرصفة الشوارع، وواجهات المتاجر، التي استنفرت وأعلنت نيتها في العربدة ابتهاجاً بالأعياد القبلية، والأعياد التي سنتها أخيراً المافيا الوطنية ووضعت لها ألف اسم وشكل ولون. اسودت وجوه الناس، ارتعدت أوصالهم، غزا الغبار أعناقهم ورموشهم.. زادت عيون الباعة قتامة وتحجراً. شعر أن زحام المدينة يستل مخالبه، ويغرسها دفعة واحدة في صدره الهش، وتحسس صدره، لكن المخالب انغرزت مسرعة، حتى أعماق قلبه.

تأمل الصباح الباكر، وشروق الشمس، لاطعم له، ارتجفت الشمس باهتة، وتساقط دمعها الغزير، فغطى الأزهار والعفن.

فتح صدره للنسمة، حارة كالقطران، وأغمض عينيه وفتحهما، ثمة غشاوة كثيفة تحاصرهما. آلمه حذاؤه الوطني الجديد، فنزعه وأخذ يتسكع حافياً، لم يأبه لأشواك الصبار الحادة التي انغرزت في مسامات قدميه، تأمل الدماء السوداء الطرية وهي تنزف من قدميه، راح يستمع مشدوهاً لأصوات الطبول، وهي تخترق الشوارع والأزقة. شاهد

* كاتب وأستاذ جامعي من اليمن.

الأطفال والسيدات يهرولون حفاة، ثم يغيبون، ليمتصهم الشارع، ويقذفهم إلى جوف المقبرة ونادى: سعدية، أيتها الغابة البكر، تعالي المدينة لن تكون مأوانا، ولن نجد كوخاً واحداً تحت ضوء شمسها. ولا صفصافة واحدة تعانق غربتنا.

احزمي حقائبك. . اجمعي. . فلنرحل. . قد نجد أرضاً وماء وكروماً تشتعل بالحنين والذكريات الدفينة. وإن لم نجد فاطويني بين جناحيك، ودعي هذه الريح الملعونة تثقب هذه المدينة من شريانها إلى وريدها. خانق هواء هذه المدينة، محزونون وغرباء ومقهورون سكانها، وأين وجه الشمس الذهبي؟

وأين النورس الذي انتظرناه ألف عام؟

سخر منا، وامتطى أول غيمة، وتركنا نجتر صمتنا وفراغنا الوحشي. . انحسر البحر وتكورت المدينة، واستلت سيوفها، وطعنتنا واحداً واحداً، تجمعت رؤوسنا كثيباً، ثم أتى عمال القمامة، رفعوها ورموها طعاماً للحيتان والكلاب، والقطط السيامية التي استوردت من ميامي، وسان لازار، والبيكادلي، فنشر التجار والطبالون، وصحافيو الباشا بضائعهم الجديدة، وبدت واجهات المحلات أصدافاً بحرية، وتماوجت أجساد النساء، ورقصت على وقع سيلان لعاب التجار، الذي غطى رصيف الشارع، ثم سرعان مابتلع المارة، نساء. . شيوخاً. . وأطفالاً، وقررت الغابة أن تتسع، وتطرد المنبوذين الذين احتموا بها ساعة الغفلة. . تراكمت البضائع والأفيون المستورد، فنمنا قيظ الشمس في حزنها الراعف، وعشقنا سويعات حبلى بفرح، وقمر حزينين، أصرا على أن يتأخرا دائماً. .

كل الأشياء نمت واستطالت في المدينة. . وحده الفرح تقلص واختفى، خجلاً من هربه وكآبته. عندئذ أعلن باشا المدينة رغبته في اتخاذ ألف خليلة وجارية، فاستحضر البنائين، وأعطى أوامره ليرجموا البحر بالصخور، ويشيدوا فوقها جزيرة، ثم ألف قصر موشى بالزبرجد والياقوت، وفي وسطها بركة عذبة، لتستحم الجواري والخليلات، والأميرات، والسيدات الأول في يوتوبيا المملكة المقدسة. وأعطى أوامره لوزيره الأول، أن يعلن حالة الطوارىء القصوى، ريثما ينتهي من شراء الجواري. ووعد الشعب العزيز والمخلص، أنه بعد بناء الجزيرة، سيقيم سوقاً للجواري والقيان، ويفتتح ألف خمارة، حتى ينعم الناس باللهو والرقص والموسيقى الساحرة، وأنه سيستورد لهم أحدث سيارات الفورد من أمريكا، وسيجعل المملكة المقدسة قبلة للسياح، الذين سيدرون الخير والبركة بفضل دولاراتهم الخضراء البراقة، ثم بعد ذلك سيفاوض زعماء العشائر والمتمردين، ويعطيهم الصحراء جميعها. . فما جدوى الصحراء. . ياشعبي العزيز. . امرأة طامث لايأتينا منها إلا الريح والسموم، والرمال وسعف النخل اليابس، وأقسم لكم بشرفي وتربة أجدادي الطاهرة، إني لن أترك بيتاً واحداً إلا وفيه جارية وخمر وحشيش، وسأوزع ثروة

البلاد النفطية عدلاً عليكم جميعاً، لتشتروا الفديو وأشرطة الجنس الملونة. وتكثروا النساء والإماء، حتى أباهي بكم البلدان المجاورة، وسأقيمها عادلة على حد السيف. لكني أريد الأمن والهدوء، حتى أنتهي من بناء جزيرتي، ومن لم يصمت ويهدأ، فإني أقسم بالتربة الطاهرة التي جاءت منها أمي إني سأفصل عنقه عن جسده، وأرميه إلى نسور الصحراء الجارحة.. اسمعوا وأطيعوا.. إن طاعة السلطان من طاعة الله.

اللوحة الثانية

«يامن يصدق خبيزة بحق الله.. أنا أموت جوعاً.. يامغني الخلق، ياخالق الخلق، ياباني الأمم.. ياهادم الأمم.. أما من خبزة واحدة تطفىء وجيعي في هذه الريح الملعونة؟»..

يأتي الصوت راجفاً حنوناً، منكسراً، منطوياً، متدثراً بوحدته، يشرق وجه المتسول بنغمة حزينة.. ينحني على عصاه مقوس الظهر، يميل برأسه إلى الأمام، ثم يكرر نداءه: «يامن يصدق خبزة بحق الله»(*). يمد يده للسيل الزاحف من البشر المتسكعين الذين يملؤون أرصفة المدينة، في طريقهم إلى الحانة المركزية، التي افتتحها الباشا في احتفالات المملكة السعيدة، بالذكرى الخامسة والعشرين لتربعه على عرش أجداده الميامين، يشيح الناس بوجوههم عنه.. يهرب الخبز مسرعاً يصبح خلباً.. يتدحرج بعيداً.. تلتقطه القطط السيامية، من الأيدي البيضاء المخضبة بعطور هوليود، والكحل العربي الأصيل، الذي صنعه أمهر عطاري المملكة السعيدة.. يمد المتسول يده، يسرع الخبز.. فيطفح وجهه مسحة هادئة كئيبة، ترسل أشعتها لتخترق الشارع الرئيسي، ثم تعود نافذة إلى أعماق شرايينه.. يرتجف الوجه والأصابع.. تضيق حدقتا العين، يهتز العكاز، ثم يبكي على وقع نقر الدفوف والطارات. ودق الأكواب والكؤوس..

«تشيرز» أيها الزمن الجميل.. «أفك فوتر سونتي» أيتها المملكة السعيدة.. بصحتك ياسيدتي الأميرة.. هات الطاس والكاس أيها الساقي.. لن أصحو أبداً.. فما أجمل أن يبقى الفرد مهزوماً وسكراناً دائماً.. ويصفق للباشا كلما اتخذ خليلة وكلباً، وسيارة من تكساس الساحرة..

أليست تكساس هي الأصل والحضارة، والحبيبة، والأفق المفتوح صوب «مادونا»، و«مارلين مونرو» و«بروك شيلدز»..؟

ترتفع الكؤوس... وقع رنينها يغطي أرض الشارع، وسماءه وزواياه.

يقترب المتسول، لكن الخبزة تمتطي ظهر جواد، روض ليدخل في مسابقات

الفروسية.

يفلت لجام الحصان.. وكالسهم ينطلق نحو قصر «الصخيرات»، حيث الجواري والخليلات يستحممن بجوز الهند. وعطور (لاساس فيغاس).

تعود يد المتسول بيضاء فارغة.. مسحة الحزن تزداد بريقاً.. لاأحد الليلة يتصدق.. أين أصحاب الخير؟.. أين الخبزة؟..

تطير.. تصبح شعاعاً، ثم تختفي.. ينطوي المتسول مسكوناً بوجعه. تزداد ضجة المدينة، تغص الحانة المركزية.. يتوارى الناس عنه.. يسند رأسه على عكازه.. تختلج عيناه راعفتين، ثم يصمت متأملاً الناس.. مستسلماً لشعور غامض، يملؤه وحشة صامتة، يشرق وجهه بالدمع، ثم يتجه قاطعاً أزقة «الكزا العتيقة» صوب شاطىء البحر، وهو ينادي «يامن يصدق خبزة بحق الله»..

اللوحة الثالثة

يكتظ نادي «جيفرسون الليلي» براقصي الجاز «والروك آند رول».. موسيقى صاخبة تثقب الرؤوس العامرة بالحشيش والجنس.. بطون الرواد الجميلة المتكرشة تتدلى حالمة من وراء طاولاتها..

يهتز النادي.. يهتز الناس.. هنا الفضاء الشاسع الرحب، حيث تنفلت الأحاسيس في غفلة من الزمن، ومن عيون بصاصي الباشا، هنا يحلم الناس، ويبنون جزراً ومراكب وأجساداً شامخة كسرو «خنيفرة» ويفرغون همومهم في كؤوس «الباستيس» الفرنسي، و«الروج ذي الخمس نجوم»..

ثم يخرجون يبولون، ويتقيؤون، ويعقدون صفقات مع عاملات النادي، ذوات الشعور الطويلة، كنخيل «شفشاون».

في الزاوية الشمالية، ثمة شرير، صفت أمامه عشرون زجاجة، فبدا منتفخ الوجه، جاحظ العينين.. تأمل الناس المتنفخين، وبهدوء كرع الزجاجة دفعة واحدة، ثم أخذ يشتم الزمن والناس والتاريخ ببذاءة قاسية، واستحضر الحوادث من الحرب العالمية الأولى، حتى آخر سنة بنى فيها الباشا، قبته ذات السبع مآذن، وأمر أن يدفن فيها بعد موته..

نادى النادل مندفعاً هائجاً: ابن الكلب، هات زجاجتين، أيها الحلوف، ألا تعرف أن تقدر قيمة أسيادك، سأبقر بطنك ذات يوم.

تقدم النادل مرتجفاً، معتذراً، ووضع بلباقة ثلاث زجاجات، وأكد أن الثالثة هي

إكراماً من «البترونة» صاحبة النادي، ثم فتح واحدة، وملأ زجاجة الرجل، وتراجع منحنياً ومادحاً:

ـ آنستم سيدي.. زدتونا بركة.. نحن دائماً خدمكم.

شرب الرجل الكأس دفعة واحدة.. ملأها.. أفرغها ثانية.. انتهت الزجاجة، بدأ بكاء صامتاً، ثم سرعان ماتحول إلى صراخ نازف حاد، مسك الزجاجة، وضرب الحائط.. تناثرت ذرات الزجاج، تطايرت فوق رواد النادي.. ارتجفت سيقان النساء.. صرخت سيدة أنيقة بهيبة وحزم: أبعدوه.. يجب أن يخرج الحمقى.. هنا مكان السادة والرجال المحترمين.. زأر الرجل ودوى:

ـ أيتها الداشرة.. الآن أصبحت تعرفين السادة، وترفعين صوتك.. جلبناك خرقة بالية من أزقة «خنيفرة».. وجعلناك سيدة وترفعين صوتك أيتها القوادة.. تفو على هذا الزمان الذي جعل الداشرات سيدات في القصور والدهاليز..

ـ تأدب.. واحترم نفسك أدوسك بجزمتي الإيطالية هذه، وغمزت بطرف عينها إلى أربعة رجال كانوا يحيطونها..

تقدموا.. أخذوه.. صفعوه ورموه خارج النادي..

لوحة أمامية

على طاولة البار، انسدل شعر أسود فوق كتفين عريضين، هزت المرأة جسدها.. فزاد انحسار الثوب.. لمع فخذ أسمر وتماوج كالنيزك حملقت عيون السكارى مبهوتة.. تماوجت حركة الفخذ مع الموسيقى الصاخبة، فارتعش الزغب الأنثوي مبتهجاً ثملاً.. تقدم أحد السكارى.. أحاط خصر المرأة بذراعيه.. تبادلا الأنخاب.. دس يده. ارتعش الزغب النامي.. واستسلمت المرأة لذراعيه..

ـ شربت كثيراً يامدام.. هل فقدت أحداً؟

ـ أبي.. أمي.. زوجي.. ولدي.. مدينتي... لاأعتقد أن لي أحداً آخر حتى أفقده..

ـ أنت أميرة.. أنا عبدك.. سأكون لكِ الرمش والحاجب.. سننام الليلة معاً. مارأيك؟

ـ مائة درهم.. عداً ونقداً، وثوب جديد أيضاً من محلات «سي العلمي» الأمريكية.

تحسس الرجل جيوبه.. جيب قميص خاوية تماماً، وقطع نقدية مبعثرة في الجيب الأخرى.

أخرجها.. أحصاها مرتين، وقال بأسى:

ـ بشرفي وبأولادي الأربعة الغائبين، لاأملك سنتيماً واحداً إلا هذه..

حملقت المرأة في الدراهم المفرودة على طاولة البار.

ـ خمسة وسبعون درهماً.. يبدو أنك رجل طيب ورقيق وابن حلال.. موافقة.. هيا نذهب. نهضا.. غادرا النادي..

في الخارج شوارع المدينة قاتمة.. صمت خانق.. ليل ذئبي خاو.. خاوية الشوارع إلا من بعض المتشردين والسكارى.. قطعا أزقة ضيقة.. واتجها صوب «باب الملاح» الشعبي على الطرف الآخر من المدينة، حيث يرقد البحر هادئاً وديعاً تحت سماء الرب الشاسعة.

اللوحة الرابعة

غزيراً كماء القرب، يتساقط المطر في شارع المهدي بن بركة، ترتجف المدينة، محتضنة طقوسها العربيدية، ونساءها الفاتنات.. وتجارها المبدعين.

يتراجع منكسراً.. يحتضن أمتعته الخفيفة من أوراق الجرائد، والخرق البالية، ثم يفترش مدخل البناية الشاهقة، يرحب المتسولون به. يعطونه نصف خبزة، وحبات متعفنة من تمر «شفشاون». يحمد الله ويشكره ألف مرة.. ياباري النسمة.. يافالق الحبة.. ياأكبر من كل كبير.. ياقابض مفاتيح الغيب.. يامطعم النمل.. ياساقي الإبل.. اشملني برحمتك..

مطر السماء ينقطع رويداً.. ثمة بقية قطرات تنقر واقيات بوتيكات النساء الملونة.. يخرج من مخبئه.. يتأمل الشارع.. ماأجمل المطر في ساعة متأخرة كهذه! يدندن مقطعاً أندلسياً حزيناً.. ويغني الأجداد الميامين الذين عبروا إلى «بواتيه واليكانت»..

خذوني معكم.. أنسج لكم طواقي مزركشة، وأجلو الصدأ عن سيوفكم.

من تداعياته الهادئة الحزينة تخرجه قشعريرة أصابعه. فينزع الحذاء ويقطع الشارع وحيداً، كم يبدو هذا الشارع أليفاً، رغم الضباب والأشباح ورجال البوليس الذين يزرعونه، كلما شاهدت زوجة باشا المدينة كابوساً مزعجاً.

هي ذي الليلة ترسل عسكرها، ليؤدبوا الليل الذي أرقها، والذين لم يتقيدوا بقانون منع التجول.

يهبط الرجال من سيارتهم المصفحة.. يحيطون به.. يحاصرونه بهراواتهم الأمريكية البيضاء..

ـ بطاقة تعريفك؟

ـ لا أملك، فقدتها.

ترن القبضة الفولاذية، عاصفة بوجهه الشاحب، تتراقص مع قطرات المطر الخفيفة.

ـ ماذا تفعل ياابن الداشرة في هذه الساعة المتأخرة؟

ـ أمارس هوايتي.. التسكع.. أنا أعشق التسكع في مثل هذه الآونة!.. أعتقد أني أملك هذه الحرية في ظل دولة مولآنا الباشا، وعراقة قوانينه الديمقراطية، لايحق لكم أن تحرموني من هذا الحق.

ركلة قوية ترفسه، فيتطوح وسط طين الشارع. بعد الساعة الثانية عشرة يمنع التجول.. ألم تسمع بالقوانين؟

ـ لماذا لا تذهب إلى زوجتك وأولادك؟

ـ وبيتك.. كيف تترك بيتك.. أيترك عاقل منزله الدافىء في ليل ديسمبر هذا؟

ـ بيتي تحت سلم تلك البناية.

ـ أنت سارق وسفاح.. وقاطع طريق.. أنت الذي تخيف النساء والأطفال وتفسد طمأنينة سكان البنايات. أخبارك وصلتنا.. تعال معنا.

يضعون في يديه سلاسل نحاسية مستديرة، ويقذفون به إلى جوف السيارة.

في سجن المدينة المركزي.. الليل رطب وموحش وطويل، رطوبة الزنزانة تنخر أضلاعه، يغمض عينيه، ويردد مائة مرة.. حسبي الله ونعم الوكيل، ثم يرسم دوائر في الفراغ، ويشكل امرأة جميلة، وحصاناً عربياً، ويتقلد سيفاً، لا بد ان اعبر الاطلسي ذات مساء، تضيق جدران الزنزانة.. يضغط القفص أضلاعه.. يحملق في سقف الزنزانة.. الرابعة صباحاً وما استطاع النوم.

انتظر شروق الصباح.. ما شاهد شمساً ولا نافذة.. اختفت المرأة والسيف والحصان.. أغمض عينيه، واستسلم حالماً بهواية التسكع القديمة التي عشقها، في رباط السجون واالقلاع الاثرية العريقة.

وكانت المدينة تعربد صاخبة على أصوات الطبالين والزمارين، وأغاني الفولكلور التي ألفها شعراء الدرجة الاولى في الذكرى الخامسة والعشرين لتربع الباشا على عرش أجداده الميامين، وثراهم المقدس.

١٩٨٥/١١/١

* من الدارجة، يتصدق بخبزة.

الشعر الكردي المعاصر و «مرايا صغيرة» للشاعر شيركو بيكس

كمال معروف

التحدث عن الأدب الكردي المعاصر يقودنا إلى العودة إلى بدايات هذا الأدب بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، حيث أن الأدب الكردي شهد خلال هذه الفترة حركة مماثلة في ميدان التجديد.

يعود ظهور هذه الحركة إلى عدة عوامل محلية وإقليمية ودولية، فانعكاسات الحرب العالمية الأولى والثانية ظهرت آثارها بشكل حاد في المنطقة من جهة، ومن جهة أخرى فالتحولات والتطورات التي مست البنية الاجتماعية للشعب الكردي ساهمت بشكل كبير في ظهور حركة تجديد الأدب والشعر الكردي، وذلك بالإضافة إلى بروز جيل جديد من المثقفين الأكراد المتأثرين بالثقافات العربية والعثمانية والفارسية والإنجليزية. عبر الاتصال الدائم بتطور الأحداث في العالم، استطاع هؤلاء المثقفون دفع عجلة النهضة والتجديد والحداثة في الادب والشعر الكردي. ويمكن أن نذكر هنا من بين هؤلاء الشعراء: شيخ نوري شيخ صالح، گوران، رشيد نجيب، أو رحمان بكي نفوس... إلخ، ثم التحق بهم فيما بعد كل من دلدار، وهردي.. إلخ.

إن حصول هذا التطور، وبروز هذه الحركة، كان يرجع في البداية إلى التطور والتقدم الذي شهدته الحركة الأدبية والشعرية بتركيا، هذه الحركة التي خضعت هي كذلك

إلى تأثير الآداب الغربية الأوروبية المعاصرة. وهكذا صار كوران بمثابة المؤسس للشعر الكردي الحديث، فقد مكنته معرفته باللغة والأدب الإنجليزي من استيعاب جوهر هذه الثقافة وأشكالها الأكثر حداثة ومعاصرة، لكن حركة التجديد في الشعر الكردي المعاصر والحديث لم تقف عند النهل من ينابيع التجديد التركية والأوروبية، بل رسمت لنفسها آفاقاً أوسع وأبعاداً أكبر، ذلك أن عناصر الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي القومي الكردي ساهمت كثيراً خلال تلك الفترة في تطور عملية التفاعل الخارجي والداخلي للحركة الأدبية والشعرية الكردية. وهكذا انطلقت أشغال ترجمة الأعمال الأدبية والفكرية العالمية منها والإقليمية بالمنطقة، الشيء الذي مكن حركة التجديد هناك من الانعكاس ضمن القاموس اللغوي والكردي. وهكذا قام المبدعون الأكراد بعملية تطهير اللغة الكردية من كل المفردات والمصطلحات الأجنبية الدخيلة. كما قاموا بتطويرها على مستوى الدلالة والبلاغة والمجاز والصورة والرمز. لذلك قام شعراء أكراد كثيرون بمساهمة فعالة في حركة تجديد اللغة الكردية وآدابها. فعبر عمليات الترجمة، شهد حقل التأثيرات الخارجية على الأدب توسعاً كبيراً، فتمخض كل ذلك عن ازدياد غنى اللغة الكردية المعاصرة، وتطور الأعمال الشعرية اللاحقة. وفيما يخص هذه المسألة بالذات، فلا نجد هناك أي أديب أو كاتب كردي يمكن أن يطعن في التأثير الإيجابي الذي كان لأعمال الأدباء والمفكرين الأوروبيين على الأدب الكردي الحديث.

أما على المستوى المحلي والإقليمي، فلا يجب أن ننسى أو نهمل التأثير والدور الذي لعبته الثقافة والفكر العربي في العراق وسوريا ولبنان فيما يخص التطور الذي عرفه الأدب الكردي الحديث في هذه المرحلة. إن هذا التفاعل يعود أساساً إلى الجوار الجغرافي والتراث الثقافي والديني والحضاري المشترك الذي يجمع الشعبين الكردي والعربي. وقد شهدت هذه الديناميكية تكريساً فعلياً، خصوصاً خلال الستينات وكذلك خلال السبعينات عبر تلك المدرسة الشعرية التي أسسها كوران.

في أيلول ١٩٦١ اندلعت الثورة الكردية المسلحة بكردستان العراق وذلك بغرض مواجهة وضعية القهر والاضطهاد التي كان السكان الأكراد يخضعون لها. لكن ضعف البنيات التحتية الكردية منع الفئات والأوساط الثقافية الكردية من الظهور بمظهر على مستوى الأحداث والتحدي المطروح أمام الشعب الكردي برمته. لكن كل هذه العراقيل لم تمنع المثقفين الأكراد من العمل بكل الوسائل المتاحة من أجل إيجاد مخرج من هذا المأزق، فالاهتمام الخاص الذي أولوه إلى ما كان يحدث حولهم في البلدان الأخرى، خصوصاً المجاورة منها، مثل لبنان وتركيا... إلخ مكّنهم من متابعة كل المجريات والاطلاع على كل المستجدات، خصوصاً فيما يتعلق بالميدان الأدبي، وهكذا عملوا على

تبنّي وملاءمة هذه المستجدات مع طبيعة وخصائص الشعر الكردي. لكن الظروف الصعبة والخاصة التي يعيشها الشعب الكردي حالت دون إتمام هذه المهمة على أحسن مايرام وبلوغ أهدافهم ومبتغاهم منها.

وقد ظلت هذه الوضعية على حالها حتى ١١ آذار ١٩٧٠ حيث تم التوصل إلى اتفاق بين حركة التحرر الوطني الكردية والسلطات العراقية، تمّ بموجبه الإقرار بالحقوق القومية والثقافية للشعب الكردي وسنّ نظام للحكم الذاتي بكردستان. وهكذا تمكنت الثقافة الكردية من الإشعاع مجدداً، الأمر الذي جعل رجالات الأدب والشعر والفكر الأكراد يعودون من جديد إلى احتلال الساحة الثقافية بكردستان وملء الفراغ الحاصل سابقاً من جرّاء غيابهم القهري. وهكذا قام خمسة منهم وهم الشاعر شيركو بيكس والروائي حسين عارف والشاعر جلال ميرزا كريم والقصاص كاكه مه م بوتاني والشاعر جمال شاربازير، في أواخر نيسان ١٩٧٠ بنشر بيان أدبي تحت عنوان «المرصد» نقرأ فيه: «نريد أن تكون أعمالنا وإبداعاتنا الأدبية متلائمة مع روح عصرنا، وأن تأخذ بعين الاعتبار المفاهيم والمذاهب الحديثة وأن تُشكّل مرآة صادقة لمجتمعنا الكردي وانعكاساً خالصاً للإنسانية جمعاء. وستكون وثيقتنا هذه نقطة التقاء جُل التيارات والاتجاهات الفكرية الكردية الحديثة التي ستلتقي رغم تنوع قناعاتها المذهبية والأيديولوجية ومواقفها الفكرية المتنوعة إزاء الإنسان والحياة. نحن لانرفض التراث بشكل أعمى، ذلك أننا نعتقد أن الإرث التراثي الأصيل يشكل سنداً قوياً وحاسماً للإبداعات والاتجاهات الحديثة المعاصرة، ففي أحضانه وُلدت نتاجاتنا: نمت، كبرت، ترعرعت وتطورت»..

تعقيب على أشعار بيكس

إن الصور الشعرية عند شيركو بيكس لاتتميز نهائياً بتعقيد أسلوبها، فهي صور واقعية ملموسة تطبعها بساطة البنية واتساع المضامين، فالشاعر بيكس يفتتح أشعاره بصور ولقطات شعرية بديعة، ثم يقوم بتطويرها شيئاً فشيئاً خلال القطعة الشعرية، حيث يجعل القارىء منسحراً، مبهوراً، ثم يدعوه إلى التفكير والتأمل في موضوع ومضمون القطعة الشعرية المذكورة، فالشاعر يستعمل رمزين جوهريين، الحياة والموت. الموت كصورة تجسد كل ماهو منبوذ (القهر، القمع، الاضطهاد... إلخ)، والحياة لإبراز كل ما لايمكن القضاء عليه وكل مايدوم ويبقى ضمن وعي وذاكرة الإنسانية، مثل الممثل السينمائي الكبير شارلي شابلن:

ثمة أشياء كثيرة

يتنخرها الصدأ
ويلفها النسيان ثم تموت
كالتاج
والصولجان
والعرش
وثمة أشياء أخرى كثيرة
لاتهترىء
ولا يدركها النسيان

ولا تموت أبداً
كقبعة
وعصا
وحذاء
شارلي شابلن[1]

الحب والطبيعة وشعلة الرغبة الرومانسية تحتل حيزاً كبيراً في شعر شيركو، فالأمر يتعلق عنده بعالم آخر لايشبه العوالم الأخرى على مستوى اللغة والشعر، فشعره يقترب من العالمية ويتميز بإنسانيته وبأصالة طابعه الكردي المحض. يغني هذا الشعر للإنسانية جمعاء ولكل المقهورين والمظلومين في هذا الكون (سواء كان ذلك في فلسطين أو في غيرها من البلدان والشعوب) ثم يربط نضالهم بكفاح الشعب الكردي، ذلك الكفاح الذي ينمو باتجاه تحرر الشعوب وازدهارها ورفاهيتها:

كانت «جميلة» تسرّح شعر «الجزائر»
وتقول:
ياوطني
إن قطعوا يدي اليمنى
أعلّم اليسرى كي تكتب اسمك
وإن قطعوا اليسرى
أدرب أصباع رجلي كي تكتب اسمك
وحتى إن قطعوا أطرافي الأربعة

أكتب اسمك بالصرخة![2]

أما في قصيدته (محبرة) فهو يصف تلك المأساة التي تقاسيها الجماهير المسحوقة من جرّاء القهر المسلّط عليها من طرف الظالمين المتسلطين، فهؤلاء يستغلون نفوذهم وسلطتهم من أجل قضاء مآربهم الخاصة ومصالحهم الضيقة وتكريس هيمنتهم وجبروتهم بدل السعي باتجاه إقامة السلام والعدل والعمل على تقدم ورفاهية الشعوب:

لقد قتلت نفسي
لأن واحداً من الأقلام
ملأ نفسه
بالحبر مني عنوة
كي يأسر
سرباً من
كلمات «نيرودا» المحلقة[3]

بوصفه شاعراً وطنياً ملتزماً بقضايا شعبه القومية وكذلك قضايا الجماهير، جماهير العمال والشغيلة أينما كانوا وأينما وُجدوا، يجعل شيركو من شعره جسراً ينقل عبره مساندته إلى كل مظلومي هذا العالم. لذا فهو يعتبر الشعر الذي يخدم قضايا الشعوب المصيرية بمثابة الضروريات الأساسية مثل الماء والخبز والهواء:

فالذي يبقى
حتى النهاية
هو مائي
وتلك القصائد
التي
لاتنسى الفقراء[4]

الماء والنار والأرض تشكل العناصر الجوهرية في هذا الكون وتضمن ديمومته وجدليته.. فهي عناصر متكاملة ومتناقضة في ذات الوقت، أما بالنسبة للشاعر، يعدّ حب كردستان من هذه العناصر الأبدية:

يا حب كردستان

مادام
المطر
والنار
باقيين
لن أعيش أي موت[5]

إن الجدلية التي تعترض الإنسان كل يوم أمام الطبيعة، تشكل الميزة المهيمنة على كل هذه المجموعة الشعرية التي يمكن أن نصفها بأنها قصائد درامية قصيرة، تتجنب الدوران في الفراغ، وذلك بنبذها لتلك اللغة الشعرية السطحية وتبنّيها للغة اليومية :

وعندما ماتت حديقة من حدائق رؤياي
ماتت جملة، ولكن
يا صبية السنوات العشر
يا صبية قرية « هه له دن »
عندما قتلوك
ماتت عشرٌ من قصائدي
دفعة واحدة[6]

إن كلمة «حب» تحمل عند شيركو معنى كبير الأهمية وتحتل حيزاً هاماً في جلّ أشعاره. وهذا صحيح سواء تعلق الأمر بعشق الإنسان لأخيه الإنسان أو حب الطبيعة وأشجارها ومناظرها الخلابة. . . إلخ . الشيء الذي يعطي كلمة حب أهمية أكبر وجلالاً أعظم، ذلك أنه مهما كانت درجاته، فإن الحب ينطفىء دائماً لأسباب جنسية أو بسبب الفراق أو القطيعة بين المحب والمحبوب. لذا فإن الشاعر يعتبر هذين الأخيرين كخطي سكة حديد حُكم عليهما بعدم الالتقاء أبداً. وبالتالي يمكن القول أنه مهما بلغت درجة طهارة ونقاء حب ما، فإن أصحابه ـ المحب والمحبوب ـ معاً، لن يتوصلوا إلى السعادة السرمدية مهما بلغ الأمر:

أعرف بأننا. . . أنا وأنت
سوف لن نلتقي مهما مشينا
نحن نماثل خطي سكة حديد
لا لقاء بيننا[7]

إن أشعار شيركو أكثر وفرة وتنوعاً، وهكذا لاتشكل مجموعة (مرايا صغيرة) سوى جزء يسير من إبداعاته الشعرية الكاملة، وللأسف الشديد فإنه لم يترجم منها إلى اللغة العربية إلا بعض القطع الصغيرة. .

(١) مرايا صغيرة - الأهالي - دمشق - ١٩٨٧/ ص ٦٩
(٢) نفس المصدر، ص ٨٣ - ٨٤
(٣) نفس المصدر ص ٤٣
(٤) نفس المصدر ص ٤٢
(٥) نفس المصدر ص ٣٧
(٦) نفس المصدر ص ٥٣
(٧) نفس المصدر ص ٧٣

متابعات

ألواح طينية خرجت للتو من النار وفصيلة ورد لسلام لما يأت بعد

عواد ناصر

وضعت العزيزة «الثقافة الجديدة» بين يدي قرائها، مشكورة مجموعة من القصائد الجديدة لشعراء عراقيين افترض أنهم من جيل لاحق، ذلك أن سمة أو أكثر، في قصيدة أو أكثر، تشي بفتوة بينة، والسمة هي ذلك المُضطَرّب الصخاب الذي يشمل جسد القصيدة من العنوان حتى أخمص البنادق.

فعلت الثقافة الجديدة ذلك مرتين: في العدد (٢٤٣) اجتهد الشاعر مهدي محمد علي للملف عنواناً هو «ألواح طينية لأحفاد كلكامش» وفي العدد (٢٤٧) قدم للمجموعة الثانية واحد من شعرائها هو شعلان شريف بعنوان «فصيلة ورد مهرّبة ـ هوامش على تجربة شعراء الثمانينات»، مرفقة برسالة تحمل أسماء (تواقيع) الشعراء أصحاب القصائد وبمقدمة قصيرة من مهدي أيضاً . .

المقدمات والقصائد (والرسالة أيضاً) تغري بالحوار والملاحظة . . . وتغري بالفرح وتستحق التحية لأسباب عدة منها:

● الظروف الصعبة (بما في ذلك التهديد بالموت!) التي عاشها الشعراء في الوطن وفي مخيمات اللجوء في السعودية، وهي ظروف تجعل من كتابة الشعر ـ بحد ذاتها ـ مغامرة ملفتة للنظر سواء على المستوى الشخصي للشاعر (من حيث سلامته) أو على مستوى علاقة الشاعر بظواهر الحياة والموت والصحراء والمعتقلات وأخيراً . . بالكتابة!

● تقول رسالتهم: «. . . سنين طويلة كنا نضع الأحلام على رفوف الانتظار، يث لا مجال للتوفيق بين الحياة التي نريد والمراوغة المفروضة علينا من أجل نقاء ذواتنا . . لا مجال للحياة لمن يقضي السنوات بين المعتقلات أو هارباً من الخدمة العسكرية أو مفصولاً من الدراسة أو موضوعاً تحت الأضواء الكاشفة في كل مكان من (حياته)» . .

(حياته)، حياة الشاعر الموضوعة تحت الأضواء الكاشفة، سبب كاف لأن يتوقف الشاعر عن كتابة الشعر . . ذلك أن كتابة الشعر، والشعر خصوصاً، طقس فردي على غاية

الخصوصية من مستلزماته «الانطواء» كما عبّر مرة كرستوفر كلوديل تحت عنوان «آلية الحلم في الشعر» قائلاً:

«. . . لا نعني بالانطواء مجرد الانسحاب من البيئة المباشرة إذ أن هذا ممكن أن يحصل في جلسة هادئة منعزلة . . مثل هذا الانطواء مرغوب من أجل جميع أنواع التفكير العلمي وقراءة الرواية وكذلك . . . الشعر . .

وهو لايتم بواسطة نظام الكلمات بل بجهد تركيزي . . يمكن للبعض أن (يركّزوا) على كتاب علمي أو شعري في ظروف لايستطيع فيها آخرون التركيز. ولكن هناك مظهراً آخر للانطواء. صحيح أننا في الانطواء، من أجل الفانتازيا العلمية نبتعد عن البيئة المباشرة، ولكننا مع ذلك نتجه نحو تلك الأجزاء من الواقع الخارجي وهو يحوّم خلف اللغة التي تصفه، ولكن الأفكار في الشعر يجب أن تكون موجهة نحو درجة شعور هذه الكلمات نفسها . . . يجب أن يغرق الانتباه تحت أجزاء الواقع الخارجي المرموز إليه شعراً . . أن يغرق هابطاً في أعماق العالم السفلي، العاطفي، الملتحم بهذه الأجزاء . . في الشعر علينا أن ننفذ إلى ماوراء القبة ذات الزجاج الملوّن بألوان مختلفة إلى البريق الأبيض للنفس» . .

معذرة لهذا المقتبس الطويل، بعض الشيء، الذي أملت ضرورته حالة «الانطواء» التي تبدت واضحة في نصوص أحفاد كلكامش في الوطن واللجوء، ذلك الانطواء بنوعيه: «الانسحاب» من البيئة المباشرة أو «الانسحاب من (. . .) والغرق في أعماق العالم السفلي من أجل النفاذ إلى البريق الأبيض للنفس، وقد تحقق ذلك، بأشكال شتى في قصائد هؤلاء الشعراء.

إن الانطواء (الانسحاب) في هذه القصائد ليس خياراً ولا اختياراً وإن تمظهر على أنه موقف تقتضيه القصيدة المختلفة، لا القصيدة التي تتحول بفعل صنعة مسبقة إلى دبابة (قصيدة «حلول» ليوسف الصائغ مثلاً لاشتيمة). بل إن الركون إلى زاوية معتمة بعيداً عن الأضواء الكاشفة للحرب، وهواتها، يجعل الشاعر مثل جائع يتناول لقمته على عجل بين غارة وغارة بين حاجز عسكري وآخر . . وفي هذه القصائد المثقلة بالحديد والخوف والجرأة يكون الانطواء من معدات القصيدة التي تعبىء نفسها لتعلن بغضب: «إنها حريتي وأنا كفيل بأي تاج أكفنها/ إنها حريتي وأنا كفيل بأي الأغاني أشيعها» . . إنه شأن خاص من شؤون الشاعر المحاصر بالأضواء الكاشفة والفوّهات . .

القصائد، هنا، بعامة تتناول حياتها المضطربة على عجل شأن الهاربين من إعصار أو عدوان أو حريق أو «عند نزيف الطائرات» ـ قصيدة إبراهيم حكمت ـ التي تبدأ من مشهد الطائرات حيث «السماء تشتعل شوقاً لملاقاة جسدي/ أفرّ من موجي وأستقر رملاً يبحث

عن ريح»، ولنلاحظ الأفعال في سطرين من الشعر المنثور: تشتعل، أفر، أستقر، وكلها ثلاثة أفعال خارج سياق الفعل السوي: اشتعال، فرار، استقرار (الذي هو هنا رملاً يبحث عن ريح) غير مستقر، استقرار على وشك الهبوب بفعل ريح موشكة.

وفي قصيدة «الحرب قذيفة نحن طريدتها ـ أحمد الأذاري» لايختلف الأمر كثيراً من حيث المناخ ومفردات المناخ: الحرب عندما «نساءنا المفجوعات ببرودة الفصول والأغطية».

قلت إنها قصائد تتناول (تلتقط) حياتها على عجل في حالة انطواء قسري بعيداً عن ليل الحرب المكشوف تحت أضواء كاشفة (الانسحاب من بيئة خارجية) وهي المظهر الثاني من مظاهر الانطواء ـ حسب تعريف كلوديل ـ أي الانسحاب نحو البريق الأبيض للروح.

والسؤال النقدي الضروري هو: كيف تم ذلك لهؤلاء الشعراء الذين هربوا وهرّبوا قصائدهم كفصيلة من ورد أو تلك التي أخرجوها وقد فُخِرت بالنار المفزعة كألواح كلكامش؟

كل القصائد هي قصائد نثر، عدا مقطع أريد له أن يكون موزناً فاختل (في قصيدة «قبل/ بعد/ العاصفة ـ الأمير محمد) وقصيدة (المرقش) ـ ثلاث قصائد ـ من وزن المتقارب.. وفي عجالة الهرب والموت السريع يصبح النثر مضماراً مفتوحاً للصراخ كي يعدو. وهنا لاتتأمل القصائد نفسها كثيراً أمام المرآة.. لاوقت لترتيب الوجع وتشذيب الأشلاء وعزل الدم عن الرماد، لهذا ولغيره ليس قليلاً أن نرى بناءات شعرية وتركيبات لغوية تحتاج إلى معاينة دقيقة قبل أن تأخذ طريقها إلى... الشعر:

«الموتى يؤجلون مآدب موتاهم خلف زبد الذاكرة» «أحييك أيتها الأمة الملتفة كتبغ على خصر الأيام الصعبة» «بمعنى سوسيو لغوي، لا أعني احتمالية المعنى»... إلخ.

* * *

في «هوامش على تجربة شعراء الثمانينات» بقلم شعلان شريف، يحاول الكاتب أن يقدم لنا مقاربة نقدية لقصائد زملائه. وفي هذه المقاربة توصيف للشعراء العراقيين داخل الوطن وخارجه من أجيال سابقة لما يطلق عليه «شعراء الثمانينات» وتجربتهم التي هي «تجارب شعرية لها ما للتجربة العراقية من خصوصية وملامح حادة.. تجارب تتصف بالعنف والغموض والتطرف والذاتية المفرطة»...

لقد أعانتني هذه الهوامش ـ شخصياً ـ في ملامسة طرائق التعبير والتفكير لدى شعراء رفحا والارطاوية، ذلك أن الهوامش، بشهادة واحد منهم ينتمي إليهم زمكانياً، لجديرة بإلقاء ضوء صحيح على تجربة ما يطلق عليه «شعراء الثمانينات»..

بعد أن قرأت القصائد، مرات ومرات، شرعت في ترتيب ملاحظاتي التي سبق وأن مرت بالقارىء، والتي ستمر بعد حين، والتي لا تبتعد كثيراً عما ورد في ثنايا مقالة شعلان شريف. غير أن توصيف مثل «جيل الثمانينات» ليس بالدقيق مثله مثل ماأطلق على مراحل أدبية سابقة مازالت فكرة تحقيبها غير مطلقة، ذلك أن الزمن الشعري ـ للقصيدة والشاعر على حد، سواء ـ ليس بالصرامة التي يذهب إليها شريف أو غيره، ولا وجه للصحة إلا إذا اعتبرنا العقد من السنوات هو عقد بداية ظهور شاعر ما، فحتى الرواد ـ رغم تداخل تجاربهم ومحاورتها لبعضها ـ، لم يكونوا على تلك الحالة المشتركة في السمات العامة وشكل القصيدة وموضوعاتها ومراجعة سريعة لقصائدهم نرى مدى الاختلاف في كل شيء. . . وأبرزه مصائرهم: موت السيّاب، صمت الملائكة، اصطفاف البياتي، منفى بلند. . .' إلخ . .

وإذا كنت قد قلت في مقدمة مقالي هذا ماعبرت عنه بـ «المضطرب الصخّاب» للشعراء فقد توافقنا، أنا وشريف، على أن «عدم استقرار الأشياء والذوات يولّد اضطراباً في المخيلة وفي مجمل العملية الشعرية (. . .) والقسوة التي يواجهها الشاعر هي القسوة ذاتها التي يطرح بها الشاعر قصيدته، قسوة في التعامل مع اللغة ومع الصورة. وقسوة مع المتلقي الذي يصطدم بالقصيدة اصطداماً مربكاً». .

وإذا كان هذا الـ «عدم الاستقرار» و «القسوة» من مبررات قصيدة «تحاول أن لاتقول شيئاً» ـ حسب هوامش شريف ـ فإن على الشاعر، والشاعر وحده، مسؤولية أن يجعل من فوضى العالم نظاماً إبداعياً لايتأتى لسواه. هذا النظام الذي تندرج في تضاعيفه دقة اللغة وتأمّل مايشتق من الخيال لإغناء الواقع والعكس أيضاً. . وإنها لعملية شاقة، بل مستحيلة، أن نقرأ قصيدة بلا ثغرات.

* * *

أخيراً، فالقصائد تجربة ملفتة للانتباه. إنها رسائل شعرية (بلاغات) تعلن الضد على السياق الرمادي الذي يحاصر الوطن والناس، كلاماً ورصاصاً ونفياً. . وهي (القصائد) تمارين صادقة للإتيان ببطولة الشعر وتوثيق عادل لثقافة ظل لايمكن تجاهلها في زمن الزيف والأضواء الفاقعة التي يسلطها السلطان على شعرائه أو التي يسلطها شعراء السلطان على سلطانهم وأنفسهم وهم يدبّون في الوهم. . في الخوف. .

هي قصائد مكتفية بمجد صدقها وضوء حزنها النبيل وفوضاها التلقائية في الطريق إلى وطن من شعر. . وشعر في وطن. .

. . . وتحية. . مرة أخرى. . .

لندن ٢٠ آب ١٩٩٢

رسالة ثقافية

متابعتان

برلين ـ من نجم والي

نماء الورد ـ امرأة بين ثقافتين

منذ أسابيع تدور الفنانة العراقية (نماء الورد ـ ٤٠ سنة) مع فرقتها المسرحية (اور) على مسارح برلين في قسميها الشرقي والغربي.

إن المسرحية التي لم تستطع القدوم مع كامل فرقتها رغم الدعوة الموجهة لها من (جمعية الثقافات المختلفة)، لأسباب تتعلق أما بصعوبة تنقل بعض أعضاء الفرقة لأسباب تتعلق بوثائق السفر أو لغلاء تكاليف انتقال الفرقة مع عدتها وأجهزتها المسرحية، ولكن نماء استطاعت التغلب على ذلك الإشكال ببراعة وإبداع.

لقد كان العرض في ألمانيا هو محاولة لاستفزاز قدراتها الإبداعية في الخلق المسرحي. ذلك لأنها ليست المرة الأولى التي كان فيها على الفنانة التي تخرجت من معهد الفنون الجميلة ـ القسم المسرحي في أواخر السبعينات في بغداد، والتي عُرفت آنذاك من خلال عملها، على مسرح الستين كرسياً الذي سبب المنغصات الكثيرة لجندرمة المسرح العراقي الرسمي، لم تكن تلك المرة الأولى التي تواجه فيها جمهوراً لايتكلم لغتها العربية، زائداً تصوره الأحادي الجانب عن المسرح العربي، والعراق، والمرأة العربية والعراقية بشكل خاص. إنه امتحان آخر للفنانة من أجل كسر تلك التصورات المسبقة التي تعرفها (نماء) طوال سنين منفاها العشرة، وأيضاً من أجل اختراق الجمهور الألماني الذي يـ لك تقليداً عريقاً في المسرح، إذ هنا يتحدث معك طلاب الثانوية عن غوته وشيلر وبريشت وبيتر فايس، ولا حاجة لنا لعد الباقين من عمالقة المسرح.

لقد عاشت الفنانة التي يعجبها اقتحام تجارب كهذه، كما صرحت، في النرويج أيضاً، الذي يملك هو الآخر تقاليد مسرحية، ستريندبرغ مثلاً، وإن لم تكن تلك التجارب على مستوى عظمة المسرح الألماني.

للخروج من ذلك النفق، ارتأت بل وجدت نفسها مجبرة على تقديم مسرحية بدون لغـة، وإن احتوت على لغة فلتكن الأغنية، طالما أنها تملك صوتاً غنائياً يذكرنا بصوت المطربات العراقيات الأوائل المبدعات في غنائهن: عفيفة اسكندر، سليمة مراد.. لذا جاءت فكرة تقديم مسرحية (امرأة بين ثقافتين) متلائمة جداً مع التجربة التي كان يجب أن تعيشها. إن محاولات تشكيل مسرحيات بدون لغة هي محاولات قديمة جداً، البانتوميم، الرقص المسرحي، إنما أشكال معروفة، إضافة للمحاولات العديدة التي أخرجت على مسـرح برودواي. والنرويج نفسها عرفت هذه التجربة. فإن تجربة الروسي غروتوفسكي الذي شكل المختبر المسرحي، والذي كان يعتبر اللغة أقل أهمية من الفعل المسرحي، كانت معروفة في النرويج. وكان يطبقها المسرح الأودني، إذ أن المسرحي (اودن) نفسه هو أحد تلامذة غروتوفسكي، والذي كان يطمح إلى تأسيس (المسرح الفقير) وإنه كان يذهب بعيداً إلى حد حذف اللغة تماماً. لقد أخذت تلك الفكرة الكثير من الفرق المسرحية العالمية التي كانت تطمح لنقل عروضها في بلدان أخرى. إن من أعظم التجارب في هذا المجال تجربة فرقة جوغلاس الكاتالانية في (برشلونة) والتي تتنقل دونما مشاكل، وتقدم عروضها بنجاح في أوروبا، ترطن أحياناً بأصوات، ليست إلا تكميلاً لحركتها المسرحية.

إن (نماء) التي جاءت إلى النرويج قبل سنوات كان عليها أن تواجه مشكلة إضافية، بل لا نبالغ إذا قلنا مشكلات عديدة، أولاً لم يكن من السهل على المرأة التي لم تغادر لسـانهـا، حتى اليوم، اللكنـة البغـدادية أن تتعـايش مع بلد يحده من الشمال القطب الشمالي، والذي كانت الكرة الأرضية، ولغاية بدايات القرن الماضي، تنتهي بالنسبة إليه في ألمـانيا. ثانياً صعوبة الحصول على الإقامة، وإقناع السلطات بأنها امرأة خارجة من جحيم سلطة قمعية. ثالثاً الرغبة في مواصلة عملها على المسرح، إذ هي «امرأة خلقت للمسرح» على حد تعبيرها. والمشكلة الأخيرة هي تقديم أعمالها كمسرحية في بلد محافظ جداً لايسمح بظهـور لكنة لغوية. إذ من المعروف أن اللغة النرويجية هي من أحدث اللغات الأوروبية، وما تزال في طور التكوين، وهناك اختلافات كبيرة بين اللغويين تصل حد المفارقة أحياناً.. إن هذه الظاهرة تجد تجسيدها في فقر الأدب والفن النرويجيين، فلا عجب أن نعرف النرويج فقط من خلال مسرح ستريندبيرغ.

لقد كانت (نماء) تعيش مع تلك المشكلات يومياً، فيما كانت تفكر، في الجانب الآخر، في كيفية حكاية قصة المرأة القادمة من بلد له ثقافة عريقة توغل في قدمها إلى آلاف

السنين قبل ميلاد المسيح، وإن مايعيشه الآن هو «ثقافة» المسدس. إن المشكلة دائماً هي التكنيك. ما الوسيلة التي سيكون بإمكانها تقديم تلك التجربة لبلد مايزال «كطفل نام بما يخص الأدب والفن» كما تقول، وتضيف: «إن حكايتي كانت متفردة كوني فرداً لاتنطبق عليه تجربة أي شخص.بالنهاية هي تجربة واحدة، التقيت في النرويج بمسرحيين محترفين تحدثت معهم عن الفكرة، فأعجبوا بها. تفهموني، وبدأوا في العمل معي».

من هنا جاءت تجربة هذه المسرحية البارعة التي استغرق عرضها ٥٠ دقيقة.

إن الحكـاية معروفة. انتقال إنسان من عالم إلى عالم آخر مختلف تماماً. ولكن المشكلة هي التغلب على ملل المشـاهد الذي يسمع ويرى المشكلة ويقرأها يومياً في الجرائد، أيضاً يعيشها في حيه، حيث يسكن اللاجئون. لقد كان هم (نماء) هو إعادة تشكيل الحكاية، بحيث يعيد المشاهد اكتشافها من جديد، ويتفاعل معها: «الوصول إلى نقطة، بحيث لايقول المشاهد: آخ مرة أخرى نفس الأسطوانة» كما تُعلق نماء، فهي لاتريد أن يغادر المشاهد إلى البيت وينسى المشكلة.

لقـد استطاعت نماء وببراعة شد المشاهد إليها، بحيث أن الكثيرين، وبأكثر من عرض لهـا فوجئوا بانتهاء المسرحية، وكأنهم كانوا يتوسلون إليها متابعة المسرحية. لقد حدث ذلك باعتقادي، لأن فريق العمل عمل جدياً على إعادة إنتاج الحكاية بشكل يجلب متعة للمشاهد، ويخصب خياله، ويريه عالمين: العالم الجديد الذي ينتقل إليه اللاجيء والعالم القديم والذي حتى وإن كان مليئاً بالغِنى والجمال فإنه من الضروري مغادرته أحياناً من أجل إنقاذ الجلد.

من الضروري الإشارة أيضاً إلى أن نماء كانت تقدم كل مرة عرضاً يختلف عن المرة السابقة معتمدة على مايحيط بها من ظروف العمل والمكان، وكذلك استجابة المشاهد وعلى ماحدث في ذلك اليوم أيضاً. كل شيء ممكن أن يغير الحدث. إن عملها المسرحي ينضج يومياً، معتمدة على العناصر الأخرى التي لم تستغن عنها طوال عروضها، الغناء، مرونة الجسد، المناظر المسرحية والإنارة البارعة للنرويجية هدفيغ شيودت، التي تدرس في براغ التصوير السينمائي والتي قدمت خصيصاً إلى برلين.

أيلول ١٩٩٢

«من بغداد إلى البصرة»
طريق هدى الهلالي المليء بالحلم

عن دار بالميرا الألمانية الغربية صدر كتاب هدى الهلالي (من بغداد إلى البصرة) بطبعة أنيقة وبمقدمة شيقة كتبها مسؤول العلاقات الثقافية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي. الكتاب يقع في ١٨٦ صفحة من القطع المتوسط كتبتها المؤلفة المولودة في بغداد عام ١٩٤٧ باللغة الألمانية مباشرة. إن (هدى) تعود إلى ذلك الجيل العربي الذي عاش عالمين، مرة باختيارها، وفي المرة الأولى بإجبار. وهنا تكمن المفارقة التي ترويها هدى في نهاية الكتاب والتي تُعتبر مدخلاً جيداً لفهم عوالم حكاياتها.

في عام ١٩٥٩ كان على هدى الصبية أن تصاحب عائلتها التي تنتقل إلى ألمانيا لاشتغال أبيها في السلك الدبلوماسي هناك. وفي ألمانيا تموت أمها.. ويبقى موت أمها الحدث الكبير الذي سيؤثر على حياتها، بل على اختيارها للحكاية كشكل للتعبير عن نفسها. في ذلك اليوم الربيعي عندما جاء أبوها إلى البيت حزيناً سألته الصبية «هداوي» كما كانت تطلق عليها أمها «أين أمي؟» فيجيبها الأب: «هدى لاتقلقي.. كان عليّ أن أرسل أمك مرة أخرى إلى البيت في بغداد. لقد كانت تلح أن تكون هناك، حيث تستطيع أن تُحدث النساء الأخريات عن أحلامها وحيث تشعر بالدفء».

في ذلك الوقت، وعندما رأت أباها لايستطيع تجفيف دموعه، عرفت أنها لن ترى أمها.. ولكنها، وبطريقة ما، ظلت محتفظة بصورة تلك الأم التي كانت تلم نساء الحي جميعاً عندها وتروي لهن بدقة تفصيلية فائقة الحلم الذي رأته الليلة الفائتة: والنساء ينصتن. كانت لها القابلية لشدهن إليها ساعات طويلة. وهذا ماورثته هدى..

إن القصص التي يحتويها كتاب هدى تتحدث بالذات عن تلك النساء اللواتي كانت حياتهن انتظاراً لشيء ما سيأتي، وسيجلب معه الفرح. لكل مشكلة مفتاح، لأن زادها الحلم. وأن أم هدى (رضية) هي محور القصص أو الحكايات. فمن خلال رضية نتعرف على أم خديجة وصبرية وشيماء وأم خليل وغيرهن، وماينطبق على رضية ينطبق على الأخريات. «عندما تحكي الأم حلمها، كانت تعرف كيف تفصّل حلمها دائماً. وكانت تستخرج كل مرة آلاف القصص من حلمها.. وما يعجبني فيها أيضاً، حقيقة أنها فقط تبدأ برواية أحلامها عندما تُسأل عن ذلك. كان يعجبني أيضاً بأنها لم تنس شيئاً، وأنها تستعيد أحلامها بكل الدقائق الصغيرة. هكذا نما عندي التصور بأن كل البشر يحصلون على شارة

إلهية في أحلامهم وبأنهم لاينسون التفاصيل الصغيرة».

وبغض النظر عن تلك الشارة التي تتحدث عنها هدى. فإن موهبتها في القص صقلتها التجارب التي مرت بها تباعاً. فعندما رجعت إلى العراق في الستينات، اشتغلت في العام ١٩٧٢ حتى ١٩٧٦ في تلفزيون بغداد، وقد اشتهرت آنذاك بتقديم حكايات الشاطر حسن على شكل مسرح دمى. في تلك السنين أيضاً تعلمت الكثير من خالها (سليم البصري) الذي بدأ مع مسلسله الشهير (تحت موسى الحلاق). في ١٩٧٦ عادت هدى إلى ألمانيا لتدرس السينما في (كاسل) ثم لتبدأ بعدها في دراسة العلوم الإسلامية والأدب في جامعة هامبورغ. إن تلك الرحلة الاختيارية تحولت إلى منفى دون تخطيط منها..

إن فهم هذا التحول هو مهم للدخول في عالم القصص التي تحكيها، ذلك لأنها، وكما تقول، كانت دائماً تحلم بالعودة إلى ألمانيا. إن صبية عمرها ١١ سنة تهاجر إلى بلد آخر ثم ترحل عنه مضطرة، وهي في العشرين (كانت تتكلم الألمانية فقط في تلك الأيام) يكون من الصعب عليها التطامن والعيش مرة أخرى في مجتمع آخر.. إن الحلم «ألمانيا» سرعان مايتبدد عندما ترجع، لقد فوجئت جداً في ألمانيا.. إن الناس في ذاكرتي كانوا على صورة أخرى، لم يكونوا بهذا الشكل. لاأستطيع في أيما مكان أن أجد ذراعين تحتضناني حيث أستطيع العويل بدون عناء.. إذن أعانق أمي في الحلم وأبكي بقدر ماأستطيع. وبالرغم من أني غالباً ماعزمت على حزم حقائبي والرحيل في اليوم التالي، إلا أنني في أعماقي كنت أعرف أنني لاأرغب بالعودة.. كانت غالباً تسأل نفسها: «هل أنا في ألمانيا أم في العراق» لذا كان الحلم هو خير ملجأ لها. وعندما بدأت الحرب الخليجية الأولى، أصبح الحلم بلد هدى الأول. حينها بدأت في الصعود على المسرح في ألمانيا ورواية حياة ومصائر تلك النساء اللواتي لم يغادرن ذاكرتها..

منذ عام ١٩٨٤ وهدى تدور لتروي حياة تلك النساء. حتى باتوا يلقبونها في ألمانيا بشهرزاد العراق.

إن كتاب (من بغداد إلى البصرة) يحوي على بعض تلك القصص التي ترويها «إن القصص باستثناء واحدة منها تتخذ من حرب الخليج موضوعاً رئيساً لها. إنها تتحدث عن تلك النساء اللواتي كنّ ينتظرن ويبكين رجالهن الساقطين في الحرب.،عندما كتبت القصص، كانت أفكاري مع تلك النساء الفقيرات اللواتي يعتمدن في أغلب الأحوال، على أزواجهن، لأنهن، في الغالب، لايتبوأن وظيفة ما، هذه النساء لم يكن أمامهن سوى أن يكن شجاعات وأن يملكن الكثير من الصبر.. و«أردت أن أصور هؤلاء النساء، عندما

كن مليئات بالأمل وهن يُحضّرن لأعراس بناتهن وأولادهن، كيف تذهبن لشراء القماش والحلي في البازار وكيف تتعاملن مع التجار دون ملل، كيف تتشاتمن فيما بينهن وكيف أنهن يتفنن باستمرار في استخدام كلمات الإطراء والمدح من أجل الوصول إلى هدفهن مع الزوج، مع الجارة، مع تاجر السوق». .

وتصور هدى ذلك ـ بالفعل ـ بحيوية وبرمح، ولكن أيضاً بحزن يدعو إلى التأمل. إنها تتابع تقليد الحكي العربي القديم. فهي تأتي إلى الكتابة عن طريق القص الذي تبرع فيه. إن تصويرها كل ذلك ينقل لنا صورة حية عن حياة الأمهات في العراق. ولكن هذه الصـورة قابلة للتقـارب مع حياة الكثير من الأمهـات الأخريات. فلا أعتقد أن الأمهات الكرديات أو الكويتيات، أو ا للبنانيات يختلفن في أحلامهن عن أمهات هدى الهلالي . .

رسالة ثقافية

معرض جديد للفنان رعد العبيدي

كوبنهاغن ـ من داود أمين

في صالة عرض صغيرة (كاليري) وسط العاصمة الدانماركية كوبنهاغن، أقام الفنان العراقي رعد العبيدي معرضاً فنياً جديداً لآخر إبداعاته المبتكرة في مجال الرسم والتلوين والنقش على النحاس والألمنيوم.

لقد ضم المعرض الجديد (٢٦) عملاً صغيراً ومتوسطاً بالإضافة لثلاث نخلات، اثنتان من النحاس والثالثة من الألمنيوم.

وفي دليل المعرض الذي وزعه الفنان نقرأ تعريفاً به يتضمن المعلومات التالية:

- ـ مواليد ١٩٥٥.
- ـ يعيش في الدانمارك منذ ستة أعوام.
- ـ أقام ستة معارض شخصية وستة معارض مشتركة مع فنانين آخرين.

وحين نتجول في قاعة العرض تستوقفنا الأعمال الصغيرة أولاً بموضوعاتها الشرقية الجميلة المستوحاة، من رباعيات الخيام ومن أجواء ألف ليلة وليلة. حيث يغلب عليها لون النحاس، إذ اقتصر الفنان على تلوين الخلفية فقط، دون موضوعه الرئيسي الذي تركه يسبح في حدية اللون النحاسي الطبيعي. وكأنما يريد أن يقول لنا بأن الموضوع ينتمي للماضي، حيث لايحفظ الزمن جدة الألوان وبهجتها ورونقها.

احتلت الأعمال الشرقية هذه، الممر الداخلي من قاعة العرض والتي بالرغم من أن بعض موضوعاتها منقولة من رسوم عربية أو فارسية إلا أن رعد أضفى عليها الكثير من

لمساته، فقد أخرجها من الرسم على الورق أو القماش، إلى الرسم على المعدن، ثم زينها بنقشه الدقيق والجميل فمنحها جدة وحيوية.

حين نترك الممر الداخلي إلى القاعة التي ضمت معظم أعمال رعد تواجهنا منذ البداية تشكيلات هندسية متداخلة، تتراوح بين الدوائر والمثلثات وعدد أقل من المستطيلات.

وبالإضافة إلى لون النحاس الطبيعي فقد حملت هذه الأشكال الهندسية الجميلة ألواناً مشرقة بهيجة، تتوزع بين الأحمر والأصفر والأخضر والبنفسجي والشذري والأبيض.

أما الموضوعات فهي ـ عدا عملين يبرز الإنسان فيهما محتلاً المساحة الرئيسية ـ تندرج في إطار الحارات البغدادية والشناشيل والأقواس الإسلامية والتشكيل المجرد.

ورغم أن دليل المعرض لايحمل عناوين للوحات، إلا أن الإنسان في العملين اللذين أشرت إليهما يوحي بالقوة والامتلاء، ففي أحد هذين العملين يقف الإنسان شامخاً وممتلئاً وكأنما يستعد للدفاع عن شيء عزيز أو حراسته.

أما في العمل الثاني الذي يشبه رقصة فرح أو خصب يؤديها إنسان بدائي. يشكل الإنسان مركز اللوحة تحيطه وجوه بشرية يضفي عليها اللون الأبيض الطيبة والنقاء، فكأنما هي تبارك وتشارك في الفرح (لا أدري لماذا ذكرني هذا العمل برواية الطيب صالح ـ عرس الزين ـ فرقصات الزين وحركاته في الرواية تشبه مايفعله الإنسان في هذا العمل الفني)

هناك عمل ثالث يلفت الانتباه أيضاً، فشكله الخارجي يشبه القيثارة السومرية أو يوحي بها، لكنه يضم أقنعة متقابلة وينغرس في الأرض، وقد أضفت ألوان السمائي والشذري والأبيض عليه سحراً خاصاً. إنه الإنسان ونقيضه، الخير والشر، الحب والكراهية الشجاعة والتخاذل، إنه في رأيي افضل أعمال رعد في هذا المعرض وأكثرها نضجاً وتعبيراً..

بقية الأعمال كما ذكرت، توزعت بين التشكيل المجرد وبين حارات شعبية وأقواس وشناشيل، وقد مرت أصابع رعد بخفة وطراوة على جميع هذه الأعمال، فطرزتها بخطوط نحيفة متقاربة يظن من يراها أنها عمل ماكنة آلية.

بعد جولتين في المعرض انتحيت برعد جانباً واقترحت عليه أن (ندردش) قليلاً على هامش هذا المعرض فكان هذا الحوار:

عن البدايات قال رعد: منذ طفولتي كنت أرسم ماأراه حولي خصوصاً المناظر الطبيعية مستخدماً أقلام الفحم ثم الألوان، وقد شجعني أبي كثيراً إذ كان يصحح رسومي ويوجهني، لذلك يمكن اعتباره معلمي الأول بعد رسوم الورق والأقلام انتقلت لاستخدام (البويه) في الرسم على الخشب والفايبر. وفي مرحلة المتوسطة اشتركت في المعارض

المدرسية وكان مدرس الرسم يوجهني لاستخدام الظل والضوء وكيفية مزج الألوان، وكانت معظم موضوعاتي تدور حول الطبيعة وجمالها وحول موضوعات شرقية وشعبية كالشناشيل والأحياء الشعبية.

● قلت لرعد: من الواضح أن الدقة في أعمالك ليست وليدة الحاضر، فهي تعكس خبرة أقدم وأعمق، هل لملاحظتي صلة لانتسابك لعائلة تمتهن الصياغة.

- يجيب رعد قائلاً: فن الصياغة، كما هو معروف، عريق في وطننا، وقد اهتمت به وأجادته مجموعة من العوائل المندائية وبينها عائلتي. وكان والدي فناناً معروفاً في مجال اختصاصه كصائغ، لذلك فإنه كان يحفزني على الإبداع وإتقان مابيدي، وكان يشرف على تعليمي، وتوجيهي حين كان النحاس مادتي الأولية. ولأن مادة النحاس أصلب من مادتي الذهب والفضة فإن ذلك إعطاني قوة ومهارة أكبر لأن العمل مع النحاس يتطلب تركيزاً ذهنياً شديداً وتدريباً طويلاً ودراية بخصائص المادة. كنت أحفر على النحاس مباشرة دون رسم مسبق، وبعد أن أتقنت العمل مع النحاس انتقلت للعمل مع الذهب والفضة واستمر عملي مع هذه المواد فترة طويلة بحكم كونها مهنة العائلة، وفي نفس الوقت كنت أواصل الرسم وأزور المعارض الفنية وقد حاولت الرسم بالزيت متأثراً بأعمال الفنان فائق حسن.

● لننتقل إلى الغربة.. اقترحت على رعد- فأنت تعيش منذ سنوات عديدة في المنفى، هل لمناخ المنفى أثر في أعمالك؟

- يقول رعد: الأثر الكبير في معظم أعمالي للوطن.. فأنا لم أقطع الصلة بين ماأرسمه والعراق. ربما انعكست الغربة في بعض لوحاتي التجريدية، مثلاً أستطيع القول بأن النحاسيات عكست بعض التأثر بمناخ الغربة، لكني عموماً كنت مسكوناً بهم الوطن. خصوصاً في رسومي الزيتية، لقد رسمت أهوار العراق رغم أنني لم أعش فيها! لماذا؟ أنا نفسي لاأعرف، ربما كان منظر غابات القصب والبردي الشاسعة يستهويني، وينبت في أعماقي أحاسيس عميقة بالسحر والبراءة والعفوية، وفي نفس هذا الإطار تندرج (صريفة القصب) البهية اللامعة، التي تشكل مع المشحوف مادة تشكيلية هامة لفنان مثلي.

في رسومي أيضاً أكدت على المرأة، فالإنسان في معظم أعمالي هو امرأة، والمرأة عندي ليست أماً وحبيبة فقط، إنها وطن ورحم دائم الجود والعطاء..

● سألت رعد: اقتصر معرضك الأخير على الأعمال الفنية التي أساسها المعدن في حين أنك زاوجت سابقاً بين هذه الأعمال ورسوم الزيت، هل يعني ذلك قطيعة بينك وبين الرسم بالزيت، وأنك وجدت طريقك عبر المعدن فقط؟

- أجاب رعد: أستطيع القول بأنني في هذا المعرض زاوجت بين الرسم والصياغة، فمادتي الأساسية كانت النحاس والألمنيوم، وعلى هذه المواد رسمت ولونت ونقشت أيضاً،

أي يمكن القول بأنني كنت رساماً وصائغاً في آن واحد.

وقد أثارت أعمالي هذه تساؤلات الفنانين الدانماركيين الذين زاروا المعرض إذ تصور بعضهم بأني نقشت اللوحات بماكنة أو استخدمت (اللحيم) مما اضطرني للعمل في قاعة المعرض وأمام جمهور المشاهدين.

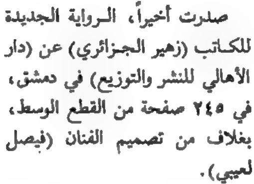
أما اقتصاري على عرض النحاسيات فقط فيعود أساساً لقاعة العرض. فهي كما ترى صغيرة ولا تستوعب لوحات زيتية كبيرة الحجم كتلك التي عندي، ففضلت اقتصار المعرض على هذه الأعمال، بمعنى أنه ليس في نيتي القطيعة مع الرسم بالزيت.

● وأخيراً، قلت لرعد، لاحظت أن إقبال الجمهور على معرضك كان قليلاً، هل هذه ظاهرة عامة؟ وأين تكمن أسبابها؟

ـ يجيب رعد: لم يكن الجمهور قليلاً، ربما كان ذلك أثناء زيارتك، أنا أعتقد أن الجمهور كان جيداً، خصوصاً الجمهور الدانماركي، كما أن نوعية المشاهدين كان أمراً هاماً عندي، فالعديد من الدانماركيين كانوا يسألون ويناقشون محاولين سبر أغوار الموضوع والمادة المرسوم عليها.

زهير الجزائري

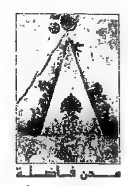
مدن فاضلة!



صدرت أخيراً، الرواية الجديدة للكاتب (زهير الجزائري) عن (دار الأهالي للنشر والتوزيع) في دمشق، في ٢٤٥ صفحة من القطع الوسط، بغلاف من تصميم الفنان (فيصل لعيبي).

إن (مدن فاضلة) تسجّل إضافة جادة إلى مسار الرواية العراقية ونموذجها الذي ثبتته روايات (غائب طعمة فرمان) ونموذج (فؤاد التكرلي).. إنها بين هذا وذاك ليست ضائعة، قدر ما هي تشق طريقاً ثلجياً متوهجاً، مثلما هو في أحداث الرواية التي تجري في جبال كردستان العراق، لتسجّل أياماً وأحداثاً وشخصيات... ومن ذلك تتخذ الرواية مساراً استيطانياً للحالة الإنسانية.. الطبيعية ـ المصيرية ـ الوطنية، وبكل الأبعاد، على نحو لانكاد نقف فيه على عبارة نافلة..

(مدن فاضلة) في الوديان، أو في الجبال... مدن منفية في عمق أماكنها.. كأنها (مدن فاضلة) لن تكون.. عبر إصرار عجيب على أن تكون:



مدن فاضلة

ـ ما اسمها؟

ـ .....

ـ أقصد المدينة التي تركناها..

ـ .....

الغريب أنه قَبِل هذه اللعبة كأنها لعبته، وبقي هو نفسه لايعرف المدينة، وكما في كل مدينة سقطتْ من حياته، يدري أن النسيان سيزيل بجناحه الضبابي هذه المدينة أيضاً، كأنها صنعت من مادة الوهم أو من الشواش الذي يحجبها عنه، وسيبدو أشبه بنوبة إغماء، ذلك الشطر الذي عاشه فيها، كأنه لم يفقد في هذه المدينة حياة ورفاقاً ورفوف كتب.. المكان الجديد سيتكفل بمسح الأول، وكذلك المرحلة الجديدة»..

إنها رواية من ينتظر!

إنها روايةٌ تنتظر.. تنتظر من يقرأها على الواقع، ليقول، من خلالها ومن أجلها، ما تستحق حياتنا ومن أجلنا... من أجل العراق الذي ننتظر!

عباس فاضل

الرحيل على ناقة أبي ذر



عن (دار الينابيع للنشر والتوزيع) في دمشق، صدرت للشاعر (عباس فاضل) مجموعة شعرية حملت عنوان (الرحيل على ناقة أبي ذر)، حوت تسع عشرة قصيدة تعالج هموم الشاعر في الوطن وفي المنفى عبر ٩٦ صفحة من (القطع المتوسط)، وأهديت المجموعة «إلى الصديقة في كل شيء... أميرة حجو».

من المجموعة نختار قصيدة (سبب):

أؤثث بيتي كما يجب
الصالة
المطبخ
الحلم في غرفة النوم
ثم أمدّ شعاعاً من الشمس
في كل زاوية
وأنام
يجيئون...
أمسي كما جئتُ
مستوحداً
ووحيداً
وأرحل

سلام صادق

أحلام خاصة.. كوابيس للعموم

سلام صادق

أحلام خاصة..

كوابيس للعموم



١٩٩٦

(أحلام خاصة.. كوابيس للعموم) مجموعة شعرية للكاتب الشاعر سلام صادق، صدرت مؤخراً في السويد، مهداة «إليكم جميعاً.. لئلا تفسدنكم أحلامكم.. فروع هذا الليل سوف يطول».

تضمنت المجموعة أحد عشر حلماً، نختار منها (آخر الأحلام) فنقرأ من القصيدة المقطع التالي:

سآنس وجهك حتى آخر طعنة

لن أتريث بعد اليوم
وأحصي عثرات قلبي ودربي
لأغذّ السير في حريق خطاي
سلاماً . . .
فالرماد الذي كفّن جمرة
كان قد أشعل ناراً مقدسة
سلاماً . . .
فقد أمطر الليل الطويل
في دمي
فجراً لأشجار الشوارع . .
وشمساً لمقاهي الدخان . . .

سعد الشريفي

حبيناك

أصدر الشاعر الشعبي (سعد الشريفي) مجموعته الشعرية الأولى (دمشق ١٩٩٢) والتي حملت عنوان (حبيناك)، وحوت عشرين قصيدة في ١٠٦ صفحات من القطع الصغير، كتبت خلال ١٩٦٨-١٩٩٢ .

يتصدر المجموعة قول الشاعر البلغاري (ستيفان تسانيف): «لاشيء أعظم من أن تصنع في ساعتك الأخيرة شيئاً للآخرين» وعلى الغلاف الأخير نقرأ المقطع التالي من قصيدة (زخ يامطر):

زخ يامطر
ياطيب اهلنه



وطيبة النعناع
ياجبر الخواطر
وأحلى الوداع
مجروح مثل الكاع
من تنساهه يازخ المطر
وجروحي صارت من طباعي اطباع

محمد تقي جمال الدين

للنخيل وحنون وشط العرب

أصدر الشاعر محمد تقي جمال الدين مجموعته الشعرية الثانية تحت عنوان (للنخيل وحنون وشط العرب) من تنفيذ (دار الينابيع للنشر والتوزيع ـ دمشق).

حوت المجموعة خمس عشرة قصيدة، في ٧٨ صفحة من القطع المتوسط، وأهديت «إلى ضياء.. أخاً وأباً وصديقاً»، وزينت المجموعة رسوم للطفلة (علياء) ابنة الشاعر.



من القصيدة التي حملت المجموعة عنوانها نختار المقطع الأول:

قلبي ياعصفور الشوق
ياذوقاً صوفياً ترفاً في كون مصلوب الذوق
يالهباً يتناثر ورداً، ووليّاً يبكي في ليل
تبقى رغم سنين المنفى ـ من طيب سجايا ـ الخيل
تشتاق صحارى يوقظها وقت الفجر صفير (الريّل).

قصي الشيخ عسكر

للحمار ذيل واحد لا ذيلان



صدرت مؤخراً عن (دار الحضارة الجديدة) في بيروت رواية (للحمار ذيل واحد لا ذيلان) للكاتب قصي الشيخ عسكر، بعد رواياته (المعبر- سيرة رجل في التحولات الأولى - المكتب - شيء ما في المستنقع)، وله مجموعة قصصية بعنوان (المعجزة) ومجموعتان شعريتان (رؤية - صيف العطور الخرساء) إضافة إلى مجموعة من الدراسات في التراث والفكر.

في مقدمة الرواية يبتدىء الكاتب قائلاً: «أعزائي البشر. . أعزائي الحمير. . .» ويختمها بالمقطع التالي:

الحروب
دليل قاطع
على عجز العقل البشري
عن إيجاد حلول جميلة لمشاكله

* * *

الحرب هي أسوأ احتمال
نلجأ إليه
حين يعجز تفكيرنا
عن إيجاد البدائل الأخرى

يوم للثقافة العراقية

في الثامن من تشرين الأول الماضي أقام (البيت الثقافي العراقي) في العاصمة الدانماركية كوبنهاغن، أمسية شاملة للثقافة العراقية، حضرها جمهور واسع من الدانماركيين والعراقيين والجاليات العربية.

وقد تضمن برنامج الأمسية عرضاً مسرحياً إيمائياً من إخراج الفنان سلام الصكر وموسيقى فلاح صبار ونزيه العطية، قدم العرض المسرحي أطفال (فرقة الرافدين المسرحية) بالإضافة للفنانة سهام حسين.

ـ بعد العرض المسرحي قدم الفنان طالب غالي الجديد من أغنياته، وفعل الشيء نفسه الفنان صلاح صبار.

ـ الفقرة الثالثة من الأمسية الثقافية كانت عروضاً من الرقص الشعبي العراقي المصاحب للأغاني الفلكلورية وقد ساهم في تقديمها نخبة من أعضاء فرقة (الوركاء للفنون الشعبية).

ـ تخللت أمسية الثقافة العراقية عروض للفنون والصناعات الشعبية العراقية، بالإضافة لمعرض ضم



صوراً فوتوغرافية مثلت تاريخ العراق القديم والحديث.

ـ كما رافق الأمسية عشاء عراقي، قُدمت خلاله نماذج من الأكلات العراقية الشهيرة كالكباب والكبة والدواسة.

استمرت الأمسية من الساعة السابعة مساء حتى الحادية عشر، وقد تمتع جمهور الحاضرين بفقراتها رغم ضيق القاعة.

مهرجان أدبي وفني في السليمانية

أقيم في محافظة السليمانية يومي ١٨ و١٩ تشرين الثاني الماضي، مهرجان فني وأدبي كبير، نظمته لجنة عليا كانت قد شكلت لهذا الغرض، وضمت مجموعة من الأدباء والفنانين الأكراد، ومن ممثلي عدد من الاتحادات والتجمعات الفنية والأدبية في المحافظة..

في اليوم الأول للمهرجان قدمت

باقـة منـوعـة من الفعـاليات الفنية والأناشيد والأغاني الكردية، تخللتها قراءات لمقـطوعـات شعرية للشاعر الكـردي الكبير عبد الله كوران. وقد افتتح المهرجان بكلمة اللجنة العليا المنظمة.

وفي اليوم الثـاني، قدم عدد من الكتـاب والأدبـاء الأكراد موضوعات ودراسات وذكريات مختلفة.

لقـد كان المهـرجـان حدثاً ثقافياً كبيراً. فقـد غصت القـاعـة خلالـه بالحاضرين الذين ملأوا كل فراغات المكان ومنافذه.

وأحدث المهرجان صدى كبيراً في المحافظة، وفي الختام اقتُرح أن يقوم الحـزب الشيوعي العـراقي بتنظيم المهرجان التالي تقديراً لدوره وتأثيره في أوساط الجماهير والمثقفين.

مخيم رفحاء

المعرض التشكيلي الأول

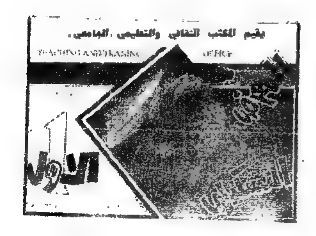
أقـام المكتب الثقـافي والتعليمي «الجامعي» المعرض التشكيلي الأول للفنانين العراقيين اللاجئين في مخيم رفحاء في المملكة العربية السعودية في الفترة بين ٢٤/١٠ ـ ٢٩/١٠/١٩٩٢.

صمم دليل المعرض الفنان جعفر حنون طاعون، أما الأعمال المشاركة في المعرض فهي لكل من:

رجـاء عطية عبـود، أبـو عبد الله الرماحي، علي مكي الرماحي، حيدر الوائلي، علي منصور، ياسين عبود، حيدر الشنـون، نزار الوائلي، عادل رشـاد، حازم محمـد رضـا، حيدر نعيم، قصي الغـالبي، جعفر حنون طاعون، سعد الموسوي، كريم بدر، عدنان محمد القزاز، حامد عباس، محمـد رسول، جاسم محمد رضا، واصف الشنون، علي الركابي.

أما كلمة الدليل فقد كتبها الشاعر واصف الشنون:

«الفنـان.. كتلة الـوجـع والتمرد والرؤيا البكر، الرؤيا المتحدة دوماً مع الفجر والنبض... وشم الحضارة.. ودلالـة تقـدم البشر. الفنان «لاجئاً» يحمـل أرضـه وشـواطئهـا وطـرقاتها ومسـاءاتهـا.. عيون أهله.. أصداء آمـالهم ـ آمـالـه ـ الرحبة التي يلونها



ليجعلها ممكنة . . . الفنان «لاجئاً عراقياً» يؤكد الحياة.

القافلة
مجلة جديدة

من هيئة تحرير مجلة (القافلة) المزمع إصدارها باللغة العربية في إقليم كردستان ـ العراق، جاءنا النداء التالي:

نداء

عن وزارة الثقافة لإقليم كردستان، ستصدر مجلة (القافلة) باللغة العربية فصلياً . . وستعنى بالثقافة الكردستانية المبدعة والأصيلة بقصد الحوار الثقافي مع إخوتنا أبناء لغة (الضاد) العريقة، لذا نهيب بمترجمينا وأدبائنا وكتابنا الأعزاء من الكرد والتركمان والآشوريين أن يساهموا فيها بجدية، آملين أن تكون نتاجاتهم نوعية في مستوى الطموح المنشود، لاسيما وأن خطابنا الثقافي الإبداعي سيتوجه إلى سوانا ممن قطعوا أشواطاً بعيدة في "هذا المضمار. . وشكراً . ."

هيئة تحرير المجلة

دار شريف للنشر

في فيينـا تسهم دار نشر جديدة للمعارضة العراقية في تعرية نظام صدام حسين، وفي التعريف بمشكلات الشرق الأوسط والأدنى بؤرة التوتر في العالم. هذه الدار أسسها الدكتور عصام عزيز شريف، المقيم في فيينا بعد سنوات من العمل في جامعات الجزائر وفي اليونيدو وخبيراً في الجامعة العربية. . . والدار تتجه إلى القارىء باللغة الألمانية في أوربا بتعريفه بقضايا الشرق الأوسط. ومن الكتب التي أصدرتها الدار لحد الآن ونالت تقديراً جيداً في صحافة النمسا وألمانيا: (صدام حسين. نتاج نظام عالمي غير عادل) و(الأكراد العراقيون. . مأساة شعب) و(الجزائر. . من الشعبوية إلى الإسلام)، وهذه الكتب هي من تأليف الدكتور عصام عزيز شريف. . وتسعى الدار إلى إصدار مؤلفات عديدة في هذا الاتجاه.



كلمة وفدنا في المؤتمر الوطني العراقي الموحد

في جلسة افتتاح المؤتمر ألقى الرفيق عبد الرزاق الصافي عضو المكتب السياسي كلمة حزبنا التالية:

أيتها الأخوات..

أيها الاخوة الأعزاء ممثلو قوى المعارضة العراقية..

يسعدنا أن تتكلل الجهود الخيرة لعقد

عرباً وكرداً وأقليات من مختلف الاتجاهات والتيارات السياسية والعقائدية المكافحة ضد دكتاتورية صدام حسين البغيضة. ويسعدنا أكثر أن يكون هذا اللقاء على

ولا يفوتنا أن نعرب عن الأسف لغياب فصائل مناضلة عملنا معها في كل اللقاءات والتنظيمات السابقة لقوى المعارضة العراقية من القوى القومية والديمقراطية. ونخصّ بالذكر الاخوة المناضلين في قيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الاشتراكي، وفي التجمع الديمقراطي العراقي، والحزب الاشتراكي. ونأمل أن نتغلب في عملنا اللاحق على العقبات التي حالت دون مشاركتهم في لقائنا هذا، لما لهذه المشاركة من أهمية كبيرة في إنجاز مانعتزم إنجازه من مهمات جليلة في خدمة قضية وطننا وشعبنا..

أيها الاخوة..

التي عقدت في الشهر الماضي تحضيرا لهذا اللقاء.. ونحسب أننا تحملنا الكثير في سبيل إنجاحه ولم يكن ذلك إلا لإدراكنا عِظَم المهمة التي نتصدى جميعاً لإنجازها، ألا وهي مهمة القضاء على الحكم الدكتاتوري وإقامة نظام ديمقراطي تعددي يتمتع فيه شعبنا العراقي بعربه وكرده وأقلياته بحرياته

الديمقراطية كافة، ويمارس فيه الشعب الكردي حقه في تقرير مصيره في العراق الديمقراطي بالشكل الذي يريد، انطلاقاً من إرادته الحرة. .

أيها الاخوة: .

إننا مطالبون أن نخرج من اجتماعنا هذا بما يحقق توحيد نشاط كل قوى المعارضة العراقية، بل كل القوى التي ترفض الدكتاتورية ونظام صدام حسين، بمن فيها أولئك الذين عملوا مع هذا النظام حتى الآن، ويريدون الانفكاك عنه بحكم إدراكهم جسامة الهوة التي دفع صدام حسين شعبنا إليها، والمخاطر الكبيرة التي يتعرض لها، إذا مااستمر هذا النظام المعادي لمصالح الشعب والوطن. . وبقوانا الموحدة نستطيع أن نضمن بشكل أفضل، استقلالية قرارنا. .

ومطالبون أن نقيم الهيئات واللجان القيادية التي تمثل جميع التيارات، دون استثناء، لضمان توحيد كل الطاقات الخيرة في هذا المسعى النبيل. .

ونعرب عن الاعتقاد بأن البرنامج الذي ينبغي أن نتبناه لعملنا اللاحق ينبغي أن يكون محدداً بدقة، ومكثفاً وينص على المهمات التي نجمع عليها كلنا، وهي التي تتعلق بمهمات مرحلة إسقاط النظام الدكتاتوري ومهمات الحكومة الائتلافية الانتقالية التي تعقب إنجاز مهمة المرحلة الأولى. .

ولذا فإن البرنامج الذي نقترحه مستند بالأساس إلى ما يلي :

١ . إسقاط النظام الدكتاتوري بالاعتماد على قوى شعبنا العراقي بعربه وكرده وأقلياته القومية، والدعم الإقليمي والدولي.

٢ . تشكيل حكومة ائتلافية واسعة، لفترة انتقالية محددة لاتزيد عن سنتين.

٣ . إطلاق الحريات الديمقراطية وضمان تعددية التنظيم السياسي والجماهيري الديمقراطي وحرية الصحافة، وإصدار عفو سياسي عام عن السجناء والمعتقلين وضحايا الدكتاتورية الشوفينية والسماح بعودة المهجّرين العراقيين، وتعويض كل المتضررين جراء تعسف الحكم الدكتاتوري.

٤ . تصدير النفط حسب قرارات مجلس الأمن وتعديلها لصالح حل الأزمة الاقتصادية ورفع الحصار الاقتصادي عن العراق.

٥ . الاعتراف للشعب الكردي بحقه في تقرير مصيره واحترام اختياره للفيدرالية في إطار عراق ديمقراطي موحد.

٦ . احترام القوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة عن غزو الكويت كمنطلق لتجميدها وإلغائها.

٧ . العمل على ضمان احترام حدود العراق الدولية وسيادته الوطنية.

٨. التزام الدول المجاورة والأمم المتحدة بالحفاظ على كيان العراق السياسي ووحدة أراضيه.

٩. انتخاب جمعية تأسيسية تحت إشراف ورقابة الأمم المتحدة، لضمان حرية الانتخابات ونزاهتها. ولكي تضع الجمعية التأسيسية المنتخبة الدستور الدائم وتحدد طبيعة النظام السياسي الاجتماعي في البلاد، ولانبثاق سلطة تنفيذية منها.

وإننا لنتعهد ببذل كل الجهود وكل الطاقات من أجل إنجاح هذا المؤتمر..

والسلام عليكم..

وشكراً لإصغائكم..

البيان الختامي الصادر عن المؤتمر الوطني العراقي الموحد

الوطنية العراقية للمؤتمر الوطني العراقي الموحد في الفترة بين ٢٧ ـ ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢ بحضور نحو ٣٠٠ شخصية عراقية بينهم عدد من الضيوف تمثل مختلف التكوينات السياسية الوطنية والإسلامية والقومية العربية والكردية والتيارات الفكرية المتنوعة.

الدكتاتوري، وإقامة البديل الذي يستجيب لإرادة الشعب ويتمثل في

، الذي يلغي التمييز والاضطهاد الطائفي

والعنصري ويقيم دولة القانون والمؤسسات ويحترم حقوق الإنسان وحرياته الأساسية

وعقيدة الأمـة المتمثلة بالإسلام باعتباره دين الدولة ويهتدي بقيمه النبيلة ومثله السمحة ومبادئه الخيرة.

المجتمعون

المستوى

المستفحلة وعزلته الخانقة يجب

حسمها لصالح الحركة الوطنية العراقية والشعب العراقي وليس لصالح أعدائه.

والاقتصادية والنفسية التي يعيشها جراء استمرار النظام الحاكم ومغامراته وحروبه وسياساته الإرهـابية التي شملت كل قطاعـات الشعب دون أن تستثني أحداً، وكل مناطق العراق وبخاصة جنوب الوطن وفي الأهوار تحديداً حيث تستمر عمليات القمع والإبادة وفي شمال الوطن (كردستان) حيث تعاني المنطقة من آثار التخريب والحصار الاقتصادي إضافة إلى منـاطق الـوسط حيث يواجـه الجميع الإرهـاب والتصفيات من العرب والكرد والتركمان والآشـوريين ومن الشيعـة والسنـة ومن المسلمين والمسيحيين ومن جميع الانتمـاءات السياسية والفكرية والاتجاهات القومية والدينية والمذهبية.

بالإطاحة بنظام صدام حسين البغيض باعتباره المقدمة الضرورية للتغيير الشامل في العراق مؤكـداً على أهمية تصفية الأوضاع الاستثنائية والشاذة وإلغاء القوانين المقيدة للحريات ومحاكم الطوارىء والمؤسسات التي كرست الدكتاتورية.

كمـا ناقشـوا باهتمام كبير تطورات الوضع في

المتحـالفة بالحظر الجوي جنوب خط العرض ٣٢ فأكدوا على أهمية تطوير هذا القرار استناداً إلى قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨ بحيث يمكن تحويل المنطقة إلى (منطقة آمنة) وبعناية دولية فعالة مشدداً على أهمية حماية البشر والسكان الذين يذوقون الأمرّين على أيدي سلطات النظام الغاشم وغاراته المستمرة.

احترام حقوق

الإنسان ووقف القمع الذي يتعرض له السكان باعتباره تهديداً للأمن والسلم الدوليين كما نص القرار، مما يستوجب إلزام النظام العراقي على الامتثال إليه وتقديم ضمانات دولية بذلك.

وبقلق بالـغ تنـاولـوا محـاولات النظام لتغيير الطابع الديموغرافي لمنطقة الأهوار وتجفيف مياهها وحرمان السكان من مصادر العيش والرزق مما يتطلب مناشدة الرأي العام الـدولي والأمم المتحدة إنقاذ المواطنين والبيئة في هذه المناطق، واعتبروا القمع الذي

يتعرض له السكان جزءاً من القمع المستمر والمتواصل والاضطهاد والتمييز الذي تتعرض له الأغلبية العربية الشيعية تلك التي جرت محاولات عديدة ومختلفة لتشويه سمعتها والتشكيك بوطنيتها ومواطنية أبنائها والتجاوز على تراثها وقيمها وشعائرها فضلاً عن الاعتداء على مرجعياتها كما حدث خلال السنوات الماضية، حيث تم التعرض لجامعة النجف الدينية التي مضى على تأسيسها نحو ألف عام والاعتداء على العتبات المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء، وبقية المدن المقدسة وبخاصة خلال انتفاضة آذار (شعبان) المجيدة عام ١٩٩١ بعد هزيمة النظام العراقي في حرب الخليج الثانية، مما يعتبر جريمة كبرى.

وأشاد الاجتماع بالدور الريادي للمراجع العظام وعلماء الإسلام المجاهدين وتصديهم لتعبئة الجماهير في صراعها من أجل نيل حريتها وحماية سيادة الوطن وفي الدفاع عن عقيدتها وتراثها وقيمها وكرامتها وأكدوا على أهمية حفظ هذا الدور في مرحلة البناء في ظل الحياة الدستورية الحرة للعراق.

وأجمعوا أن لاسبيل لوضع حد للتمييز والاضطهاد الطائفي وبالتالي للقضاء على الطائفية السياسية إلا بالقضاء على النظام الغاشم وتصفية تركته البغيضة ومحاولاته لدق الأسافين وزرع البغضاء والكراهية بين المسلمين الشيعة وإخوانهم المسلمين السنة، الذين هم كذلك تعرضوا للقمع على أيدي النظام مثلما تعرض العديد من أعضاء الحزب الحاكم إلى البطش بسبب رفضهم للنظام ومحاولاتهم التخلص منه، مما يثبت أن هذا النظام لايمثل أية طائفة أو قومية أو فئة بل هو معاد للشعب كل الشعب.

ودعا الاجتماع إلى ضرورة الاستفادة من تطبيق القرار ٧٧٨ الصادر عن مجلس الأمن بخصوص بعض الأموال العراقية المجمدة وطالب المجتمع الدولي بضرورة تخصيص الجزء الأكبر منها لأعمال الإغاثة وتوزيع المعونات على السكان المدنيين بتطبيق القرارين ٧٠٦ و٧١٢ بواسطة الأمم المتحدة وهيئاتها المختلفة وممثلي الأهالي والعمل على إملاء الفراغ الإداري والسياسي في هذه المناطق في حالة حدوثه فوراً، ومنع النظام من استثمار وتوظيف المساعدات لصالحه ولصالح أعوانه.

وعند دراسة القضية الكردية وسبل الحل المنشود أكد الاجتماع حقيقة التنوع والتعدد في تركيبة المجتمع القومية والمذهبية والسياسية وأجمع على أهمية تعزيز وترسيخ الوحدة الوطنية الطوعية والمساواة التامة بين جميع المواطنين، معبراً عن احترامه للشعب الكردي وإرادته الحرة في اختيار الصيغة المناسبة للشراكة مع أبناء الوطن الواحد.

صيغة مستقبليه

لحكم العراق ينبغي الاستناد إليها كأساس لحل المشكلة الكردية في إطار المؤسسات الدستورية الشرعية بعد القضاء على نظام صدام حسين وإحداث التغيير المنشود.

وفي هذا الصدد أكد المؤتمر الوطني العراقي الموحد ماتوصل إليه اجتماع صلاح الدين ـ شقلاوة في أيلول الماضي ومؤتمر فيينّا في حزيران الماضي حرصه الشديد على وحـدة العـراق والتعـايش بين قومياته على أساس الاتحاد الاختياري، مبدداً بذلك كل المزاعم والتخرصات حول خطر التقسيم ومحاولات الانفصال أو التفتيت والتجزئة تلك التي يروج لها النظام الدكتاتوري الذي فرط بسيادة الوطن ورهن إرادته وثرواته وقبل بقرارات مجحفة، كما أن استمرار بقائه يشكل تهديداً حقيقياً لوحدة العراق وسيادته وخطراً دائماً ومستمراً على الشعب وعلى الجيران والسلم والأمن الدوليين.

وشـددالاجتمـاع على تلبية المـطامح المشروعة والعادلة للشعب الكردي وتصفية جميع مظاهر الاضطهاد والقمع العنصري على أساس المبدأ القانوني الذي يقر حقه بتقرير المصير وتأكيد روح الاخوة والاتحاد والشراكة في الوطن الواحد.

واعتبر تجربة الانتخابات الديمقراطية التي جرت في كردستان والتي على أساسها أقيمت التشكيلة البرلمانية والحكومية لإقليم كردستان، معتبراً تلك التجربة خسارة مهمة على طريق تعميم ونشر الحريات الديمقراطية في العراق كله.

وتنـاول الاجتماع التمييز الذي يتعرض له التركمان والآشوريون فأكد على أهمية احترام حقوقهم القومية المشروعة وضمان مساواتهم وصيانة ذلك دستورياً بحيث تسود روح الإخاء وتحقيق التضامن في كافة مكونات المجتمع العراقي.

ووجه المجتمعون نداءاً إلى الشعب العراقي وإلى القوات المسلحة وأعضاء الحزب الحاكم ـ بمن فيهم المتورطون بارتكاب بعض الجرائم ـ إلى ترك الطاغية صدام حسين وحيداً قبـل فوات الأوان، كي يلاقي مصيره المحتوم ودعوا الى فك الارتباط بالنظام والانضمام الى صفوف الشعب وأكدوا على ضرورة وأهمية نبذ روح الثأر والانتقام ونهج العقوبة الجماعية.

ووجه الاجتماع نداء خاصاً إلى الأمم المتحدة والهيئات الدولية المختصة يدعوها للمساهمة في الحملة الهادفة إلى تقديم صدام حسين إلى محاكمة دولية بتهمة كونه خارجاً على الشرعية الدولية ومجرم حرب وبتهمة إبادة الجنس البشري، ومواصلة الجهود لمنع إعادة التطبيع مع صدام حسين ونظامه.

وناشدوا الرأي العام العربي والإسلامي والدولي بضرورة مساعدة الشعب العراقي وتقديم المعونات المالية والاقتصادية له خصوصاً وأنه يعاني من عبء الحصار الاقتصادي وغول المجاعة وهول العوز والمشكلات الاجتماعية والصحية المتفاقمة ودعا إلى الإسهام في إعادة إعمار كردستان وتوفير الحماية لسكان الجنوب وإنقاذ البيئة.

وحيا الاجتماع انتفاضة شعبنا العظيم في آذار (شعبان) ١٩٩١ المجيدة، وأبطالها ودعا إلى الاستفادة من الدروس والعبر التي خلصت إليها حيث جسدت إرادة الشعب في

رفضه القاطع للنظام.

وثمن المجتمعون دور الدول الشقيقة التي قدمت الدعم والرعاية للحركة الوطنية العراقية وبخاصة سوريا والمملكة العربية السعودية والدول الصديقة الإسلامية كالجمهورية الإسلامية في إيران والجمهورية التركية وجميع القوى والبلدان التي قدمت المساعدة للعراقيين وحركته الوطنية.

وانتظم المجتمعون في سبع لجان فأقروا ورقة سياسية ونظاماً أساسياً والذي هو بمثابة إعلان دستوري، وورقة اقتصادية، وأخرى إعلامية، وورقة خاصة بالعمل الميداني، وورقة أعمال الإغاثة، وورقة خاصة بحقوق الإنسان، كما أقروا عدداً من القرارات والتوصيات التي تفعّل العمل الوطني العراقي.

وفي ختام الاجتماع الموسع للجمعية الوطنية العراقية انتخب المجتمعون مجلساً رئاسياً من ثلاثة أعضاء، ومجلساً تنفيذياً ومجلساً استشارياً.

وأنهى أعماله بالإصرار على مواصلة النضال حتى تتكلل الجهود بإسقاط النظام الدكتاتوري الغاشم وتخليص البلاد من شروره وآثامه وإعادة المهجّرين والمنفيين إلى العراق وإجراء انتخابات حرة نزيهة لاختيار مجلس وطني يسن دستوراً دائماً للبلاد ويرسي دعائم الاستقرار والأمن والطمأنينة ويقيم دولة القانون والعدل والحرية.

الاشتراك السنوي

٤٠ دولاراً أو ما يعادلها
يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية
الى رقم الحساب
466184 / 12
Banque Libano - Francaise
Bar Elias - Lebanon

المراسلات:

الثقافة الجديدة
سوريا ـ دمشق
ص. ب ٧١٢٢
تلفون: ٤٤٩٧٢٤
فاكس: ٧٧٣٩٩٢



على ضوء المؤتمر العراقي الموحد . . .

وأخيراً تكللت الجهود الخيرة بالنجاح، واجتمعت المعارضة العراقية بكافة فصائلها

الدين،

والنظام العراقي. ولا ريب أن أنظار العراقيين والعالم كله تتوجه اليوم إلى العراق، فللحركة الديمقراطية العالمية، خبرات في مجال استخدام سلاح الوحدة والاتحاد المجرب لإسقاط قوى الدكتاتورية والظلام، وللحركة الوطنية العراقية تجارب لاتحصى بهذا الصدد، فلقد سقطت الملكية في العراق عام ١٩٥٨ بعد شهور من إقامة جبهة الاتحاد الوطني، وطُهّرت أرض

أن أيام النظام القائم في العراق ستكون معدودة لاشك، إثر توحيد صفوف المعارضة العراقية في الاجتماع الثاني والموسع للمؤتمر الوطني العراقي الموحد. .

أن تفتح عناصر المعارضة العراقية

الحزبية ﴾ فمنجزات لاتحصى مثل

تفتح وتفهم

لشعبنا الكردي وتعاطف الرأي العام الدولي مع الجماهير العراقية، أنجز وحدة صفوف المعارضة العراقية في نهاية شهر تشرين الأول من عام ١٩٩٢. وكلما كان تفهم المناضلين العراقيين لعدالة القضية الكردية عميقاً «متحرراً» وكلما كان المناضلون الكرد متحدين فيما بينهم، موحدين كلمتهم، مشددين من نضالهم، كلما كان إسقاط النظام أسرع وإنقاذ الشعب من ويلات الدكتاتورية أمراً «مؤكداً».

إن الجماهير العراقية التي تتطلع بدموع الفرح إلى المستقبل الوضاء من خلال وحدة صفوف المعارضة العراقية، ستندفع في سوح النضال لاشك زرافات وجوعاً. وإن سقوط النظام في القريب المنظور، أمر محتم. وتحية إلى القوى العراقية المناضلة من أجل الديمقراطية والفدرالية والسلم والتقدم الاجتماعي.

افتتاحية (به ره ى كوردستان .

١٠ /٣٠

الجريدة المركزية للجبهة الكردستانية

حزب الدعوة الإسلامية: بشأن نتائج مؤتمر صلاح الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيتها الجماهير العراقية الصامدة

يا أبناء شعبنا البطل

أيها المقاومون في أعماق الهور ومدن الجنوب . .

إن حرصنا الشديد على إنقاذ البقية الباقية من شعبنا المقهور الذي أمعن في قتله وتعذيبه جلاد بغداد وتخليص العراق من عصابات الطاغية التي عاثت في الأرض فساداً وأهلكت الحرث والنسل ودمرت كل مكونات الحياة وأحالت نهار الناس إلى ليل حالك مظلم،

متجانسة، لتستطيع من خلال إقناع الرأي العام العالمي والإقليمي، إجراء التغيير المنشود الذي يطمح إليه كل العراقيين، بإسقاط سلطة الطاغية وإحلال البديل المنتخب محلها.

يا أبناء شعبنا الجريح . .

صرخة مدوية في وجه الطغاة الخونة، ومحاولات

قوى الشر والعدوان العالمي والمحلي ضد الإسلام وإرادة الشعوب في التحرر، إذ أن

والإقليمي يومذاك لم يختلف كثيراً عن موقف جلاد بغداد. لذلك فقد

عقدنا العزم كما كنا كذلك من قبل، لنستعيد المبادرة ونعيد الكرة من جديد عسى الله أن يجعل النصر والظفر حليفنا هذه المرة.

المعارضة، كان رائدنا الأول من المشاركة أن ندفع بقضية شعبنا إلى صدارة الأحداث ونكسب عطف وود الرأي العام إزاء مايجري في أرض الوطن من كوارث ومحن يعز نظيرها في التاريخ. وكان الأمل يحدونا في خلق جبهة معارضة وطنية متراصة تصعد الجهاد وتعزز الصمود حتى يتحقق الوعد الحق بالنجاح.

إلا أن مايؤسف له ويدعونا للحيطة والحذر والتحفظ أن النتائج التي خرج بها الاجتماع كانت مجحفة بحق التيار الإسلامي الذي يمثل الأغلبية الكاسحة في مسار الأحداث المواجهة مع سلطة بغداد، وإن الجو المتوجس الذي ساد الاجتماع من الخط الإسلامي كان مدعاة لأسفنا وامتعاضنا.

لذلك كان لزاماً علينا أن نجهر بهواجسنا للجماهير من وجود خطة لاحتواء الحالة الإسلامية التي هي عنوان هوية تحرك الشعب وصموده ليكون يقظاً وعلى أهبة الاستعداد.

إننا في الوقت الذي تهمنا وحدة المعارضة العراقية ورصانة جبهتنا الداخلية يهمنا أيضاً عدم مصادرة المكاسب والمنجزات التي تحققت بفضل مواكب ثوارنا وشهدائنا ومجاهدينا والصامدين في قعر الزنزانات والسجون ولعل رضانا في انخراط البعض داخل صفوف المعارضة ممن لم ينسجموا مع مسيرة الشعب في الماضي، لايعني مطلقاً تأييدنا لهم وهم يتصدرون مسيرتنا السياسية.

إن حزب الدعوة الإسلامية يعلن عن تحفظه على النتائج والطريقة التي مورست في المؤتمر، ويرى أن بعض القرارات التي أفرزها المؤتمر المذكور لم تراع بها الاتفاقات التي تمت في لجنة الإعداد للمؤتمر بما في ذلك تجاوز قناعات وواقع الوجود الإسلامي العراقي وتهميش دوره وإقرار مبدأ الطائفية السياسية التي لم يألفها شعبنا من قبل. وبما يحجم دور الأغلبية الإسلامية الشيعية في الواقع العراقي وذلك من خلال التشكيلات الإدارية التي لم تكن معبرة عن ذلك الواقع، ولذلك فإن الإصرار على هذا التوجه يضعنا أقرب إلى خيار الانسحاب منه إلى الاستمرار في التعامل مع المؤتمر. خاصة وأننا نعتقد بأن مصلحة الشعب العراقي وإرادته لم تتحقق في النتائج التي أفرزها المؤتمر المذكور.

ولعل ماأفرزه الاجتماع من تقسيم طائفي وقومي لشعبنا الذي أوغل طغاة بغداد في تقسيمه بما فيه الكفاية كان نتيجة معلومة لتجميد العمل بلجنة الإعداد المتفق عليها في اجتماع صلاح الدين - شقلاوة في أيلول الماضي حيث كانت تمثل الأطراف الرئيسية في المعارضة، فعوّمت بذلك إدارة المؤتمر وتركت نتائجه دون اتفاق تلك الأطراف.

لذلك ومن موقع الإحساس بالمسؤولية التاريخية، ندعو جماهيرنا لليقظة وال والحضور الدائم في ميادين الصراع، وسنكون معهم ولهم في كل موقع نشارك فيه أو نتركه، فدافعنا في كل ذلك هو نصرة كفاح الشعب واحترام إرادته والسير معه إلى نهاية الشوط حتى الشهادة أو النصر..

والله لا يضيع أجر العاملين

عن (الموقف) تشرين الثاني

في ضوء اجتماعات صلاح الدين

سباق . . بين المعارضة العراقية وصدام حسين. . . !

في الساحة السياسية العراقية، وعلى طرفي معادلة الصراع بين صدام حسين وبين المعارضة العراقية، يجري منذ نهاية حرب الخليج وهزيمة النظام العسكرية في الكويت، سباق هدفه من جانب صدام حسين الاستمرار بالحكم بأي ثمن وبأية وسيلة، وذلك من خلال تقديم المزيد والمزيد من التنازلات والموافقة، كل يوم تقريباً، على شروط جديدة تفرضها أمريكا، على حساب السيادة الوطنية وعلى حساب مصالح الشعب والبلاد وعلى حساب الكرامة الشخصية أيضاً.

وهدف السباق من جانب المعارضة العراقية السعي للوصول إلى الحكم بدلاً من صدام حسين وهو هدف مشروع، ولكن المفارقة الغريبة في هذا السباق أن بعض أطراف المعارضة، شأنها في ذلك شأن صدام حسين، لاتكاد تفعل شيئاً في مسعاها من أجل الحكم، إلا القبول بالشروط الغربية عموماً، والأمريكية بوجه خاص لعراق المستقبل. فبدلاً من مؤتمر كانت المعارضة العراقية تسعى لكي يكون عراقياً، شكلاً ومضموناً، تحضيراً ونتائج، مؤسسات وقيادات، وافق قسمٌ من هذه المعارضة، مكرهاً أو راضياً، على مؤتمر أعدت له وأشرفت عليه وأوحت بقراراته وقوام هيئاته القيادية دوائر المخابرات الغربية، والأمريكية بوجه خاص. ذلك هو مؤتمر فيينّا المنعقد في حزيران من هذا العام.

وبدلاً من مؤتمر كانت المعارضة العراقية الحقيقية تحرص على أن يكون معبراً عن واقع الساحة السياسية العراقية المتميزة بالتعددية السياسية والحزبية والقومية، جاء مؤتمر فيينّا ليكرس ماأراده السادة الأمريكان من تقسيمات عرقية وطائفية وإثنية وبالتالي جغرافية، تشكل تهديداً لوحدة البلاد أرضاً وشعباً.

وبدلاً من أن يعكس مؤتمر فيينّا توازن القوى السياسية في الساحة ويعمل على حشد كل طاقات فصائل المعارضة العراقية دون استثناء، انفرد البعض من المعارضين، اعتماداً على دعم أجنبي، دولي أو إقليمي، بالهيمنة والاستئثار بالقرار العراقي وبالمواقع القيادية. وكانت حصة الأسد في ذلك لفئة طارئة على المعارضة العراقية، كل رصيدها علاقاتها الحميمة بدوائر المخابرات الأجنبية وأموال جمعتها بطرق غير مشروعة.

انطلاقاً من هذه الثغرات الجدية التي رافقت مؤتمر فيينّا وميزت أعماله والنتائج التي أسفرت عنه، لاسيما تغييب استقلالية القرار العراقي، فإن القوى والأحزاب السياسية التي

كانت مؤتلفة في قوام لجنة العمل المشترك قد تغيبت عن ذلك المؤتمر، ودعت مجتمعة وكـلّ على انفـراد إلى عقد مؤتمر عام وشامل يلتزم الثوابت الوطنية العراقية ويوحد قوى المعارضة في سعيها من أجل البديل الديمقراطي للحكم الاستبدادي ـ الدكتاتوري لصدام حسين.

وحين استقبلت بعض قوى المعارضة العراقية، ومنها تجمعنا الديمقراطي، مبادرة الأخ مسعـود ا لبـارزاني لتوحيد المعارضة والجمع بين صيغتي مؤتمر فييّنا ولجنة العمل المشترك، مرحبة بها، فإنها فعلت ذلك انطلاقاً من حرصها على وحدة الصف العراقي المعـارض للنـظام ويـأمـل أحداث تعديل في بنية الصيغة الموحدة المنشودة للمعارضة العـراقية لمصلحـة الخط الـوطني وترجيحاً لاستقلالية القرار العراقي المستقل. غير أن الأجواء التي سادت اجتماعات أربيل التمهيدية في صلاح الدين ـ شقلاوة، والنتائج التي أسفرت عنها، جاءت مخيبة للآمال.

فقد مُهد لتلك الاجتماعات بلقاءات مغلقة، ومن وراء الكواليس، استبعدت أطرافاً وقوى مهمة، واقتصرت على أطراف متنفذة من فرسان فييّنا وبعض أطراف لجنة العمل المشترك، التي طالما وضعت رِجلاً هنا ورِجلاً هناك، وتميزت خلال فترات طويلة باللعب على مختلف الحبال.

وفي تلك اللقاءات المغلقة، جرى الاتفاق على إلحاق الفصائل المؤتلفة في لجنة العمل المشترك، الحاقاً دون قيد أو شرط بمؤتمر فييّنا وبما يدعى «المؤتمر الوطني العراقي» ودون تعديل أو تغيير في التوجهات المرفوضة وطنياً وقومياً لذاك المؤتمر، ودون الأخذ بأية اعتراضات أو ملاحظات سبق أن قدمت من أطراف لجنة العمل المشترك مجتمعين أو منفردين.

وفوق هذا وذاك فقد اتفق في تلك اللقاءات التمهيدية المغلقة على استبعاد أو عزل أو التقليل من شأن هذا التيار أو ذاك الفصيل من تيارات وفصائل المعارضة العراقية، ممن كان لها ولا يزال دور مشهود في النضال ضد النظام الدكتاتوري منذ سنوات طويلة.

وإذا كان عزل الآخـرين واستبعـادهم من ساحـة العمل السياسي العراقي وفرض التحريم عليهم، بهذه الحجة أو تلك، هو سياسة مدانة انتهجها النظام ولا يزال ضد بعض فصائل المعارضة العراقية وكرسها بالقانون حتى هذه الساعة في صفوف القوى المعارضة للنظام، أن يمارس السياسة نفسها؟!

ورغم المناشدات التي وجهت لمنظمي اجتماع ٢٧ تشرين الأول في مصيف صلاح الدين، من قوى وفصائل عديدة في المعارضة العراقية، بضرورة التأني في عقد مايسمى

بـ «المؤتمر الوطني العراقي» وتأجيله حتى يتسنى وقت كاف لمزيد من المشاورات، فقد أصروا على عقده في الوقت المحدد، موظفين زمن عقد المؤتمر كورقة في المعركة الانتخابية التي كان يخوضها الرئيس الامريكي السابق بوش ضد منافسيه في الانتخابات الرئاسية الأمريكية. . !

وبذلك فقد تجاهل منظمو «المؤتمر» واقع أن أي جهد أو أية فعالية تقوم بها المعارضة العراقية، يجب أن توظف فقط في خدمة القضية العراقية ومن أجل تقريب يوم خلاص الشعب العراقي من محنته مع الدكتاتورية.

لذا فإن اجتماع ٢٧ تشرين الأول في صلاح الدين لم يكن إلا استمراراً لمؤتمر فيينّا، وهو لم يحمل كل العيوب والثغرات والنواقص التي حملها، قبله، مؤتمر فيينّا، فحسب، بل إنه قد كرسها، كما أضفى عليها، من خلال مشاركة البعض فيه، طابعاً شرعياً.

ومما يؤسف له حقاً أن تلتحق بهذا «المؤتمر» قوى محسوبة على الصف الوطني والإسلامي العراقي المعارض للنظام، متجاهلة طبيعية مؤتمر فيينّا والقوى المشبوهة التي وقفت من ورائه، وقد ارتكبت بمشاركتها في هذه الصفقة التي أريد بها تزوير إرادة الشعب العراقي والتنكر لكل ثوابت العمل الوطني، خطأً كبيراً.

فمن بين أخطر السوابق المرفوضة وطنياً والتي تمخض عنها «المؤتمر الوطني العراقي»، هي تلك الصيغة الطائفية ـ العرقية لما يسمى بـ «مجلس الرئاسة العراقي» الذي تكون من ثلاثة أعضاء: شيعي وسني وكردي. . . ! وهي صيغة تحمل في طياتها توجهاً من شأنه النيل من وحدة العراق أرضاً وشعباً، وتخلق مقدمات تقسيم البلاد على أسس طائفية ـ عرقية، لم تجرؤ الأنظمة المتعاقبة على الحكم في العراق، بما في ذلك النظام الملكي، على التحدث بها أو الموافقة عليها. . . !. .

والأنكى من ذلك الكيفية التي تشكل على أساسها مايسمى بـ «المجلس التنفيذي» أو الحكومة العراقية المقبلة، حيث «اختير» لرئاسة المجلس التنفيذي شخص تجمع قوى المعارضة العراقية كلها، بما في ذلك تلك القوى المشاركة في فيينّا وصلاح الدين، على عدم أهليته وصلاحيته لهذا الموقع، اللهم إلا روابطه الحميمة مع الدوائر الغربية والأمريكية. . . !

إن قبول أو مجرد السكوت على محاولات فرض بدائل للنظام الديكتاتوري القائم، لاتمثل الإرادة الحرة لشعبنا وقواه السياسية المخلصة، ولا تعبر عن توازن القوى في الساحة السياسية العراقية، ينبع من قصور في النظرة إلى المستقبل ومن تجاهل لدروس التجربة التاريخية والمعاصرة لنضال الشعوب، وهو، من حيث أدرك أصحابه أم لم يدركوا، سيساهم في استمرار حالة الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار التي عانى منها شعبنا لزمن

طويل.

هذا وكان الاقتتال المؤسف الذي نشب مؤخراً، بين أطراف في الحركة الكردية العراقية وبين حزب العمال الكردستاني في تركيا، حيث راح المئات من الأكراد في الجانبين قتلى وجرحى، قد أصاب الجماهير الكردية بالإحباط وخيبة الأمل.

وفوق ذلك فقد شكل هذا الاقتتال بين الاخوة الأكراد، وتدخل القوات التركية في أراض عراقية، إحدى النتائج التي ترتبت على التسليم بأهداف القوى الإقليمية الطامعة، وجزءاً من الثمن الذي تدفعه المعارضة العراقية عموماً والكردية بوجه خاص لقاء تساهلها إزاء أهداف ومطامع الدول الغربية في المنطقة.

إن توحيد قوى المعارضة العراقية ورص صفوفها، كان وسيظل من بين أبرز المهمات التي لايمكن الاستغناء عنها أو تجاهلها، لذا فإن انعقاد مؤتمر عام وشامل وموحد للمعارضة العراقية، هدف يبقى يجب أن نعمل من أجل تحقيقه كل قوى المعارضة أحزاباً وجماعات وشخصيات سياسية مستقلة.

إن المؤتمر الذي يريده الشعب هو ذلك المؤتمر القادر حقاً على توحيد قوى الشعب وحشد كل طاقاته من أجل الإطاحة بالدكتاتورية الغاشمة وبناء عراق ديمقراطي حر، المؤتمر الذي يلتزم الثوابت الوطنية وتشارك في أعماله كل قوى المعارضة دون استثناء، المؤتمر الذي يجب أن تنبثق عنه على نحو ديمقراطي وعادل، هيئة قيادية مسؤولة تمثل كل العراقيين، بعيداً عن كل محاولات العزل والتحريم الداخلية والمستوردة.

افتتاحية (الغد الديمقراطي)
تشرين الثاني
التجمع الديمقراطي العراقي

تصريح ناطق رسمي باسم لجنة تنسيق العمل القومي

صرح ناطق رسمي باسم لجنة تنسيق العمل القومي في العراق، والتي تمثل القوى والشخصيات المعارضة في التيار القومي العربي، بأن قوى التيار القومي لم تشارك في مؤتمر أربيل الحالي، وذلك لاعتقادها بأن الهدف من هذا المؤتمر لايخدم قضية شعبنا الوطنية في تصفية الدكتاتورية وإقامة نظام ديمقراطي تعددي، بل إن المؤتمر المذكور بصيغته الحالية وتسلط عناصر طارئة على العمل الوطني في العراق يجعله لايخدم أهداف شعبنا وطموحاته الوطنية.

لقد نبهنا الاخوة الوطنيين في المعارضة العراقية وبصورة خاصة الاخوة في التيار الإسلامي الذين نعتبرهم الحلفاء الطبيعيين للتيار القومي العربي إلى النتائج السلبية والأخطار التي ستنعكس على قضية شعبنا من جراء انعقاد هذا المؤتمر بصيغته الحالية وأوضحنا لهم رأينا الذي يتلخص بما يلي:

١ ـ إننا نرى بأن القوى الأساسية في المعارضة تتمثل في التيار القومي والديمقراطي والتيار الإسلامي، والجبهة الكردستانية، وعلى هذا الأساس فإن التيارات المذكورة هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن شؤون المعارضة العراقية بصورة عامة ومن ضمنها المؤتمرات التي تعقد في الخارج. وعارضنا بشكل قاطع تسلط عناصر ليست لها أي ارتباط بالعمل الوطني العراقي.

٢ ـ إن النضال من أجل إسقاط الدكتاتورية وإقامة نظام ديمقراطي يخدم حقوق الإنسان ويشيع المساواة بين المواطنين ويمكن جماهير شعبنا من ممارسة دورها ومشاركتها في صنع قرارها يجب أن يعتمد على قوى شعبنا الوطنية وليس على الرهانات الخارجية الوهمية والتي تتعارض مع طموحات شعبنا.

٣ ـ إن أخطاراً عديدة تتهدد وحدة العراق أرضاً وشعباً في هذه المرحلة الدقيقة من حياة شعبنا وأمتنا العربية، لذا فإننا ندعو القوى الوطنية الأخرى للسير معاً لنكون في طليعة المدافعين عن وحدة بلادنا واستقلالها الوطني.

٤ ـ إن التيار القومي العربي يؤكد على شراكة العرب والكرد في الوطن ويعمل من أجل أن يحصل الشعب الكردي على كافة حقوقه القومية المشروعة. إلا أن طرح صيغ محددة في المرحلة الحالية كالفيدرالية وغيرها لايساعد على تمتين وحدة الصف الوطني

كما أن صيغاً من هذا النوع تحتاج إلى مؤسسات تمثيلية شعبية للبت بها وهي تخرج عن دائرة اختصاص المعارضة، بل تتطلب قراراً شعبياً حراً.

٥ ـ إننا ندعو القوى الإسلامية والجبهة الكردستانية وسائر الوطنيين العراقيين لوضع صيغة وطنية سليمة للتحالف وتنظيم مؤتمر للمعارضة العراقية يقوم على أسس وطنية ويأخذ بنظر الاعتبار دور القوى والتيارات الأساسية في المجتمع العراقي لتصفية نظام صدام حسين الدكتاتوري وإقامة نظام ديمقراطي تعددي يشيع العدالة والمساواة بين صفوف أبناء شعبنا.

لجنة تنسيق العمل القومي
(العراق)

رأي المجلس الأعلى:

صرح متحدث باسم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق تعقيباً على إعلان اللجنة الرئاسية المنبثقة من مؤتمر صلاح الدين لفصائل المعارضة العراقية بما يلي:

لقد دأب المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ومنذ تأسيسه على توحيد جهد المعارضة العراقية من أجل إسقاط نظام صدام المجرم، وقدم في سبيل هذا المسعى الجاد الكثير من الطروحات والرؤى والمشاريع العملية.

وأضاف المتحدث بأن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق يؤمن بأن طريق وحدة المعارضة العراقية مازال مفتوحاً مادامت هناك رغبة أكيدة في إسقاط نظام صدام وإنقاذ الشعب العراقي من المأساة الكبيرة التي يعاني منها في ظل تسلط النظام العفلقي.

وقد أكد المجلس الأعلى من خلال بياناته المتكررة وتصريحات سماحة آية الله السيد الحكيم رئيس المجلس الأعلى على ضرورة الاهتمام والتعامل الجدي مع الواقعيات التي تحكم الشعب العراقي.. إيماناً منه بأن مثل هذا التعامل كفيل بتحقيق الانسجام التام والكامل بين أبناء الشعب العراقي.

وجاء اشتراك المجلس الأعلى في مؤتمر المعارضة العراقية الذي انعقد مؤخراً في صلاح الدين بدافع الحفاظ على وحدة المعارضة العراقية وضرورة وضع الخطط الناجحة لإسقاط صدام ونظامه. ومن أجل تقديم صورة واضحة لبعض الأمور لابد من توضيح ماحصل حول مسألة الرئاسة، فلقد طرح في المؤتمر تشكيل لجنة رئاسية تتألف من ثلاثة

أشخاص ينتخبون على أساس قومي وطائفي.

وأضاف المتحدث أنه على الرغم من أن سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق كان مطروحاً بقوة كأحد أعضاء هذه اللجنة إلا أنه رفض ذلك إيماناً منه بقضية الشعب العراقي الكلية واقتناعاً بأن جهوده هي لكل أبناء هذا الشعب دون استثناء واعتقاداً بعدم صحة اشتراكه بأي نشاط باعتباره يمثل جماعة من الشعب.

أضاف المتحدث بأن هذه اللجنة الثلاثية إنما هي تكريس للطائفية والتقسيم القومي، وبالتالي فإنها تعني تغييباً لحقوق القوميات الأخرى. وإذا كان المقصود منها هو التمثيل الكامل للشعب العراقي، فإن شيعة العراق هم الأغلبية الكبيرة في العراق حيث تتجاوز نسبتهم الـ ٦٥٪ في حين أن اللجنة الثلاثية تنزل بهم إلى الثلث.

وقال المتحدث أن لهذه الأسباب فقد اعلن وفد المجلس الأعلى إلى المؤتمر تحفظه على ذلك ولكنه لم ينسحب من المؤتمر لأن هدفه هو الحفاظ على وحدة المعارضة العراقية وخصوصاً في مثل هذه الظروف الحرجة التي يمر بها شعبنا العراقي.

متطلبات العمل الوطني

منذ انعقاد المؤتمر الوطني العراقي في فيينا في حزيران الماضي ومروراً باجتماعات الحوار في صلاح الدين ـ شقلاوة، ثم انعقاد الهيئة العامة للمؤتمر الوطني العراقي الموحد في صلاح الدين وحتى اليوم، لازلنا نسمع انتقادات وآراء عديدة حول وحدة العمل الوطني العراقي المعارض.

وكان الوفاق الوطني العراقي أول من طرح موضوع عقد المؤتمر الوطني العراقي منذ كانون الأول ١٩٩٠ ـ وكنا دائماً من دعاة عقد مثل هذا المؤتمر للوصول إلى صيغة عمل موحدة تهدف إلى إسقاط النظام الدكتاتوري وإقامة البديل الديمقراطي الدستوري. وهنا نأخذ على بعض الناقدين مواقفهم السلبية، فوجود بعض السلبيات في الاجتماعات السابقة لايعني أن تكون معالجتها بالدعوة إلى إلغاء نتائجها، بل ينبغي العمل الجاد للتغلب على الصعوبات والسلبيات من خلال الحوار والتعاون الإيجابي.

إن الحالة المأساوية التي يمر بها العراق اليوم لاتسمح باتخاذ مواقف سلبية والإصرار على المكاسب الذاتية، بل إن المصلحة العليا لشعب العراق تفرض على الجميع الالتزام

بالعمل الجاد لإسقاط النظام، وحين تتهيأ للشعب ممارسة حقه في الحرية والديمقراطية آنذاك سوف تتوفر لكل طرف الحرية التامة للتعبير عن كامل آرائه ومواقفه وسيكون حجم ثقة الشعب بذلك هو المعيار الحقيقي لصوابها ومشروعيتها.

إننا لاننكر وجود بعض السلبيات في الإجراءات التي تمت في الاجتماعات السابقة وخاصة اجتماع صلاح الدين الأخير، ولنا ملاحظات محددة بشأنها. . غير أننا نرى أن تصحيح الأوضاع يكون بالحوار الجاد والمواقف المرنة البناءة في داخل المؤتمر، وليس بالدعوة إلى تقويض نتائج المؤتمر، لأن المؤتمر هو نتاج وطني لايجوز إلغاءه وتهديمه، ولأن الاجتماعات السابقة حققت مكتسبات هامة ونتيجة جهود مخلصة تصب باتجاه تحقيق الهدف الأساس وهو التخلص من النظام الدكتاتوري.

إننا نؤكد أن المؤسسات المنبثقة عن اجتماع صلاح الدين هي ليست حكومة مؤقتة ولا تمثل أية صيغة من هذا النوع. وليس من صالح المعارضة مطلقاً أن تتبنى مثل هذه الصيغ، لأن الحكومة التي ستخلف نظام صدام ستكون من داخل العراق ومن العناصر التي ستقوم بإسقاط النظام وتتحمل مسؤولية إدارة المرحلة الانتقالية ولها أن تتعاون مع أطراف المعارضة.

ولذلك فإن الواجب الوطني يتطلب تعاون الجميع من أجل ترسيخ وتطوير المكاسب التي حققتها الاجتماعات السابقة والدفع بالعجلة إلى الأمام من أجل إسقاط الدكتاتورية وإقامة دولة القانون والدستور.

افتتاحية (بغداد) ٢٠/ ١١

الوفاق الوطني العراقي

نداء إلى جميع الديمقراطيين العراقيين*

تتعاظم أهمية الديمقراطية كنظام سياسي واجتماعي واقتصادي دولياً وإقليمياً ومحلياً، مع التقدم الحضاري ومع ازدياد وترسخ التجارب العملية على النطاق العالمي وتتركز القناعة بأنه لايمكن حل مشاكل الشعوب والأمم بدون تبني الديمقراطية كنظام وآلية عمل. ومما لاشك فيه فإن التوجه نحو الديمقراطية قد برز منذ سنوات في صفوف شعبنا نتيجة لجملة من التطورات السياسية والفكرية والاجتماعية التي شهدها العراق خلال العقود الأربعة الماضية.

وكان لغياب الديمقراطية ولجموح الروح الفردية والنزعات الدكتاتورية في تقرير مصائر العراق وشعبه منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وحتى اليوم نتائج مدمرة على البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإلى جانب آلاف الضحايا من القوى السياسية المختلفة بما فيها حزب البعث الحاكم اكتوت الأغلبية من أبناء شعبنا الأكثر بعداً عن الأحزاب السياسية بنار السياسات الحكومية الهوجاء وبخاصة في عهد صدام حسين الذي تميز بالبطش الوحشي والرعونة المطلقة. وكانت النتيجة المأساوية زج العراق بحربين عبثيتين في الخارج وحرب ثالثة في الداخل على الشعب الكردي وقد أتت الحروب الثلاثة على الصفوة من أبناء شعبنا وموارده المادية.

وإذا كان التخلص من وباء الدكتاتورية هو الهدف الأول لكل القوى والأحزاب السياسية العراقية المعارضة، فإن إقامة النظام الديمقراطي البرلماني القائم على تداول السلطة وفقاً لإرادة الشعب العراقي الحرة من كل قيد والمعبر عنها في انتخابات نزيهة مباشرة وسرية يساهم فيها جميع من يحق لهم الاقتراع نساء ورجالاً استناداً إلى دستور دائم يقره مجلس تأسيسي منتخب، سيكون الهدف الأعظم الذي يسعى إليه الشعب العراقي أفراداً وأحزاباً بعد إنهاء الدكتاتورية.

وإذا كان مقدراً لأنصار الديمقراطية أن يضطلعوا بدور بارز مع بقية القوى السياسية وأبناء الشعب العراقي المخلصين بالقضاء على الدكتاتورية فإن دوراً سياسياً أكثر أهمية سيقع على عاتقهم لتعزيز النظام الديمقراطي البرلماني التعددي.

ولكي يحقق المؤمنون بالديمقراطية مزيداً من النمو والاتساع ولكي تترسخ

---

* طرح للنقاش بتاريخ ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢.

الديمقراطية عميقاً في حياة الشعب العراقي وفي داخل الاحزاب والتيارات السياسية لقوى المعارضة العراقية، فإن ذلك يتطلب من القوى الديمقراطية (تنظيمات وأفراداً) أن توحد صفوفها وجهودها في أطر مناسبة حتى تتمكن من تكثيف نشاطاتها بما يزيد دور التيار الديمقراطي الليبرالي ترسخاً في الحياة السياسية العراقية.

وإدراكاً لأهمية التوجه الديمقراطي الآن ومستقبلاً في الحياة السياسية العراقية، فإننا نعتقد أن حركة ديمقراطية أو منظمة ديمقراطية مستقلة أو حزباً ديمقراطياً مستقلاً يضم القائلين بالديمقراطية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في إطار أوسع تعددية ممكنة تسمح باختلاف الآراء والاجتهادات ضمن الحل الديمقراطي للمسائل المختلف بشأنها إنما هو الهدف المطلوب تحقيقه.

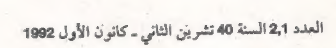
ونحن الموقعين على هذا النداء المفتوح القابل لانضمام المنظمات والأفراد ننطلق من شعورنا بالمسؤولية إزاء بلادنا وشعبنا في هذه اللحظات المصيرية، فنتوجه إلى كل المواطنين العراقيين بغض النظر عن الانتماء القومي أو الديني أو الطائفي، ممن اختاروا المفاهيم الديمقراطية منهجاً وسبيلاً في معالجة الشؤون السياسية والحياة العامة بعد أن أدركوا أن مآسي شعبنا الكبرى قد نشأت من جراء غياب هذا النهج وذلك السبيل، أن يعملوا بالتعاون مع الآخرين على التحضير لعقد مؤتمر موحد للديمقراطيين العراقيين في غضون ستة أشهر من نشر هذا النداء في وسائل الإعلام العامة، على أن يسبق ذلك تكوين لجنة تحضيرية تعد وثائق المؤتمر المنشود وأهمها برنامج ديمقراطي ليبرالي شامل ولائحة داخلية تنظم سير عمل المنظمة المنبثقة عن هذا المؤتمر وكذلك عمل هيئتها القيادية المنتخبة ديمقراطياً.

وليكن رائدنا: وحدة بلادنا السياسية والإقليمية.

وليكن مرشدنا: مصالح شعبنا العراقي العادلة والمنسجمة مع مصالح المجتمع الدولي.

وليكن هدفنا الأول: إقامة النظام الديمقراطي البرلماني ودولة القانون والمجتمع المدني والحريات العامة والشخصية.







السعر خمسة دنانير